

الهيئة
العامة
لقصور
الثقافة

آفاق عربية

انكسارات القلب الأخضر

مختارات من قصص

عبد العزيز مشرى

اختيار وتقديم

سمير الفيل



الهيئة العامـــة
لقصور الثقافة

آفاق عربية

انكسارات القلب الأخضر

« مختارات من قصص عبد العزيز مشرى »

اختيار وتقديم : سمير الفيل



الهيئة العامة لقصور الثقافة

آفاق عربية (65)
(شهرية) - مايو / 2003

انكسارات القلب الأخضر
مختارات من قصص عبد العزيز مشرى

تصحيح لغوى : عادل سميح
تصميم الغلاف : محمد بغدادى

الطبعة الأولى : ٢٠٠٣
رقم الإيداع : ٩٩٥٢ / ٢٠٠٣
الترقيم الدولى :

I.S.B.N: 977 - 305 - 466 - 7

المراسلات باسم مدير التحرير : على العنوان التالى
١٦ (أ) ش أمين سامى - قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى : ١١٥٦١

الطباعة والتنفيذ
الشركة الدولية للطباعة
المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩
شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر
ت : ٨٣٣٨٢٤٠

إهـــداء

الأصـــــدقاء :

حسن السبع

على الدمينى

أحمد مشرى

حسن الشيخ

عبد الرؤوف الغزال

منيرة موصلى

على الصفّار

عبد الرحمن السليمان

أحمد سماحة

كمال المعلم

و روح « الرائد » عبد العزيز مشرى ..

أنين الأرواح المتعبة .

سمير الفيل

مفتتح

من رآه يمرُّ؟
من على هدأة الدرب
طارحه الكلمات النديات
حين ادلهم سكون الأبد ؟
ربما لا أحد .
ربما قايضته الرياح قواميسها ،
بعثرتْ ياسمين الثوانى ، الخزامى ،
أهازيج غربته ، صوته الليلكى.
ربما وردة الدرب فى نزوة الطيش
قد زرعت دربه شوكةً . .
شوكتين . . ثلاثا . . ثلاثين . . ألفًا
وقالت له : « لا طريق إلى الماء !»

من ديوان « حديقة الزمن الآتى »

لحسن السبع

تقديم :

سمير الفيل

إرادة إنسانية فذة لا تعرف الاستسلام ، نعثر عليها عند هذا الكاتب ، الذى قاوم مرضه باستماتة ، وحاذر من الوقوع فى شرك الإحباط . فإذا كان بدر شاكر السياب قد تحول مع المرض إلى متأمل صوفى ، فيما أضحى اللون الأبيض مساويًا للألم عند أمل دنقل فإن كاتبنا عبد العزيز مشرى قد جعل إبداعه معادلاً للوجود .

لقد صاغ تجربته الأليمة بصدق ، وعبر عنها بحميمية ، وحملها بسخرية المعرى ، ودعابة الجاحظ ، ورقة إيليا أبو ماضى .

وفى أعماله القصصية المتتالية تجد الينابيع الأولى تفيض بثقافة الأجداد ، ونتعرف عليها بعمق فى روايته « الوسمية » ، حيث الشغف بالقديم ، وهواجس الماضى .

تشاء الأقدار أن يقيم فى القاهرة عند مطلع الثمانينات - حيث يُعالج من مرضه العضال - فيزاجع تجربته الفنية ، ويتحسس الارتباط بالمكان ، وتكتمل حوافز الكتابة لديه . حين يشعر بالغربة .

يتبنى الكاتب أشكال الكتابة الحديثة ، والتى تركز على

العالم الداخلى للبطل ، غير أنه بعد مجموعته (موت على الماء) يعود إلى استلهام ذاكرة الطفولة .

إنها مرحلة تشبه - دون شك - دهشة الإنسان الأول حين يتلمس المعرفة فى أطوارها البدائية . لكن مشرى يخلص الكتابة من أصابع الخرافة ، ويشعر بالنشوة الخالصة وهو يعبر عن قريته فى حكايات تكتنز بتراث حكائى شفاهى يخلص له حتى النهاية ، ويتجسد أكثر ما يتجسد فى مجموعتيه « أسفار السروى » و« بوح السنابل ».

حين يدهمه المرض يكتب فى عذوبة رائعته « الزهور تبحث عن آنية » ، ثم يعاود التنقيب عن ملامح التغير إثر تحولات مجتمعه بفعل تأثير (النفط) فيكتب « أحوال الديار » ولما يشتد به المرض تكون تلويحة أخيرة فى « جاردينيا تتثاءب فى النافذة »!

تأتى جملة مثل « سأعتق دمى اليوم !» لنتأكد مقدار العذاب اليومى الذى كان يعانيه مشرى ، وهو يغسل دمه . ويراقب الزهور وهى تصفر وتذوى ، إنها نظرة متألمة ، نفس إحساس أمل دنقل فى (أوراق الحجرة رقم ٨) ، لكن الإيقاع السردى البطىء يعذب الأرواح أكثر !

الزهور التى تفيض بالإشراق ، هى نقيض العلة الكامنة فى الجسد .

وإذا كان الشاعر على الدمينى ، الصديق المقرب لمشرى ، قد أشار إلى أنه « فى مناخ القرى الجبلية يلبس كل حى لونه ، وكل جماد سمته المتبدل » . . فإن مشرى بجسده الضئيل بصورة لافتة ، وابتسامته التى لا تفارقه قد أكد قدرته الفذة على تجاوز الألم الجسدى إلى صفاء روحى لا يحظى به إلا القليلون .

النصوص التى أبدعها الكاتب خلال فترة مرضه هى التجلى الحقيقى للبعد الإنسانى فى شخصيته . بل أن نزقه الطفولى ، وهو يهرب من آلة (غسيل الدم) تدفعنا إلى أن نشاركه هذا الفعل الجميل حين نتمرد على واقعنا بجنون أو بتخييل يخفف عن الجسد آلامه ، فتنعتق الروح .

استراحة المحارب

فى السادسة إلا الربع ، مساء الأحد السابع من مايو عام ألفين من الميلاد أغمض القاص والروائى السعودى عبد العزيز مشرى عينيه للمرة الأخيرة ، وضع الرأس على الوسادة البيضاء ، وصعدت روحه إلى بارئها ، فيما أجهش الأهل والأصدقاء ببكاء فى أروقة مستشفى الملك فهد بجدة .

هكذا كانت استراحة ذلك المحارب الصلب ، بعد عمر قضى الشطر الأكبر منه فى مجالدة الألم ، ومقاومة مرض السكرى ، الذى أدت مضاعفاته إلى اختلال التوازن أثناء

المشي ، وضعف البصر ، والفشل الكلوى ، كل هذه المضاعفات لم تفت فى عضد ذلك الإنسان المثابر الذى تسلح بالسخرية لمواجهة مكائد البشر والزمن .

ترك الأثر

ترجع معرفتىَ بعبد العزيز مشرى إلى عام (١٩٩٠) قبل سفرى للعمل بالدمام . كنت قد قرأت مجموعته القصصية الثالثة « بوح السنابل » ، أرسلتُ دراسة للنشر فى أكثر من ملحق أدبى .

بعد ذلك بعام وجدت نفسى ، وفى عجالة من أمرى ، أهبط مطار الظهران الدولى ، وبعدها بأيام أسأل عن الأديب الذى كتبت عنه دون أن أراه ، فيخبرنى صديقه الحميم الشاعر حسن السبع ، أنه قد سافر إلى جدة منذ عدة سنوات واستقر بها .

أنخرط فى الحركة الأدبية بالمنطقة الشرقية ، تقيم الفنانة التشكيلية « منيرة موصلى » معرضها الفنى فى مدينة « الخبر » ، أحضر الافتتاح البسيط ومجموعة المبدعين ، فأقابله وجهًا لوجه ، متكئًا على ساعد شقيقه «أحمد» ، نتحدث طويلاً عن الدراسة التى لم تنشر ، فيضحك الرجل من قلبه ، وتبدأ بيننا صداقة طويلة .

لا أنسى أن مشرى رغم ظروفه الصحية القاسية كان أكثرنا إشراقًا وابتهاجًا . تساءلت عن سبب حضوره ذلك المعرض ،

قاطعًا مسافة شاقة تخترق شبه الجزيرة العربية عرضًا ، فأعرف أن مشرى يمارس الفن التشكيلى ، فضلاً عن عطاء غزير فى القصة والرواية . ويترك مشرى داخل نفسى أثرًا لا ينمحى لشخصية إنسانية محلقة ، وروح عذبة ، رغم سجن الجسد داخل علل كثيرة . وأندهش أن يكون عنوان معرض « منير موصلى » هو « ترك الأثر » .

مكاشفات السيف والوردة

خلال السنة الثالثة من عملى كمحرر ثقافى فى جريدة « اليوم » أسند إلىَّ رئيس تحريرها مهمة نشر مخطوط سيرة « عبد العزيز مشرى » الإبداعية والثقافية .

وصل المخطوط من جدة ، وأخذت وقتًا طويلاً فى إعداد مقدمة تليق بكاتب متميز ، وكان علىَّ أن أقرأ صفحات المخطوط بدقة لأختار العناوين الرئيسة ليقف القارئ عند عتبات هامة ومفصلية فى هذه السيرة ، وقد تطلّب ذلك أن أتصل أسبوعيًا ، ولمدة ثلاثة شهور بمشرى عبْر الهاتف ، وتوطدت بيننا أواصر صداقة عميقة فهو كاتب صادق مع نفسه وقلمه .

اختار مشرى لكتابه اسم « مكاشفات السيف والوردة » وقد وجدت الحلقات المنشورة صدى طيبًا . فى الوقت الذى تعثرت فيه ظروفه الصحية .

وفى النصف الأول من عام « ١٩٩٣ » أجرى كاتبنا عملية لزراعة الكلى تكللت بالنجاح . أذكر أن الأصدقاء جميعهم فى المنطقة الشرقية احتفلوا بمشرى عبر نشر برقيات التهنئة ، فيما كانت السنوات تدخر عذاباتها لمرحلة قادمة . وأعتقد أن تلك المكاشفات تحوى المهاد النظرى ، والمرتكزات الفكرية للكاتب فى أنصع تجلياتها . . .

الهروب إلى الفرح الإنسانى

ربما كانت تجربة مشرى مع مرض الفشل الكلوى ، بكل معاناته ، وآلامه الجسدية ، ومكابداته النفسية هى المادة الخام الأولية التى وظفها الكاتب فى الكثير من نصوصه القصصية ، فمجموعته الرابعة « الزهور تبحث عن آنية » تعالج ذلك الموضوع بلغة شفيفة ، وبإمكانيات لغوية رائقة ، مما تدعم رأيه « إن اللغة من حيث هى مادة إبداع قادرة على التجدد لدى الكاتب الجاد ، فهى بقدر استطاعتها التعبير عن الحاضر ، فإنها تملك خصائص التجاوز ، وعدم الخضوع لإطار الماضى الموروث .

إن اللغة هى مادة الذاكرة ، وقدر الكاتب المجيد(أن يحرر تلك اللغة من تقليديتها وجمودها) .

إن هناك مهمة أساسية فى الفن تمنحه الحق فى الانعتاق من سقفها المحدود ، دون أن يقع فى شرك التغريب » .

ومن يقرأ قصص « ابتهاج البكاء ونشيج الديلزة » – والديلزة تعنى عملية غسيل الدم – و« البنج » ، « الروب يا دكتور » ، « عن العاقل » وغيرها من نصوص تلك المجموعة سيعثر– دون كبير جهد – على رنة السخرية ، وروح الإشراق التى يواجه بها الراوى (وهو الكاتب على أية حال) مرضه العضال . إنه لا يستسلم لنوبات الحزن ، بل يسمو إلى درجة عالية من الشفافية ، واقتناص المفارقة بين الهم الإنسانى العام ، وبين زهو الفرد ومغالطاته .

ولا أظن كاتبًا عربيًا أمكنه أن يثرى مكتبة القصّ بمثل هذا الكم من النصوص التى تعرى ضعف الإنسان ، وتكشف فى ذات الوقت عن دلائل قوته فى الإدراك المركب لمأزق الجنس البشرى : الموت المؤجل .

لقد واجه مشرى مرضه ، بكتابة تعتنى بالجميل ، وتشكّل فضاءات رائقة من مكابدات البشر فى سعيهم الدؤوب لاصطياد الفرح ، وتثبيت لحظات البهجة النادرة . كانت التشكيلات المكانية والزمانية لتلك النصوص تعلى على الدوام من فضيلة « الهروب إلى الفرح الإنسانى العميق » .

فكرة المفارقة

تنهض كتابات عبد العزيز مشرى على فكرة المفارقة وتتكئ

على قراءة واسعة للتراث العربى ، فهو يستفيد تمامًا من « الجاحظ » دون أن يقع فى أسره ، بمعنى أن الحافر لا يقع على الحافر ، لكن ربما كانت رنة السخرية ، والقدرة على إبراز الأضداد ، والسعى لتعرية المواقف الإنسانية التى يتعرض لها البشر هى القاسم المشترك فى نصوصه عبر مراحله المختلفة .

لم تكن « الزهور تبحث عن آنية » هى نهاية المطاف عند مشرى ، فالمرض قد استشرى فى الجسم ، والحواس تضعضعتْ ، وأصبح السير وحيدًا أمر غير مقدور عليه ، فى هذه الفترة العمرية المتأخرة بعض الشىء يكتب مشرى مجموعته القصصية « جاردينيا تتثاءب فى النافذة » وهى تنويعة على اللحن الأساسى واختراق هادئ ، وغير معلن لعوالم المرضى والمستشفيات ، وفضح جرىء لدولاب العمل الروتينى الذى يُجْهز على الأصحاء قبل المعلولين .

فى هذه المجموعة تنضج خبرة الكاتب باللغة ، ويوسع من قدرته على دحض الألم بالمعرفة ، واكتشاف إمكانيات هائلة للحواس ، إنه يتجاوز واقعه المرتبك بالتحليق إلى أعلى مكان ، ويصعد بمخيلته إلى الآفاق البعيدة المفتوحة اللامحدودة ، ويتولد داخله إحساس عميق بالذات ، وبالآخرين .

أجمل ما يقدمه لنا (مشرى) عبر كتاباته – أنه ينقل لنا

ببساطة متناهية دقائق ما يحدث فى الواقع داخل المستشفيات من روتين ، وإهمال . من دورات ترقب وإحباط ، يتبعه أمل ، ومناوأة للفظ العنيف : المرض .

لا يكتفى الكاتب بذلك وإلا وقع فى شباك الأداء الميكانيكى البليد للكتابة ، إنه يستوعب كل هذه التفصيلات ، ويرصد إمكانية التجاوز ، وحدود الارتقاء ، وينشط الخيال الخلاق ، ويصل إلى صورة كاملة للتناغم الكونى الجميل . وهنا نتوقف أمام « باشيلار » حين يربط بين المكان والخيال ، حين يهتم بالخيال باعتباره ضروريا لإبراز القيمة الجمالية للنص ، ومنحه التحليل النفسى الكافى . فالصورة الجمالية للنص تتجذر داخل المتلقى لتصبح وجودًا جديدًا فى لغة تعبّر عنها بتحويلها إياها إلى ما تضمه من حزم ضوئية تشمل جل ما فيها من أفكار ورؤى ، وتصورات .

حكّاء بالفطرة

ترك لنا « عبد العزيز مشرى » ست مجموعات قصصية ، وست روايات قصيرة ، وبعض المخطوطات التى لم تنشر بعد ، منها رواية « المغزول » ، وديوان شعرى « ترنيمة » .

المجموعات القصصية هى : « موت على الماء» ، « أسفار السروى » ، « بوح السنابل » ، « الزهور تبحث عن آنية » ، « أحوال الديار » ، و« جاردينيا تتثاءب فى النافذة » .

أما الروايات فهى : «الوسمية» ، «الغيوم ومنابت الشجر» ، «ريح الكادى» ، «الحصون» ، «فى عشق حتى» ، و «صالحة» .

فى كل أعمال مشرى السردية نحن أمام حكاء أصيل ، لديه القدرة على القول ، بالفطرة . والجملة القصصية عنده تتكون عادة من مبتدأ وخبر ، ولا أقصد بذلك أن نصوصه تخلو من الحركة ، وتعوزها الحياة ، بل على العكس من ذلك ، فإن الفحص الدقيق لأعمال الكاتب يظهر لنا بجلاء كيف يولد القاصُّ الحدث ، الذى يتم رصده بعناية ، وحيوية حيث تتوزع الجدليات الفاعلة بالنص .

عليك أن تسقط - جزئيًا - الوشى اللغوى ، لتقف أمام الرصد المحكم لمعالم الصراع الذى يضمره القاصُّ خلف سرده الحيادى المخادع .

لن يفوتنا أن « مشرى » يختار أبطال حكاياته بعناية من شريحة اجتماعية يعلم أسرارها ، ويدرك خفاياها . وهو يقدم لنا « الشخصية » معجونة بماء واقعها ، لا يسمها بميسمه الفنى قبل أن يحدد لنا بوضوح أبعادها المادية والنفسية فى آنٍ معًا .

تتأكد وأنت تتأملها فى بداية القص أنك أمام ما يمكن أن نطلق عليه اصطلاح « الشخصية النموذجية » التى تفيض بالبساطة ، والاختيار - هنا - يحقق حرية أن يتاح لها كل الاحتمالات عند مرورها بحدث جوهرى أو عابر .

هنا يكون المبتدأ - وهو الشخصية - قد اكتملت ملامحها وتجسدها ودلالات أفعالها فى المخيلة ، قبل وقوع أى حدث .

أما الخبر ، فهو الحدث المحكى . هو المأزق الذى غالبًا ما تتعرض له الشخصية . و « التيمة » الأساسية التى يتولد عنها الخبر هو العجز الإنسانى ، والشقاء الذى لا مناص منه .

تلقائية الكاتب تتبدى فى سلسلة اختياراته التى تجعل العمود الفقرى للحكاية قادرًا على حمل فكر الكاتب دون تعمية أو ظهور فج ؛ إنه التدفق الرائق للحكاية دون معاظلة أو ترهل مكروه .

الشفوية والكتابة

تزخر نصوص « عبد العزيز مشرى » بصورة القرية القديمة التى تحمل عبق الماضى وزخمه ، ومن النادر أن يخلو نص له من صدى تلك الصورة المشرقة ، التى استوعبت ذكريات الكاتب ، فى تشكيل جمالى يعبر عن روح الجماعة والمجتمع .

يعتمد عمل الكاتب بالأساس على شفوية الحكى ، وعلى استحضار روح الجماعة الشعبية ، وبناء نص سردى ، يرتكز على البساطة ، والتلقائية ، مما يستدعى على الفور حكايات الأسلاف .

ويعتبر لفظ « سالفة » فى التراث الشعبى بشبه الجزيرة العربية مرادفًا ، أو لنقل فى وضع تماس مع لفظ « الحدوتة » فى تراثنا الشعبى المصرى .

ربما كان نجاح « مشرى » باهرًا فى النصوص التى حقق فيها اختراقا عميقًا للذاكرة الجمعية عبر الشفاهى ، وقد اكتسب ذلك التناول مصداقيته من تعبيره الحقيقى عن حاجة ملحة : جماليًا وفكريًا (لدى شرائح لا يستهان بها من جمهرة المتلقين) .

ويبدو أن خاصية « المكان » تسم أدب مشرى ، سواء فى حالات الحضور (أحوال الديار على سبيل المثال) ، أو فى مناطق الخفاء والإضمار . وينعكس ذلك على طرائق الأداء اللغوى حيث يقترب من النفاذ إلى وجدان السطوع ، بالرغم من محاولات المراوغة .

« محضرة » . . الجنوب دائما !!

ولد كاتبنا عبدالعزيز صالح محمد بن مشرى - وهو اسمه بالكامل - فى قرية « محضرة » الواقعة فى نطاق منطقة الباحة عام ١٣٧٤ هـ .

ولو أحضرت الأطلس الجغرافى - كما فعلتُ الآن - ومررت بإصبعك على مناطق الجنوب فستجد قرية مشرى هاجعةً فى ظل جبل تغلب عليه الخضرة . . ربما كان المكان هو المنشط الأول لإبداع الكاتب ، فهو يستحضره بنوع من « النستلوجيا » المؤكدة .

تلك القرية الجبلية ستظل على الدوام هى الهاجس الذى

يؤرق الكاتب ، فرغم أنه انقطع عن التعليم بعد المرحلتين الابتدائية والإعدادية بقريته ، وفزع إلى الدمام للعمل بالصحافة ، ثم هاربًا من تروس الروتين ، التى كادت تقضى على البقية الباقية من روحه وصولا إلى جدة . . ثم رحلاته الموسمية للعلاج فى القاهرة ، إلا أنه ظل وفيًا لقريته ، لا تفارقه فى الصحو أو المنام .

وكلنا يعرف أن مناطق الجنوب فى أى دولة تكون أقل تحضرًا من الشمال ، وفى شبه الجزيرة العربية لا استثناء من هذه القاعدة .

أدرك « مشرى » أن النهوض بقريته يستوجب التخلى عن الخرافة ، ومطاردة الجهل . لكنه وبنفاذ بصيرة يحسد عليها أمكنه أن يفرق بين الخرافة والأسطورة . قاوم الأولى بلا هوادة ، واستثمر الثانية فى تجلياته الفنية حتى أنك لتشعر فى نصوصه بتلك العلاقات الغرائبية ، ومناطق الرونق والبهاء فى نوادر « أبو سالم » مع الحيوان .(أحوال الديار) ، وفى خطط « ابن عود » (أسفار السروى) إن الشخصيات مغرقة فى الشعبية ، وقادرة على استثارة الضحك . بل إن اللغة نفسها تستوعب طاقات الكوميديا الظاهرة ، والباطنة .

وتأمل هذه الشخصيات يدفعنا إلى معاودة قراءة «إزرا باوند » حين يعرف الصورة بأنها تلك التى تعرض مركبًا عقليًا وعاطفيًا من الزمن .

ثمة تفاوت يمكن إدراكه بين عوالم مشرى فى القرية وبين تلك التى يواجهها فى المدينة . اللغة التى تمس القرية تأتى هادئة ، متماسكة ، غير قلقة . أما فيما يخصُّ المدينة فالتوتر هو مظهر كل سأمة ونأمة ، لا جدال فى هذا !

عن المعتقد الفنى

فى أوائل نوفمبر سنة ١٩٩٢ أقامت جمعية الثقافة والفنون بالدمام احتفالية كبيرة للكاتب عبد العزيز مشرى ، حضرها حشد كبير من مثقفى السعودية ، أذكر منهم الدكتور معجب الزهرانى ، والناقد المغربى إبراهيم أغلان ، والأدباء : محمد الدُمينى ، غسان الخنيزى ، أحمد سماحة ، حسن السبع ، على الدمينى ، محمد عبيد الحربى ، عبد الله حسين ، على المغنم ، عبد العزيز إسماعيل ، شاكر الشيخ ، وعبد الرؤوف الغزال . قدّم « مشرى » شهادة أدبية تفصيلية حول آليات الكتابة لديه ، وبعض أطروحاته الفكرية ، قمت بنشرها فى عددين من « اليوم » (العدد ٧٠٨٦ ، العدد ٧٠٩٣ / نوفمبر ١٩٩٢) وقد قال فى تلك الشهادة :

« • فى كتاباتى ، ربما يبدو للآخرين أن هناك خطين متوازيين هما خط الكتابة عن التجربة الذاتية (المرض) ، وخط الكتابة عن العالم . . فى الحقيقة هما غير متوازيين . إنهما يدخلان فى نفس الإيقاع .

• الميراث الشعبى ليس تبنى الماضى ، أو رغبة فى الرجوع إليه ، لكنه يحمل شحنة كبيرة من الحميمية. الكتابة عن هذا العالم لا يعنى قريتنا ؛ بل العالم الإنسانى بكامله . ليس للأمر علاقة بحدود جغرافية أو بطبيعة أهلى (بمعنى شيفونى) لكنه عالم يمتلك الكثير من القيم نجدها كثيرًا فى المجتمعات ، التى تجمعها وسائل إنتاج محدودة . أصبحت تلك القرى (مدهوسة) فى زحمة الحياة . لم تعد هناك قرى كالتى كنا نعرفها فى الماضى . أصبحت القرى – الآن – عبارة عن بيت مبنى من الأسمنت ، ونوافذ زجاجية ، وتليفونات ، وسيارات ، وطابع استهلاكى يحاكى المدن .

• تغيرت الأحوال ، ربما كان التحول فى المجتمعات أدى إلى تغيّر الإنسان ، فتزعزعت بعض القيم ، وأصبحت تقاس بالمعيار المادى . هذه الأشياء تؤلمنى ، وتعيدنى إلى طفولتى .

• لدى إحساس بأن هناك تاريخًا طويلاً مضى ، ولم يكتب أحد عن هذا العالم . لم يلتفت أحد إلى ذلك الواقع ، كل ما أجده اهتمامًا بالصراع مع اللغة . لستُ ضد التجريب ، لكن على قدر اقتناعى بواقعى أدعو إلى الكتابة عن هذا الواقع الثرى الملىء بالمفارقات .

• فى مجموعتى (موت على الماء) دخلت تجربة لها زمن

نفسى ، ولها عمق ، وبالتالى لها أبعاد محدودة . لقد أضاف لى الزمن ، والمعرفة وإدراكى للأشياء وعيًا جديدًا .

كان شغلى الشاغل هو كسر التقليد ، والتمرد على كل ما هو كلاسيكى . كان ما يهمنى هو الدخول فى مغامرة جديدة ، ضد الشكل اللغوى الجاهز .

● ربما كنا فى بداياتنا - فى أوائل السبعينات - نهتم فى النص بالشكل ، باللغة المغايرة ، وبالطبع كان وعينا غير مدرك لأشياء أخرى هامة . كان التوقف لطرح سؤال هام :

لم لا نصل إلى الناس ؟

الجواب هو أن هذا الشكل الذى يراه البعض تقليديا ليس كذلك ، فى تلك الفترة أدركت أن زخرفة اللغة مسأله سهلة ، وكتابة نص مثل الشعر أمر هين . لكن كيف تستطيع أن تنحت العبارة التى تريد أن تقول شيئًا مختلفًا .

● عندما نتحدث عن القصة ، فإن البعض يبحث فيها عن حدث ، وحوار ، عن بداية ونهاية . هذه مسألة لا تؤرقنى . ليس تعصبًا ، وليس ضد كل ما هو جاهز ، وإنما لأن القصة قد تكون رصدًا لحالة نفسية ، قد تكون ومضة حلم ، تصيد لحظة عابرة . ربما يُفتقَدُ الحوار ، أو تغييب الأصوات . القصة سميت كذلك لأن لها خصائص . وبالتالى فإنها جنس أدبى له ملامحه لكن من الممكن أن تتجاذب الغزل مع أجناس أدبية أخرى .

● أعتقد أننا يهمنا أن نكون أصحاب نص لغوى فنى أكثر من أن نكون مثقفين .

وحين تُكتب بعض القصص لكى تلفت نظر الآخرين إلى ذات المُبدع ، فلا نستطيع الادعاء بأن تلك الذات خارج المجتمع ، لكنها لا تمثله . عندما تكون محبطًا من الواقع لدرجة التغريب فى اللغة ، فأنت تقدم مراضاة للذات على حساب القارئ !

● نعم فى لغتى نكهة التراث ، فقبل أن أعى ما هو الهدف من الكتابة كنت أصلاً تراثيًا ، وكنت فقيها وإمامًا فى مسجد ، وبالتالى كانت للغة ترسباتها فى وجدانى .

● فى مجموعة نصوص (موت على الماء) كان هناك صراع مع اللغة ، لكننى أدركت بعد ذلك أهمية أن تأخذ حاجتك من اللغة ، لأنها فى الحقيقة لغة جميلة ، ولكن ليس بطريقة تناول بعض الكُتَّاب للغة بشكل ميت ، حيث تخدمنى العبارة وتمثل ما أريد قوله ، وأسعى إليه .

● (الحصون) ليست امتدادًا لما كتبت فى الروايات . بل توضيح تفصيلة فى هذا العالم الثرى : الحكى ، القصيدة ، الأمثال ، العبارة الشعبية . فى الحصون كنت أكتب عن عالم سوف يندثر ، وكان علىّ أن أوثق له بطريقتى .

● هناك لذة النص أثناء الكتابة ، إذا افتقدناها لن نكتب . اللغة هى حديقتنا الجميلة التى نقطف منها أجمل الثمار . أحيانا أنساق وراء الهاجس الشعرى ؛ وهذا من المسرات الجميلة !

المرأة . . مشاركة وحبيبة

من المعروف عن مشرى محاولاته القديمة للعزف على العود ، ومن الطبيعى أن يتسرب شىء من الإيقاع ، وحلاوة النغم إلى نصوصه القصصية . فضلاً عن إحساسه القوى بالمرأة ؛ إذ هى تشارك الرجل كدحه فى قريته الجبلية .

تظل المرأة حاضرة ، ومشاركة فى الهم العام عبر نصوصه ، فهى الأم والزوجة ، وهى أيضًا الممرضة والمعلمة والجدة ! فى « أسفار» تنبث « صالحة » فى المشهد القروى ، مشاركة زوجها الأحداث الحلوة والمرّة - على السواء - وتلك طبيعة المجتمعات التى تمتهن حرفة الزراعة ؛ فالمرأة تقوم بجهد رئيس فى تعهد المحصول بالرعاية .

لكن نساء « مشرى » لهن نزقهن الخاص كما نجد ذلك فى « أحوال الديار » ، خاصة فى قصة « الوانيت » فالزوجة تشارك بعلها فى طموح شراء السيارة ، ونشعر بالموقف العبثى يطوّق الأسرة كلها ، لكن هذا لا يمنح الكاتب رؤية نافذة للإطلال على المستقبل بتشوف ، فهو يدين الحس الاستهلاكى ، ليختلط فى

ذلك الطيب بالقبيح . إن المرأة لها لمساتها الإنسانية ، لكن فى مطاردتها للبطل (الذى هو قناع الكاتب) كى يحصل على جلسة غسيل الكلى ، نشعر بها أشبه بالجلاد .

ينحت « مشرى » فى اللغة ، فيطلق على فعل أخذ حقنة الأنسولين « تنسولت » ، وبرغم ألم الحقن فإن ظلال السخرية تظلل الموقف . هذا من ناحية اللغة ، أما عن المرأة فهى الحبيبة ، لتقرأ نجواه فى قصته « العباءة » بمجموعته « جاردينيا تتثاءب فى النافذة » ، وندرك أن الجسد العليل كان قادرًا على اجتراح فعل الحب . وعلى مستوى الواقع ؛ فقد تزوج الكاتب من السيدة « ناهد » ، وهى مواطنة أردنية من أصل فلسطينى (عام ١٩٨٠) وبعد عشر سنوات رأى أن ينفصل عنها لمنحها حرية المصير ، فى موقف نبيل يليق بكاتب ذى إحساس رهيف بمواضعات الحياة !

اِلتماس العظمة الكامنة

فى مقدمة مجموعته « أحوال الديار » يثبت مشرى عبارة للأديب الشهير « أندريه مالرو » تفصح عن موقف الكاتب من قضية « ضرورة الإبداع » . فالعبارة :

« ينبغى أن نحاول توعية البشر على العظمة الكامنة فيهم ، والتى يجهلونها » .

يبدو أن تلك المقولة تنطبق تمامًا على طبيعة العلاقة بين

مشرى وكتاباته . فثمة علاقة أكيدة تضرب بجذورها عميقًا فى المرجعية الفكرية ، والتحقيقات الجمالية عبر مكابدة مع الحرف استمرت لسنوات طوال .

ظل مشرى يؤسس لكتابة تأخذ من الشفاهى طزاجته ، ومن الأسلاف أصالة اللغة ، ثم راح يضرب فى فضاءات رائقة من السرد الجميل ، معتمدًا على ذائقة جمالية مدربة .

ظل الجنوب بإيقاعه العفوى ، الصاخب ، يتردد فى داخله ، حيث الغيوم ومنابت الشجر ، حيث « محضرة » ، ولنلاحظ دلالة الاسم فى الذاكرة الجمعية ، لقد صار لقرية الأمس حضورها المتألق ، فتنجاب غشاوة الاغتراب القسرى ، فى علاقة مجدولة بقيم نبيلة ، أوشكت على الاندثار .

الكاتب ، أخلص لعملية رصد حقيقى وأمين لأخطر التحولات الاقتصادية التى غيرت من سلم القيم وتراتب العلاقات الإنسانية . وجاء الخطاب واضحًا لا إبهام فيه . فلما اعتل الجسد ، جاء الأنين خافتًا ، لقد تسلح الكاتب بتراثه الشعبى الأصيل ، وعليه أن يواصل ما خُلق لأجله : كتابة تتوسل بالصدق والخير والحق والجمال .

المختارات القصصية

من مجموعة

« أحوال الديار »

إهـــــداء

إلى « أحمد »
الجميل دائمًا

« ينبغى أن نحاول توعية البشر على
العظمة الكامنة فيهم
والتى يجهلونها »

« أندريه مالرو »

الرقبة

رقبة واحدة بكامل رأسها وبدنها ، لأهل قبيلة بنى فلان . . عند قبيلة بنى فلان .

فبعد شهور مضين ببياضهن وسوادهن ؛ على قوم رأوا النقيصة فى الحق والهزلة فى ثمن لا تنوب عنه نائبة إلا جنسه . . وما قيمة النفس المسفوكة أمام عرف القبائل إلا النفس ؟!

ليس على من رغب فى سَبر حقائق الحروب بين الرجال اليوم مطية ، فالبنادق أفرغت بطونها ، عند أول مستغيث صاح فى مسامع القبيلة . فإن كان فى الوقت باعٌ من الفراغ ، فها إن الآدميين يدورون عن سبب ينضحون به دماء الخطيئة ويقتصون من المعتدى الفرد باسم قبيلته . . فهو ليس ابن فلان فى الذنب . . بل ابن قبيلة بنى فلان . وعلى من تسوقه إلى الحتف غياهب الغيب . . فاتحة الكتاب والدعاء بالرحمة .

* * *

اليوم . . أغدقت القبائل جام سبابها ، وعيرتنا بالخذلان والهزيمة ، فمن منا « يعرف خال خاله » ؟ ، ويقول أنا ابن قبيلتى التى منها أبى : فلان ، يأخذ رقبةً بالرصاص من قبيلتهم ، يغدو مرتعه حميدًا فوق ألسنتنا . . ويكون بين القبائل مذكورًا .

صمت الجميع . . وجرت النخوة المشروطة بعروق « دامك

المدموك » ، فضرب على صدره ، باسطًا كفه بخمستها على موضع القلب ، ونطق بكامل التهيؤ والاستعداد . . على أن ينفذ له الجماعة مطلبًا لا يحيد بالطمع فى مطلب غيره .

قالوا : هات يا ابن مدموك .

قال : لا أقول حتى تضمنوا لى مطلبى .

قالوا : من يشترى الطير فى الهواء قل لنا ننظر ونردُ ، فنكونُ بالحكمة غير مخالفين .

أهمل يده مكان القلبِ فى الصدر ، وبثّ نظرة فى الوجوه ؛ وقال : أربعة رجال مسلحين بالبنادق تحضرونهم .

وبالقول العجيب نشدوه عن حاجته إليهم ، فقال مفصلاً على أصابع اليد : اثنان من خلفى . . بعدها لا تحملون همًا . . « ابشروا برجّال » .

* * *

(لا أضحك الله لك سنًا يا « ابن مدموك » . . تريد من الرجال أربعة . . تغزو بهم قبيلة بنى فلان ، لتأخذ بثأر رقبة لنا عندهم ؟! . .

كفاك يا فارس الزمان ، وقاهر المهام . . لو أن أربعة سيحتزمون بالسلاح ونعلم قبلاً نجاتهم ، لما اجتمعنا فى مثل مجلسنا هذا) .

هيا .. قم ، والزم الطريق إلى بيتك ، فإن مجالس الرجال .. لا تجد لك فيها مكانًا .

* * *

قال المقوّلون، وحثتها الأشداق فى الجبال والوديان :

تحيّن القوم يوم سوق للقُرى ، وفى مكمن الغافل ، أمسكوا فى الطريق برجل من غريمتهم القبيلة المعادية ، وكان على ظهر حمارته .. ينوى السوق وقت صباح العالمين ، فأنزلوا على رأسه حد الفأس ، دون صوت للبنادق .

عادوا بالنشوة على الضعيف منتصرين .

عاد هو ملممًا فى ثيابه بالدم والموت وحسرة المظلوم ؛ إلى أهله يغسلون ويكفنون .. وليندبوا أو لا يحزنون فقد « وقع الفأس فى الرأس » .

١٩٩١/٨/١ - جدة

الوانيت

باع « أبو عبد الله » الحمارة برخص التراب ، وأربعًا من الغنم ، وعرض على الجماعة فى مقعد ما بعد العصر . . جبته الصوفية ذات اللون الأحمر للبيع .

وأحاطت زوجته قامتها بلفّة من يدها حلفانًا باليمين ؛ أنها لم تدخر من جوهر الفضة وحبات « الظفار » . . بعد اليوم شيئًا . وما دام الحال سيغدو مثل الآخرين فى الأحوال . . فما الحاجة إلى متاع لا يجعل المرء فى عيون الناس غير ناقص عنهم ؟!

اليوم ، ابتاع « الجبلى » سيارة « وانيت » بيضاء بحوض يتسع لكل ثقيل يحمل عليه ، والبارحة ؛ كان « أبو خُرج » بعد أن كسّر وجبر ، يهيىء لسيارة ابنه التى اشتراها من فوق لحمه الحى . . مكانًا فسيحًا فى الساحة . وتقول « صالحة الفرويّة » إنها أراحت عجيزتها خلفما اشترى أبو العيال ؛ سيارة ، تحمل الماء والطين ومقاضى السوق ،، والمريض إلى الدكتور ، والصبيان إلى المدرسة .

فماذا ينقصك يا « أبو عبد الله » عن الجماعة !

وبماذا تميز رجال القرية عنك ؟ لهم مثل ما لك ، مزارع ،

وماشية ، وبيوت من حجر وطين .. فلتجمع فتات مالك وحلالك و« حلى » « أم عبد الله » ولتستعن بذى الرزق البصير ، توكله فيه على خطوتك إلى صاحب معرض السيارات ، الذى يبيع بما يقبض من حاضر النقد وبالدين ، وبالتقسيط .. تشترى سيارة فارعة البياض ، بخطوط جانبية حمراء ، وحوض مسيّج بالقضبان .

* * *

جرى ما جرى من أمر البيع والشراء ، وكتب البائع على صاحبنا فى وثيقة البيع .. قسطًا من القيمة يسدد على مدار عام .. يبدأ بعد شهر قمرى .. فرضى « أبو عبد الله » .. يكون « عبد الله » بعد شهر قد تخرج من « معهد إعداد المعلمين » ووجّه مدرسًا .. يقبض المعاش ويسد القسط .

وحين غمس « عبد الله » مفتاح السيارة فى رقبة المقود ، واستنهض معرفته التى جمعها مع الأيام من بعض زملائه أصحاب « الوانيتات » .. وجّه قبلتها من مكان المعرض بمركز سوق القرى ، إلى أن وضعت دواليبها السود الأربع فى أول مدخل خط القرية الترابى .

وكانت فرحة طفولية تلمع فى صدره كالنجم الأخضر ، وتترجرج مع رجرجات الطريق الجبلى المتعرِّج ، بينما كان « أبو

عبد الله » الشايب ، يتوقى متحسسًا وقع دوران العجل على صلابة الأرض ، وتضاريسها المكتسية بالحصى والتراب ، وكان هو الآخر يترجرج ، ويحاذر أن تدير رائحة البنزين رأسه المعمم ، فتستثار معدته ويرى النجوم فى عز الظهيرة . غير أن سعادة يسيرة ؛ ربما تكبر فى البيت . . كانت تتلمس خفاياه .

استقبل الأولاد على مسافة من البيت بعيدة ؛ السيارة الجديدة ، وتعلقوا بحوض صندوقها كالحالمين . . فنهرهم أبوهم مخافة أن يقعوا عن ظهرها فتدهسهم ، وشتم شقاوتهم . . لكنه ما لبث أن بلع لسانه أمام مقدم الضيف الجديد ، والمنتظر منذ زمن ليس بالقصير .

وقالت « أم عبد الله » وهى تقر عينها بابنها المتعلم :

الحمد للذى لا « تسها عينه ولا تنام » . . اليوم اهنئى يا بنت فلان ، لديك الزوج المحب ، والولد ، ولديك فى عيون الأخريات ، كالعروسة سيارة بيضاء « وانيت » . . بخطوط فى الجانبين حُمر ؛ لا تنقص ولا تبقص عن سيارة « صالحة الفَرويّة » أو « الجبلى » .

تبادل كل أهل الدار التهانى والتبريكات ، وأحضروا إلى قربها فى الساحة قهوتهم ، وقعدوا جميعًا يتأملون . . يقتهون ، وبحسن الكلام والمُلحة يتحدثون .

وسقطت البنت الصغيرة بثوبها الشبيه بمكنسة القش . . من على جانب حوض السيارة . . إثر قفزة شقية تعلق بها ثوب ، فلقيت مع عناء سقطتها نثارًا من الإهانة والوعيد ، ابتلعته مع كثير من لعاب الفم ، وقطر العين وسائل الأنف الذى جاء على هيئة الصمغ المبلل بالماء فوق كُمَى اليدين .

* * *

شهر مضى بأيامه الثلاثين ، كما تنفرط حبات القلادة من حبلها العتيق ، وحان على « أبو عبد الله » أن ينقد صاحب معرض السيارات قسطه الشهرى الأول . و« عبد الله » الذى ينفق عزَّ وقته فى أول الشباب ؛ مع السيارة ، فيختلق المشاوير ، ويطيل عن البيت فى الغياب . . فكان ماكان من نتيجة الدراسة ، (ولم يكتب الله) لغير ذى الاجتهاد نصيبًا فى النجاح .

امتدت يد الأب إلى غنيمات بقين من القطيع ، ولصاحب المعرض أوفى بدين التقسيط ، وإذا كانت « الأولات الروابح » ، فلله فى تدبير شأن العباد مع بوادى الأيام ؛ شأن سيكون جديد .

وقالت « أم عبد الله » حين هاج وماج صدر الشايب بالحسرة والغضب :

لا تثقل يا مخلوق على ولدك ، انظر ابن فلان وابن فلانه . .

يدرأ أهلهم عنهم الرياح ، ومازالت بنواعم الكلام ، و(احتمال مائلة الزمن فى انتظار خير الولد) .

فازدرد « أبو عبد الله » مع « خُبزة » العشاء تلك الليلة ؛ سبابًا لم يخرجه من صدره وتوضأ ، وصلى العِشاء ، وسجد سجود السهو ، ولعن « الوسواس الخناس » ، وطوى سجادته . . ثم التف بالغطاء فى مكان ناءٍ ، وعلى عدد من دعوات ما قبل النوم فى السر أطبق جفنيه ونام .

* * *

انجرد عن « شعبان » شهره ، ودلف بالصوم « رمضان » . . فيه خير الأجر ؛ وضِعف الحسنة ، وفيه « العمرة » بثوابها كمن نال مغفرة « الحج » . قال « أبو عبد الله » فى حضرة زوجته ، من بعد إفطار يوم رمضانى فى العشر الأواخر من « الشهر الفضيل » : أظن مثلى لا يضيع حالة هُيئت له مع الولد والسيارة : (عمرى « يا الله ، حُسن الخاتمة » البياض فئ يفتك بكل سوداء ، وليس لآمن الأيام أمان ، غدًا مع الفجر نحزم النية بعد «السحور» وركعتى الصبح ، ونوجه عزيمتنا بإذن الله . . إلى « بيت الله » . . نطوف ونسعى ، ونشرب من ماء « زمزم » وندعو الله بدعوات فيهن طلب الصلاح للولد ، واستزادة طيّب الخير ، والمغفرة من كل ذنب على الإنسان اقترفه بقصد أو بدون

قصد) .

رأت الزوجة فى رأى شيبتها الخير ، ومتى كانت لا ترى فى رأيه الرأى ، ولو فى معصية .. فكيف فى دعوة إلى مرضاة الرب ؛ وفيها الفسحة والأجر ، ونفَس المدن الحارة البعيدة ؟!

* * *

سمعت هجعة القرى فى الليل « مدفع السحور » ؛ من مركز سوق القبائل ، وكان « أبو عبد الله » منذ بلغ الشهر عشرته الأخيرة ؛ يؤدى بحسن العبادة « صلاة التراويح » فأوتر البارحة ، ونام بلسان يلهج بذكر الله والرغبة فى طيب الأجر والجزاء .

وعندما أيقظته على الموعد « أم عبد الله » .. قام على جهد ركبتين تنودان بطقيق أوجاعهما وعلى نفس مثقلة بالنعاس ونفاذ الشهية ؛ وتبلّع لقيمات السحور ، مع الزوجة والولد .

كان عليهم أن يُودِعوا نفر الأسرة من الأطفال .. عند خالتهم فى القرية القريبة .. وعلى مضض العاجل المتعب أيقظوه .

خلف صلاة الصبح .. ركبوا فى « وداعة الله » سيارتهم ، ولم تفتح شمس النهار عينيها ؛ إلا وهم فى مقطع من الطريق الأسود الطويل . كانوا صامتين ، وكان لكل صدر مع خواطره

فى جهامة الأسفلت أسفارًا ، وكان « عبد الله » قد تململ فى السكون المسكون بهدير السيارة ، فحرك بإصبعه مفتاح الراديو الذى بث كلامًا لم يكن ليعنى أبويه فى شىء ، لكنه كان يهلهل الركود المثقل بالسخام ، ورائحة الأفواه الصائمة .

* * *

والدان وابن اسمه « عبد الله » .. أدّوا واجب العمرة ، وطافوا بالبيت ، وسعوا ، وشربوا من ماء « زمزم » حتى فاضوا بالارتواء . ودعوا الله بكل الدعاء فى السر والعلانية ، وعمرت نفوسهم بالرضى ، وبقى أن ينفض الشايب مخابئ الثوب ، ليشتروا لأطفالهم ما يرضى نفس الطفل المنتظر . ورغبت الزوجة فى حمل « جالون » البلاستيك المعبأ بماء زمزم .. فنالته ، وبقى أن يهيئوا مسيرتهم إلى حيث جاءوا .

فى الطريق الأسود الضيق .. كان الليل يدعم بسواده على السواد ، وبين غمضة عين وانتباهتها .. يشع فى العين نور سيارة قادم .. فيخطف بصر الرائى ، ويبتز خِبرة « الغشيم » .

وحينما حانت اللحظة الفصل ؛ تقابل شعاعان ، فعميت العيون ، وضربت قوة الحديد فى الحديد .

* * *

أذن ظهر اليوم التالى على جماعة كثيرين ، ونساء كالغربان

بالعباءات يتجمعن فى الغرفة الداخلية . . بينما كان إلى حافة الجدار جثتان مسجيتان ، قد غسلتا وهيئتا للدفن .

أما « عبد الله » فقد انطفأ دمه بعد أيام ثلاثة ؛ بقسم الطوارئ بمستشفى كبير ، له نوافذ زجاجية عالية ، وأشجار سهامية صامتة بمدينة يخلفها المغادرون إلى الجنوب حين يعودون إلى قراهم .

٧/ ٨ ١٩٩١ - جده

تأتيك تجرى

ومع اختلاط لون الأيام اكتست الأصابع العشرة بقساوة الحجر ، وساحت خطوط الكف ، وترصّعت مقام البصمات بالجروح ، فبدّلت كسوتها من الجلد مرات . . وجاءت « كويات» الشمس على الصدر « المشنون » فبدا كجلدة الطبل ؛ لا نبت ولا لين .

أما وإن بنّاء الحجر والمطرقة والسيخ : « سعد » يقضى أغلب نهارات السنة بين الصخور المقطعة ؛ يهذبها ويرصفها بعضًا فوق بعض لتغدو مداميك جدران مستوية ؛ قد أخلى عن نفسه مهمات الزرع والحصد للمبلية بخمسة عيال ؛ تكبرهم البنت وتصغرهم أختها ، فإنه لا يسأل عن الخضراء ولا عن الصفراء ، إلا وقت كيلها بعد الحصاد وحشوها فى الأكياس .

* * *

شكت « عزّة » إلى عزيز القلب « سعد » ، وقالت (ياراعى دارنا ، بنتك تنام وتصحو بوجعها ، وتلفظ النَفَس الجريح ، وتدفن ونْح ألمها ولا تقول . . تعال خذها إلى طبيب يحكّم فيها الصدر العليل . . علها ترى من بعد مرضٍ العافية) .

وكانت المعلولة تجتر مع نفسها المسلول جرعات الدم ،

وتقذفه على استحياء فى الأركان والخرق البالية ، تغسل رئتيها بالهواء وعلى القدمين المتعبتين تجرجر الخطى لتساعد الأم فى فتافيت الحياة .

أمسك الأب باليد القاسية لحيته القصيرة الهابطة ، وبعينين ترابيتين سكبهما نحو المريضة ؛ سرح يدوّر عن شأن يصلح به الحال ، فقال : (هيا ، احمليها على كتفك وأحملها عنك مرة إلى فلان الحكيم) . وكان مفرّج الكروب على اللسان يرتع ملء الوقت ، وتزيد الأم عند آخر القول : « يا معافى » .

وضع الطبيب على العلّة عين الفحص ، وثرثر بكلام خير ما فيه أن البنت تحمل الصدر المدمّى بالسل ، وقالها خلفما عجز عن توضيح « الدرن الرئوى » وأعطاها الدواء ، فحملاه وجرّعاه للعليلة على الوصف .

* * *

فى الآتية ما بعد الثانية ، قال الطبيب : (كُتِب لابنتكما العمر) وَفَرَكَ يديه الفارغتين ، وكان « سعد » يتطلع إلى أيامه ، فيجدها بابنته مشغولة عن العمل فيقول كما يقول المصاب المحتسب : «لا حول ولا قوة . . .» .

وحين كانت الشمس توسع حدقتها وتقطر بلهيبها على رجل وامرأة ، يتناوبان فى حمل صبية معلولة ، على مسافة ساعة من

مكان الطبيب ؛ كانت المعلولة تقذف من فمها الدم ، وتنوء بصوت محموم ، فتهذب الأم « شرشفًا » أبيض وتثنيه بالتساوى على الرأس الصغير .

وكان الأب يتقدمها بصدر مهمل « الزرار » كالشن ، ألهبته الشمس فصلب عليه الجلد .

حلفت «عزة » على البنت المريضة باليمين التى لا راد لها أن تأكل التمرات التى وضعتها منقاة لها فى الصحن الصغير ، وسكبت على مهل فى الفنجان الأبيض حتى فاض بالقهوة المبهرة ، ورفعته بعناية قلب الأم إلى ابنتها ، وقال الأب فى تذمر : « إن القهوة بالجنزبيل لا تصلح للمرضى الصغار » ، فاحتارت بين قول وفعل تصارعا فوق اختيارها .

* * *

كان النهار يطل رطبًا ومضيئًا ، وكان هدوء يسمع فيه طنين الذباب يربض فى جوانح الدار ، وكانت صبية تشارف التسع ، تدعك الأرضية الترابية بمكنسة من القش ، وعلى العتبة طفلتان وطفل يلهون بشىء فى أيديهم ، ويصيح واحد فترفع الصبية جذعها وتتجه عامدةً الأطفال لتصلح شأنهم .

وكانت امرأة متوسطة القامة والعمر ، تشد وسطها بحزام مبروم من القماش فيرفع ثوبها الأحمر المشجر من أسفل

القدمين ، ويبين على مضض طوق السروال المطرّز . . تدخل متخطية الأطفال ، وبين ذراعيها حزمة من الحطب الجاف ، ألقته إلى جانب « مشب » النار ، فأحدث رطمة قوية ، وجاءت إلى الصبية ، ونهبت المكنسة من يدها وهى تقول : تعالى ، إنك تحتاجين للراحة ، وترد الصبية : (أنا بخير يا أمى ، اتركينى أساعدك) .

كان ضحى أول النهار يستحث أهل الدار إلى أكل وجبة الفال ، وكان « الفال » يتورم على هيئة « خبزة » من الطحينة بالخميرة فى مكان المشبّ .

بين هذه الفتافيت صاح رضيعٌ بحدّة من اللفافة الرمادية قرب النافذة الصغيرة ، فأهملت الأم ما فى يديها واتجهت نحوه على عجل .

* * *

قال صاحب البِناء للبنّاء يا « سعد » بالحق تريد أجرتك ، ولكن هاك بعضًا منها ، والبعض سأعطيك بدلاً عنه هذا «المذياع» ، وكان المذياع بنور صغير أخضر ، ويعمل بالبطارية الكبيرة ، وله أسلاك تمدد على سطح الدار فيبين للسامع ، ويحلو فى العين ، غير أن « سعد » يريد أجرته بالريالات ؛ تنفع حاله ، وتُسكت يد الطبيب . علىَ كثير من الحياء أخذ المذياع ومضى . حين لمع الصندوق المسلك بالنور الأخضر الصغير ،

كان الأطفال والأم يتلملمون كأصابع الكف من بعد عشاء مزادنين بالفرحة ، ومدججين بوافر السؤال الذى لا يلقى من الجواب إلا القليل .

كان « سعد » يجاهد فى القبض على الابتهاج المدعم بارتقاء صحة المعلولة ، وكان لا يسرق هذا الابتهاج غير يد الطبيب .

وبين غمضة وعشيتها ، جاء من حمل « المذياع » بأسلاكه المعلقة بالخرز على السطح ، تساءل الأطفال ، وعلى غيظ مدفون ؛ سكتت الأم وتجاهل الأب .

* * *

قال « سعد » فى حضرة انفراد مع «عزة » معاتبًا تدهور الأمور : «تفو عليك دنيا» . وسألت على حذر الزوجة المستغربة زوجها ، فأجاب :

(أخوات فلان يطالبنه باقتسام الإرث ، وأوضح طيبة فلان ذاك وعجزه عن قلة الولد فى يده) .

إنه لا يستبعد فى دنيا هذه الأيام ، أن تأتى الصامتة المتزوجة من الأخوات ، فتفعل ما فعلته فلانة . وذكر أن الأرض التى كانت تملأ بالزرع البارحة أصبحت بلا ثمن ، وأصبح السفح أغلى ، حيث يقتطعه الخط المرصوف من قبل البلدية ، ويعطى عنه « معوضًا » غاليًا فى الثمن . . فتنبهت إلى المال القلوب

الغافلة . وأن فلانًا قبض من الريالات ما يعجز عن استيعابه فى سفح قرب أرضه الزراعية ، لا يسمن ولا يغنى من جوع ، فاشترى لولده الوحيد سيارة جديدة ، وبنى بيتًا كبيرًا بالطوب والأسمنت ، فأما السيارة فقضت على الوحيد فى ذات حادث ، وعجنت لحمه بحديدها ، وأما بيت الأسمنت الكبير ، فقد فرغ من ساكنيه ، وها إنه بعد موت زوجته وبعد عجزه عن القيام ينفق باقى العمر ، ويشكو من برد جدران « الأسمنت » فى الصيف والشتاء . . يذكر أيام الحرث بالثيران والسقى بالخير ، ويصفق كفًا بكف على ماضٍ كان القوم جميعًا فيه يزرعون ويحصدون ويتعاونون . . واليوم لا مجيب ولا زائر لنداء ووحدة القاعد والعاجز وزاد : (فلتغرب الدنيا بأموالها . . تفو يا دنيا) .

* * *

لملمت الشمس آخر أرديتها الحمراء من بعد صفرة ، ولملمت « عزة » دجاجاتها ، وأعلفت فى مرابطه الحلال ؛ وخرجت الصبية تدوّر على الحمارة ، وعادت وقت إذ سقطت فى الظلام خلف الجبل الشمس ، وقالت للأب العائد إلى الدار حين « مسّى بالخير » على « عزّة » ، أنها وطئت ببطن القدمين على الشوك والحجارة المتناثرة فى غير الطرق ؛ تدوّر على الحمارة . ولم تجد لها مكان حافر .

فخرج الأب فى غُسَالة الشمس النائمة منذ وقت قصير ، ودوّر عن الحمارة الضائعة . . « فأين شردت تلك الجنّية ؟ » . (اسمع قولى يا أبا فلان . . اذهب إلى الفقيه ، وانشده عن حمارتنا الضائعة ؛ عله يهديك بعلمه ومعرفته) .

وحينما بسط على حرقة أمر حمارته على الفقيه قال : عمامتك ، وخمسين من الريالات . . سأقرأ عليها المعوذات ، وتأتيك حمارتك تجرى مع الفجر .

وحين جاء مع الفجر ، ولم تأت الحمارة ؛ قال « سعد » وهو يندف صدره اليابس :

« حسبى الله ذهبت الحمارة ، وذهبت الريالات ، وسأذهب أسترد – ولو بعد خصامٍ – عمامتى .

كانت « عزة » تقعد القرفصاء إلى جانب « سعد » وتمنح عينيها وعنايتها لفنجان القهوة الذى ملأته حتى النصف لأبى عيالها ، وكانت الصبية تقرع فى أوان نحاسية جدّ قليلة قرب « المشب » ، أما الأطفال الذين هدأوا بعد شغب قليل انشغلوا بشىء يأكلونه فى أيديهم ، وكان رد « سعد » على كلام جاء على هيئة سؤال من « عزة » عن تحديد الوقت الذى سينوى فيه تسجيل الأطفال فى المدرسة : « قريب ، خلفما يخلص الشهر وتبدأ الدراسة فى المدارس » .

١٩٨٩ م – الدمام

بالمشعاب

لم يسلم مكان طَفَر فيه العشب والكلأ ؛ من فعل ما تفعله الشاة فى الخضرة تحت القريض والصلَف ، فالراعى القوى المعاند صاحب الفائض بالصوف والروث والجلود ؛ يحب « حلاله » كما يحب عياله ويدفع عنه باليد والمشعاب ، ويسحب هامته المشهورة فى القوم من وادٍ إلى مسقى ، ويخشى سطوة اللسان فيه ؛ البعيد قبل القريب ، وإذا ما أوشكت المتردية أو النطيحة على الفوات ؛ تردد فى حدّ سكينه وذهب يمرّر «شباها» على كره فى الرقبة التى (قضى الله عليها أمرًا كان مفعولا) .

وها إن برق « جنبيته » المعقوفة يلمع فى وجه ابنه الذى أهمل عنوة يوما الغنم ؛ فعض ناب الذئب فخذ المتخلّفة خلف القطيع ، فالولد من عيال البيت وعيال البيت يشتهوّن اللحم والمرق ، وسكين الأب لا تجرؤ على طعم الدم ، وحيلة الابن ليست أقوى من الحاجة . قال لسان العم « عايض الصخرى » لإهمال الابن المعتمد :

« طيب يا سايب . . والله ، لو لحقتك لأروى جنبيّتى من دمك » .

خاف قلب الابن وهبت ساقاه تستجدى الفرار ، وقالت الأم للأب المغلظ فى القول بالحلفان :

« ولدى يضيع تحت الغضب من أجل شاة » .

تفصّلت مشية الشاة التى كاد يأكلها السبع ، ورأى عيال البيت أن تذبح ، وخرجت لواعج البطون ، وقال من لم يدر بوجع القلب الحزين :

«هذا رجّال بخيل ، يسمى شياه قطيعه ، كل غنيمةٍ باسم» . وما ظلم لسانُ الشامتين ، فقد كان يسمى كل ذى ثغاء فى القطيع المترامى باسم ؛ فيدعى هذه « مبروكة » ، وهذه « خيرة » ، وتلك « هيلة » . وحين تستريح فى قيلولة النهار أمام البيت ، وتجترّ بقايا الرعى ، لا يستريح ، يقعد بين أصوافها ؛ فيجز بعضها ، ويفلى البعض من حسك الزقوم .

* * *

سلم الولد من غضب اللحظة ، وسرقت السكين « بشباها» رقبة من عض السبع فخذها ، وقال أهل البيت خلفما أكلوا اللحم ، وشربوا المرق « الحمد لله ، شبعنا من خير حلالنا » .

وتأهب « عايض الصخرى » : يغسل كفيه وشاربيه من الإبريق فى الساحة ويقضى حاجة تؤرق منامه ، يتدثر جبّة الصوف ويغمر فى الهدأة والسبات خاطره وعينيه .

ووقت إذ لمّ ساقيه النحيلتين الطويلتين تحت أطراف جبته ؛ سمع مناديا من الساحة ففزّ على قَدرٍ حثيث ، وفتح الباب ، كانت ظلمة ما بعد العِشاء لا تدع للناظر أن يتحقق من طرف يده ، ورد كالعادة صاحبُ الدار الذى كان فى أمن وسكون النائم الشبعان : « أهله الله . . أقلط » .

وكانت حذاؤه المجلدة تفرقع في الآذان ؛ وقَلَط من الباب نصف المفتوح ، وبدون دعوةٍ قعد ، وعلى الفور قال : « اسمع يا عايض الصخرى ، ما جئت أشرب قهوتك « فى نُص الليل » . . الجماعة أرسلونى أحذّرك » .

- « خير إن شاء اللّه . . مم تحذرنى فى مثل هذا الوقت ؟ »
كل من عنده قطيع . . أرسله للبدو ، بعيد عن الزراعة . . إلى ما بعد الحصاد ، وأنت الفرد المعاند .

ألقى « عايض الصخرى » جبته ونهض إلى الداخل فى عجل ، ثم عاد وفى يده مِشعابه وقعد ، قال وهو يضرب به ضربة ثقيلة على فرش الغرفة :

- « روح للجماعة . . قل لهم ، حَلالى أغلى من عيالى » .

وعلى نثار من القول اللائق فى مثل هذه الحال ، راح الرسول يهدئ ويهون ، ويطلب لنفسه فى السريرة من الله الستر ، ووقاية الزعل ، وقال :

- « بكرة النهار يا صاحب ، تحتاج جماعتك ؛ فلا تلقاهم » .

أضاف :

- « اسمع قولى » .

وبضربة كادت تخلع رأس المشعاب قال ثانية :

« قلت لك ، حلالى أغلى عندى من عيالى .. هيا ، أسْر » .

و.. سرى ، فكان يقضم لسانه وفى البال انكسار مُحدّ.

* * *

كبر الولد ، هرمت الشياه التى كانت أغلى من العيال ، فمات البعض ، وطاح البعض ، البعض امتدت إليه يد الحاجة فحشرجت وقت بيعها الريالات . غير أن بعضًا فى القطيع بقى ينجب «بهمًا» صغيرا، فيملأ العين مع الزمن ويملأ الخاطر ، و قالت الزوجة ، وقد خلت الدار من العيال :

أشقيت نفسك ، وحفِيتْ قدماك ، وشاب حتى شعر صدرك .. لا حاجة ، ولا مقدرة لك على الرعى .

التفت « عايض الصخرى » إلى وجه زوجته ، وقال بالقول القاسى :

- « أقول لك .. نسيتى ؛ إن حلالى عندى أغلى من عيالى » .

وذكرته على حين غرّة :

– وأنت نسيت أن القطيع سبب قطيعتك عن الجماعة . أيقظت دواخله ، فالجماعة ذات ليلة بعثوا مرسولاً يحذره ، وكل ذى غنم وقت الزرع يودعها عند البدو إلى ما بعد الحصاد، وأن رأسه القاسى ، ومشعابه العنيد « أبيا عليه » ؛ فقال :

– « طيب ، تقدرين تقولين لى ؛ كيف نعيش ؟ الأولاد كبروا وتزوجوا ، والبنات لحقوهم ، والأحفاد أفلحوا المدارس ، لا راعى ، ولا من يرد ».

ولم ترد الزوجة ، فردّ الزوج أخجل نظرتها ، قامت «تستعين بالله» إلى الداخل لشأن لابد أن توقيته كان ملائمًا ، وبعد غياب قصير جاءت وفى يديها القهوة المهيّلة والتمر .

* * *

على منحدر سفح خفيض فى واجهة الوادى . كانت غنيمات قليلة تسرح فى تيه حذر ما بين أفواهها وعصا الراعى ، وكان رجل فى أرذل العمر ، على استكانة غامضة يتدثر بجبّة صوف بيضاء يحدّث خاطره :

(اليوم ، يا عايض الصخرى ؛ تدور عليك ، وعلى « حلالك » الأيام ، فتبقيك بحب قلبك شعرًا أبيض ، وعظمًا واهنا ، وعددًا قليلاً تبقى من الشياه وعصى لا وفعل لها ، وأبناءً

فرقتهم السبل ، وزوجة لا تقل عن وهنك وهنا ، وجماعة نفر أغلبهم عن طبعك الصلب ، وسحابًا لا يمطر ، وأرضًا تعطى ثمر جهدها . أناس يتطاولون فى البناء والسيارات والزخرفة . . فغنّ :

« ما بقى إلا أنا من الناس ما جا لى معاش ») .

* * *

كان همّ الصدر يلبس كل خاطر فيه وكانت شمس الجبال القروية تغيب وتظهر ، ثم تختفى وتبين ، فتبدو الصخور والأشجار القليلة الخضرة والأغنام ؛ ظاهرة فى العين وما هى بظاهرة .

وكانت السحابات فى السماء المتغبرة ؛ تتجمع على هيئة القطن المفحّم وتتراكم . . ثم اهتز القلب لقارع مع أول صعقة برق ما لبث « عايض الصخرى » أن ساق غنيماته نحو البيت خوفًا من الغرق ، حينها صاح باللسان الحاد مستحثًا الغنم ممتلئًا بالحبور .

٣٠ / ٥ / ٨٩ – الدمام

الخُرج

لرائحة الخُرج الذى يمتلئ بمقاضى السوق ، وتحمله الحمارة مع ثقل الشايب ؛ مرة كل أسبوع .. طعمٌ فى الأنف منفردٌ لا يمكن لرائحة غيرها أن تكون مكانها . لعل فى رائحة دكان القرية الصغير الوحيد ؛ ما يذكّر بها ، لكنها ليست كمثلها ، فقد كانت تبقى فى الخرج ، وفى الأنف وفى الصدر .

واليوم ..

لك يا صبى الثامنة أو ما يزيد قليلاً ، أن تجهّز ثوبك والحذاء ، وتُنشِب المشبك فى حلقك ، ليجمع بين انفراج فتحتى الرقبة ، أو قل حافتى فتحة الثوب من وسط الصدر إلى الرقبة ، ولتأخذ مكانك مردفًا على ظهر الحمارة خلف الشايب .

* * *

كانت الحمارة تقربع بحوافرها فى حجارة الطريق الملتوية كالحبل المهمل ؛ تبدو بعيدة وطويلة ؛ وكان الصبى يمنى نفسه لو يعرف نهايتها ، فأين نهاية ينقطع عندها هذا الحبل البعيد ؟!

جاءت من أعلى الجبل ، ومن سفوح كثيرة ، بلاد لا زراعة فيها ، وقطعت نهيرًا صغيرًا فيه ذؤابات ماء مطحلبة ، ونباتات

الحبق الخضراء الغامقة وصخور على الجانبين كبيرة وصغيرة ملساء كالبيض .

هناك أشجار كبيرة كالوحوش ، وفى كل مسافة وأخرى ، تقفز طيور « السمان » ، و«القمرى » ،وتطير فتأخذ معها البصر إلى أن تختفى أو تهبط على الأرض . أما هو ، فها إنه يهبط إلى السوق ، كما لو أنه سيرى ما لا يراه إلا هو .

رأى رجالاً ونساءً ، بعضهم على حميرهم ، وبعضهم على الأقدام ، بعضهم يلزم بيده زنبيلاً صغيرًا من سعف النخيل ، وآخرون يمسكون بالعصا أو المشعاب . وكلما اقتربوا من السوق تزايدوا .

كانت المساحة المحدودة بالأشجار من طرفها ، والجبل من الطرف الخلفى ، تنبسط فى واجهة البيوت المتداخلة البيضاء ، والعارية الحجر . كانت تلك الأشجار المتقافزة قرب جذوع بعضها ، تجنح بظلال تربط تحته الحمير .

تحت واحدةٍ ربط الشايب الحمارة ، أخذ عن ظهرها الخرج الفارغ ، وخلفه مشى الصبى ، كان يتبعه ، وكانت حواس رأسه الصغير تنصرف مع كل الألوان والأصوات والروائح .

دخل الشايب دكانًا وسلم على صاحبه ومد صاحب الدكان إصبعين من يده ، والتقط قطعتين ملونتين من الحلوى ، فناولهما

للصبى ، ونطحت رائحة نادرة محببة أنف الصبى . كان الدكان لا يشبه دكان القرية الصغيرة إلا فى أشياء لا تقف عيناه عندها . . فهذه قد رآها ، وتلك يعرف أنهم يسمونها بكذا ، ويستخدمونها لكذا ، أما تلك الأشياء المصفوفة كالعرائس ، وتلك التى كحب الرمان الكبير ، والراكدة فى الركن كالسهام المضيئة ؛ فكلها جديدة على معرفته ، ولا يدرى لماذا يشتريها الناس .

* * *

قال الشايب لصاحب الدكان ؛ وهو يناوله الخرج ، سيطوف بالسوق ويجيء ليضع حوائجه و . . خرج .

يا إله الأطفال والأسواق . .

لماذا هذه الروائح المختلطة النادرة ؛ لا تكون إلا فى الخرج ، أو فى السوق ؟!

كان الناس يضجون فى كل شبر ، وتختلط فى اليمين واليسار ، وعلى الأرض نساء ورجال يبيعون ، ويتحدثون ، وآخرون يرفعون أصواتهم ينادون إلى سلعهم .

صفًا أمام الصف ، وقدامهم بضائعهم ، وبينهم وبين بعض يتخطى المتسوقون ، ويقضون مقاضيهم .

الآن . .

عرف من أين يجيء الشايب بالخوخ والرمان . . من هنا ، من ذلك التل الصغير أمام ذلك الرجل المتربع .

ومن عند هذا الواقف أمام معاليق العذوق الحمراء . . يشترى الشايب البلح . أما ذلك القاعد وأمام يديه المدهونتين بالسواد أباريق واسعة البطون ، وقربًا تكاد تنفجر بالمُهل . فهو لا ريب يبيع القطران ، فرائحته لا تفارق الأنف .

بقرب أوانيه المصفوفة ، رجل هرم العينين واليدين ، تمددت قدامه العصى والمشاعيب المهذبة . . يارب ؛ أليس بينها مشعابٌ واحدٌ صغيرٌ بطول ذراع الصبى ؟

رأى الصبى فى السوق ما لم تره من قبل عيناه ، ولا أذناه ، ولا معارف الحس فى رأسه ، ولا صدره ، فأينما يلتفت يرى شيئًا جديدًا ، أو يرى أشياء يعرف لحظتها أنها تجيء من هنا ، ولم تكن البضائع الملونة والمحاصيل والروائح ، وطعم الحلوى المعسلة الذى أبى أن يمحى من اللسان . . هى التى ملأت فيه كل استيعاب ، بل إنه شاهد أناسًا آخرين بألوان غير التى يعرفها ، وأطوال مختلفة ، وعيون ولحى قصيرة وطويلة .

وعندما درج الشايب إلى فسحة صغيرة ، ليشترى « الريحان والشار » ، والليمون الحامض والحلو ، بين يدى نساء كبيرات العمر وصغيرات ، وقد وضعن جانبهن قِفافًا صغيرة ، تكاد تنفر

حوافها بورق أخضر مييّس من الحناء . . كورق السدر الجاف . .
رأى الصبى مجمعًا يترع بأصوات الخلق والحلال ، ففيه جمال وأبقار وحمير كثيرة ، وقربها أغنام وماعز .

لقد رأى الدجاج والبيض والبرسيم ، حول ركب النساء القاعدات .

* * *

قال الصبى للشايب ، ولسانه يجف فى فمه ؛ إنه يريد أن يشرب فدعاه الشايب برفق لم يعتده إلى صنبور قصير ملتو الرأس يخرج من صفيحة تنك أسطوانية واقفة قرب باب مسجد أكبر من الذى فى قريتهم ، فشرب وغسل وجهه ويديه .

كان الشايب يجمع مقاضيه وحوائجه ، ويحملها إلى ذلك الدكان الذى دخلاه أول مرة ، وكان الصبى يحمل معه فوق ما يقدر عليه ، ويمشى خلفه ، فيراه مختلفًا عن كل هؤلاء الأوادم ، بخطواته المسرولة العريضة ، وقامته الشامخة بمعطفه البنى ، وحذائه الجلدية النظيفة ، وثيابه المتناسقة البيضاء ، وعقاله الذى يلمم عمامته المجنحة فوق رأسه ، أما عصاه الخيزران ذات الرأس المكور ؛ فإنها بنحافتها وطولها المعتدل ، قلّ أن يشاهد شبيهًا لها فى أيدى الآخرين .

كان يقابل رجالاً كثيرين ، فيسلم عليهم ، ويبتسمون ،

وينفحون الصبى بكلمات مرحة ومازحة ، وكان بعضهم يعطيه فى يده شيئًا ما ، فقد قعد بعد عودته من السوق ؛ فى البيت بين إخوته الصغار وبنتى وولد الجار ، وأخرج تفاحة وموزتين ، وثلاث قطع من الحلوى المغلفة ، وما يملأ القبضة الكبيرة من النبق ، وأعطته تلك التى تبيع الريحان والحناء ؛ ليمونة صفراء كبيرة بطعم السكر .

وراح يوزعها بين الجميع ، كما يفعل الشايب وسط العيال ، وغرق حتى آخر إمكانيات الوصف ، لينقل لهم ما سمع وما رأى، وما سوف يبقى فى رأسه وصدره إلى حيث لا يعلم .

بقى إلى الليل لم يأكل ، فبعد أن صَدر الشايب من السوق ، وأخرج من الخرج - الذى لم تعد رائحته غريبة المصدر على فهم الصبى - وقسّم قسمته العادلة بين أهل البيت ، من الصغيرة والكبيرة . وبعدما خلع معطفه ، وعلّق إلى الجدار عقاله وعمامته ، وأركن خيزرانته - التى لا يجرؤ على التقاطها من تحدثه نفسه - وضعوا الغداء .

لم يتغد الصبى . ليس لأنه شبع بعينيه وأذنيه وأنفه ، بل لأنه بقى أيامًا يشكو من وجع فى البطن ؛ وقت الظهيرة ، وحينًا من السنين ، وأحلامًا فى النومات الهاجعة ؛ حين يتذكر ساعة إذْ أوشك الشايب أن يشدّ الخرج على ظهر الحمارة ، ليعودا إلى

البيت ، فرأى الناس يتجمعون حول ساحة ذلك المسجد الذى شرب من مائه ، وقد جاء رجال ، قال عنهم الشايب إنهم عساكر ، وكان معهم رجل مكتوف اليدين ، أقعدوه على عجيزته ، وتقدم منه رجل ضخم كالليل .

١٩ / ١٠ / ١٩٩٠ - الدمام

الغطاريف

عندما عاد « حمود المَروى » من السفر ، مثلما يعود أبناء القوم فى الصيف ؛ وقتما يشتد بهم الحر فى المدن . . حمل معه « شنطة » كبيرة من الصفيح المدهون وعلى واجهة غطائها قفل نحاسى ثقيل بمفتاح يحفظه فى الجيب .

وحين تجمعت عيون أهل البيت فى يديه اللتين انشغلتا بالحركة فى محتويات الشنطة . . أخرج عمامة بيضاء مغلفة بالبلاستيك الشفاف ، وعقالاً عريضًا بدلدول معدنى كالقرش الجديد ، وقال وهو يقدمه لأبيه :

- هذى . هديتك ، يا بوحمود .

أرسل يده فى فتافيت بطن الشنطة ، ورفعها ممسّكة بشرشف مضغوط كالكتاب ، وعلبة كالكف بها حبوب « الفينيك » لقتل العثة ، ومد بها إلى العجوز اللاهية بالدعاء ، والكلام الذى لم ينتبه إليه أحد ، وقال :

- هديتك . . يا أم حمود .

وأعطى أخته الصبية الصامتة ، منديلا أخضر ، « جغجغ » فى غلافه المختوم . أخرج طاقيتين ملونتين ، ومطرزتين بالقصب المكسّر ، ووضعهما على رأسى أخويه ، اللذين ملأ

الحضرة بالصخب . ثم ، أعاد الغطاء ، وأقفله بالقفل ، ووضع مفتاحة فى الجيب . أما قطعة القماش السوداء « القطيفة » ، والشرشف الكبير الأبيض ، ومنديل ، وزجاجة عطر باريسية زرقاء ، وهنداستين شيلة بلون الفحم ، ودهان كريمى مستدير . . فتلك أشياء تليق لأن تكون فى اليد ؛ وقتما يذهبون جميعًا إلى بيت العروس .

* * *

بعدما وضع الأب ألفى ريال ، وتحدث عن النصيب المرتقب ، لم يتحدث « حمود » إلا إذا سئل عن المدينة وأخبارها ، فيرد بكلام قليل ، وكأنه يُعدّ الكلمات ، فيفرك يديه فى بطن بعضهما ، وينظر فى وجه أبيه ، كأنما يستأذنه .

كانت « حَسنة » فى الداخل مع النساء القليلات . . تكتم الحركة ، وتبذر كل ما يمكن أن تستحسنه قُدّام أم حمود وبنتها .

وكانت أمها وعمتها يدفعنها بعيونهن ، لتقدم القهوة والشاى وقليل القول ، يعطلان الضحك أو اللفظ المشين .

قدمت أم حمود ما جاء به العريس من هدايا ، وضعتها قدام « حسنة » شيئًا فشيئًا ، وهى تقول « لبْس العافية يا عروسنا » .

* * *

بعد ساعات من الليل ، قام الجميع إلى دارهم .

كان أبو حمود يعمل بنّاء فى الحجر ، قضى نصف عمره فى تهذيب الحجارة ، ووضعها فوق المداميك ، وقد ظهرت على يديه حراشف دقيقة قاسية ، كست راحتيه بواجهة بيضاء متشققة . وهو لا يعرف إلا الحجر والمطرقة ، ولا يجب أن يعانده فى الأمر رأس صلب . وكان لا يقبل أن يرى الأشياء تخرج عن صفها ، حتى إنك لترى لحيته المهذبة . . مستقيمة الحواف ، متلائمة مع شاربيه الملتقيين بجانبى الوجه ، ومتصالحين إلى حد عجيب مع عينيه العسليتين النصف مغمضتين ، وأنفه الذى تراخى بين وجنتيه الممهدتين لاستقبال سنوات ما بعد الخمسين .

وتلك صفة تحوز عليها عائلة « آل مروى » منذ أجيال ، فهم يقولون إنهم لا يحرقون دمهم فى هموم الدنيا ، فابن آدم لا يحق له أن يحمل الدنيا على رأسه ، والأرض أحمل بكل ثقيل .

وعليه فإن الأب يوصى ابنه ، الذى يعمل دلالاً فى حراج المدينة ، بعدم حرق دمه ، (فاليوم لك ، وغدًا عليك ، والرزق من عند الله) .

* * *

فى البيت الذى يسكنه « آل المروى » ، والذى توجد به حجرتان ، إحداهما كبيرة للجلوس واستقبال الضيف ، وتناول

الطعام على سفرة من خوص السعف ؛ يتم نفضها وتعليقها فى وتد على الجدار المواجه للداخل .

على لصق المجلس حجرة داخلية تصغر قليلاً ، بها «مشبّ» النار ، وأوانى المطبخ ، وأكياس الحَبّ هناك فى الركن المقابل . . اقتطعت مساحة مربعة كصندوق الشاى ، بألواح رقيقة ، لها باب بقفل يتدلى كاللسان ، وبدون نافذة للعروس القادمة ، فُرشت بحصيرة جديدة ؛ لا تزال تحافظ على ثنيتها كالورقة المبرومة ، وعليها بساط مخطط بالأزرق والأحمر من القطن ، جاء به «حمود» من السفر ، أما الصبيين وأختهما فكانوا ينامون فى حجرة المجلس ، وينام الأب والأم فى الحجرة التى فى ركنها منام العروس .

وقالت الأم لبكرها القادم على الزواج :

- « بكرة . . بتأخذك منى ، هذا ما يبقى لى ؛ بعد تربيتى . . هذا حال الدنيا » .

كان « حمود » يربت على كتفها ويقول :

- « لا ، لا . . إنتى الخير والبركة ، يا أم حمود » .

كان الصبيان يتحاذفان بطاقيتيهما الجديدتين ، ويحدثان صخبًا يشوّش على مسامع القاعدين ، فيدعوهما « حمود » ، ويجلجل فى قفل شنطة الصفيح بمفتاحه الصغير ، يحل صرّة

قماش بحجم الرأس الصغير ، ويملأ قبضته بـ « الحمص » ، مثلما فرحا به يوم أن قدم من السفر .

وكان الأب قد هبط إلى الأسواق . منذ الفجر ، ليشترى ثورًا «ملْحِمًا» . . يذبح ليلة الزفاف ، ويشترى حوائج ينسى بعضًا منها ، فتفتّ العجوز فى أذنيه كلامًا عاتبًا (فهو لم يعد يتذكر وصاياها . . إنه بلا قلب) . وستنشأ مبادلات سبَابية ، لابد منها فى مثل هذه الأمور ، فيرد عليها كما يقول :

« لا وجع إلا وجع الضروس ، ولا همّ إلا هم العروس » .

* * *

انقضى يومان ، أنفقهما « آل مَروى » فى التجهيز ، بل إنه حتى فى صبيحة يوم الزفاف . . لم يجدوا وقتًا لتناول وجبتى الفال والغداء ، فقد عنيت الصبية بتنظيف الأوانى الكثيرة ، التى جمعوها من أهل القرية ، والتى حملت بخطوط معوجة ؛ أسماءهم على أقفيتها ، تجمّعت كلها فى ركن الساحة النظيفة ، حيث أقيمت خيمة من القلع ، وأُعد تحتها كانونٌ كبيرٌ ، وآخر يصغر عنه بقليل ، وفوقها قدران كبيران نحاسيان ، بحلقَات جانبية ثقيلة .

صُفّت « مصابيح الأتاريك » كالعرائس أمام أحد الأقرباء ، تولى تنظيفها وتعبئتها بالجاز ، وإبدال فتائلها المعطوبة . وكانت

تحمل أوشامها فى أسافلها فهذا لفلان ، وذاك لفلان .

كانت العجوز لا تفتأ تلبى مطالب زوجها الكثيرة ، وقد شمر عن ساعديه ، وساقيه إلى الركبتين ، ووقف مع العريس ، ونفر من القربى ؛ تحت لوزة عالية أمام البيت ، ليسلخوا جلد الثور ، بعد أن مضت السكين الحادة فى رقبته المترهلة كعمامة خاملة ، حيث خار ، وجاهد لفك القيود من قوائمه ، و . . جَبْجبَ و خنخن و قأقأ الدم المندفع من كَرَبته ، التى مالبث أن غار فيها الحدّ وتغلغل حتى النصاب .

تجمع صبيان كثيرون مع صبيى « آل مروى » وقذفوا للحدآت الحائمة فوق الساحة ، بقطع صغيرة من اللحم المهمل ، دقوا معها شظايا الزجاج ، وخطفتها الحدآت ، فكانوا يتصايحون فرحين بأنها ستأكلها وتموت .

وكانت القطط التى لم يكن أحد يتوقع وفرتها . . تتصارع بشراسة ، وتلغ من الدم الذاهب إلى السواد فوق التراب ، وجاءت العجوز والصبية إلى مكان سلخ الثور ، فحملتا الرأس ، والقوائم والكراشة والأمعاء فى قُفة ودخلتا بها . . ستنظفانها وتدعكانها بالماء . ثم . .

* * *

جاء أقارب « آل مروى » منذ الصباح ، وحضرت أخت

العريس المتزوجة ، من قرية بعيدة ، ومعها أطفالها الستة ، الذين لا تشك فى أنهم ولدوا فى سنة واحدة ، وعجّت الدار بالضجيج ، ورمى الأب بكثير من عبارات الشتيمة على الأطفال ، (فهم لا يدعون شيئًا فى مكانه) .

كان الغداء من الخبز واللحم المسلوق والمرق ، على قدر الحضور ، وانتشرت رائحة الدهن النافرة من دَرن الشحم واللحم النيئ المكوم فى الصحون الكبيرة ، فامتزجت بروائح الفَرْث والدم . قام اثنان بمهمة الطبخ ، ودلقا كيسًا ثقيلاً من الأرز الأمريكى فى قدرين ضخمين ، فكانت أبخرة الطبيخ تجذب البطن الجائع واقترب أفول الشمس الذى اقترب به مجىء العروس .

كانت العروس ، وهى لا تبعد إلا بمسافة تشميتة العاطس ، قد تربت فى بيت أبيها المتوسط الحال ، فهو إلى جانب زراعته وحلاله كالآخرين . . يفرى جلود القرب ويرتق « حلوس » الحمير و« أخطمتها » و « خروجها » ، ويتفحص حوافرها وأسنانها .

وهو دقيق الملاحظة قليل الكلام ، مهذّب العبارة مع أهله والناس ، حين يمشى لا تفوت عيناه السيور والخيوط ، وقطع الجلود والمسامير الصغيرة والحِلق .

لم يشتك أحد منه ، ولا من عائلته الهادئة ، فنشأت بنته ذات الأربعة عشر ، نشأة هادئة وخجولة .

وعلى أى حال . . فقد قال الناس ، إنه « ثوب ، ورقعته منه » .

* * *

« حسنة » لم تألف بعد ورَمتّى الصدر المستحى ، وجمدت كقطعة اللحم المدلاة أمام وصايا أمها وعمتها ، اللتان حوتاها بأرطال الكلام : (فالبنت الحرّة هى تلك التى تستسلم لعريسها ، وتبتلع صوتها ، وتظهر فى صبيحة اليوم الأول كالذهبة النقية ، فلا تدع للعين عتب ، ولا للسان قول مشين ، فيقولوا بنت فلان ، كل النساء تزوجن صغيرات ، وأنجبن صغيرات ، وتعلمن كيف يتعاملن منذ ليلة الزفاف ، مع أزواجهن) .

وخلفما أريق الحناء على الكفين ، وسُرحت أذيال الرأس الطويلة السوداء وكُحلت العينان الصفراوان الذكيان .. تمضمضتا بدمعهما الحامض وبالخوف والفرحة المكتومة ، وأشياء أخرى لها طعم ولون الدم توجس وقعتها لا ريب .. ضُربت الدفوف فى أيدى النساء ، واختلطت بالغطاريف ، ومشين على أقدامهن ، بعضهن يغنى : « يا لهللا لا له » خلف واحدة عرفت فى القرية بنظم الغناء بالقصيد ، ومشى كالذيل الرفيع أطفال من الأولاد والبنات .

وحيث أن بيت « آل مروى » ليس ببعيد ، إلا أن الزفة التى يقطع الماشى مساحتها فى وقت لا يزيد عن الترحيب بالضيف ، سيزفون عروسهم فيها مسافة بولغ فى بطئها ، كانوا يزحفون وكأنهم يتعلمون المشى ، وظهرت العروس بوجهها المزداد بياضًا . . تحيط به « الشيلة » السوداء ، معصوبة بمنديل ؛ شُد كالعقال ، ونصع جميلاً فى العين ، كانت بثوب من القطيفة ، مزين بالتطريز ، حتى بدت عيناها كبيرتان أكبر من حجمهما .

لم يكن على وجهها زينة أخرى غير الكحل ، وأذناها تختبئان تحت « الشيلة » .

وكان أغلى ما تتحلى به ، وربما كان رصيدًا من العون فى الأيام السود . . حزام بعرض الإصبعين من الفضة يلزم وسطها ، أما اليدين فتلزم معصميهما أساور من ظفار الكهرمان الأسود المنظوم ، وحجلين فضيين ، وخواتم لا تزيد عن الخمسة فى الأصابع العشرة .

* * *

فى بيت العريس وقف رجال يستقبلون الرجال ، ويرحبون بهم ، وأطلق فى سقف السماء بندقية الصيد ثلاث طلقات . . لمح الواقفون والد « حمود » يدحش الرصاصات واحدة بعد طلقة سابقتها .

خرجت نساء من بيت « آل مَروى » بالدفوف والغطاريف ، ليستقبلن العروس ، ويقدنها مع الزفة إلى الداخل . وتناول الأولاد على قدر تحملهم مرتبة بسعة شخص عريض واحد ولحاف بلون بحرى زاهٍ ، وطشت كبير ، و« طاستين » ، وشنطة من الصفيح المدهون ، وكيس طحين ، و« عُكّة » سمن بحجم الرضيع وإبريقى وضوء معدنيين ، وقربة .

نهر والد العريس أولادًا كانوا يسقطون من أيديهم الحوائج الصغيرة ، وتقدم فأخذها ، ودعاهم إلى الداخل مع الضيوف ، وكان يلتفت فى كل اتجاه وهو يحرك قدميه ، ويفرك يديه ، ويقذف بصوته الذى يبدو كأنه لم يجرع الماء منذ أسبوع . . بل انتزع حلْقه كله ، فقد أصبح صبح اليوم التالى ، وقد تغيرت معالمه ، حتى أن السامع ليشك إن كان صوت « أبو حمود » .

كانت العجوز لا تفتأ كالنملة . . تدخل وتخرج و «تموص» بقدميها المتورمتين ، والحافيتين من الانشغال ، وفتحت قفل عليتها عشرات المرات ، بل إنها لحظة شدت فيها أعصابها . . ألقت بالمفتاح من سلسلة صغيرة فى رقبتها إلى زوجها ذى الصوت المبحوح ، وقالت إنها لم تعد تقدر على تلبية مطالب فتافيته الكثيرة ، وجاء العريس لشأن مهم ، فوجدها على هذه الحال . فقبل رأسها ، وأعاد إلى سلسلتها المفتاح . وكان الأب

يتجرع كلامًا من الشتيمة ، يجاهد لكى لا يخرجه كالخزى فوق رأسها ، فقد رأى أشياء كثيرة لا تناسب حدته البالغة فى ضبط الأمور واختلطت إزعاجات الأولاد ببكاء الأطفال ، وبالضجيج الذى كان يأتى متواصلاً من مكان النساء ، وبأصوات الرجال ، وهموم أخرى تغيب قليلاً وتعود كالغيوم على صدره . لقد كان بحاجة إلى كلمة مهدئة طيبة من زوجته ، فإذا بها تهشم خاطره بتصرفها المنفعل .

تركته واقفًا مع العريس فى الساحة ، ودخلت تنود بقدميها المتورمتين ، فانشغلت مع زحمة النساء ، واستلمت قربة جديدة مطوية ، جاءت مع جهاز العروس ، و . . فتحت للمرة ربما الخمسين ؛ قفل عليتها ، وألقت بها فوق أشياء مبعثرة .

* * *

بعدما يقرب من الساعة ، وخلفما صلى الناس صلاة المغرب بقليل . . فرشت سفر خوص السعف الدائرية الكبيرة على الأرض ، وحيث أن المجلس قد فاض بالضيوف . . فقد جعلوا فريقًا منهم فى الساحة ، وكذلك الأولاد ، وفوقهم المصابيح تفح وتنثر ضوءًا كما يقولون : « كما الظهيرة » .

ووزعت صحون كبيرة من الأرز واللحم ، عند الرجال والنساء ، وكانت صحون النساء أقل فهن لا يأكلن مثلما يأكل

الرجال . خلفما أكل الجميع صاحوا بصوت واحد : « كثر الله خيركم » ، واستعد الناس للذهاب إلى بيوتهم ، ففى صباح الغد سيجئون لأكل الفال .

و . . عادت الزحمة والضجيج ، وتعالت نداءات عالية متفرقة لأشخاص يدورون عن أولادهم ، الذين وجدوا فى هذه اللَّمة مكانًا ملائمًا للعب ، ونشبت مشادات حامية بين أولاد كبار وصغار ، حول أحذية مفقودة ، وبحث رجل مسن عن حذائه الجديد فما وجده ، واستعاض عنه بآخر أكبر من قدميه .

لقد كان هناك تحت الخيمة قرب النار والقدور الكبيرة ، يأكل عشاءه مع ابنه العريس واثنين معهما ، أما باله فكان خارج يده وفمه ، وقام بيده اللامعة تحت الضوء بالدرن والدهن ، ليلتقط حجرًا ، ويقذف به على الكلاب المتناحرة فى طرف الساحة ، وكان خائفًا وهو يدور قرب النار من تقدم أطفال كانوا عند أمهاتهم فى غرفة النساء .

بعد ساعة من العَشاء ، خلت الدار والساحة ، وبقيت المفارش مدموكة ، والساحة الترابية محشودة بمواطئ الأقدام والحركة . وبقيت مشاجرات القطط مع الكلاب تقطع الهدوء الذى يُسمع فيه أصوات بعض النساء الباقيات مع العروس وأمها ، وقد شاركن من كان معهن بعد العشاء ؛ رقصة

بـ«اللعب» ، على ضرب الدفوف والغناء ، وهن واقفات صفًا واحدًا على الجدار .

كانت العروس تقعد على كرسى من الخشب ، كسوه بقماش مزهر ، لا تتكلم ولم تأكل من العشاء إلا ما يملأ الفم وعلى أى حال كان أكلها سيحين متأخرًا . . فقد عرف فى مثل هذه الأمور ، بأن المكلف بتوزيع العشاء فى الصحون ، قد اقتطع نصيبًا فى صحن متوسط ، وقال هذه « لُزمة العروس » . . ستأكل منه مع العريس حينما يختليان فى علِّيتهما ، بعدما ينام الكل .

وبعدما دخلت أم العروس المهمومة والمشغولة بدون شغل ، وكما يقولون : « كما أم العروس . . فاضية مشغولة » ، وهيأتها للنوم مع عريسها ، وبعدما أوصتها للمرة العاشرة بكثير من الوصايا ، وحرصت على إبلاغ « أم حمود » الرفق بعروسه الصغيرة . . خرجت لتضع جسدها المتعب ورأسها الموجع ، إلى جانب العجوز .

كان « حمود » قد أنهك جسده كمضيف ، حمل أشياء ثقيلة ، وساعد الأب فى إتمام الحفلة بوجه يرضى الجميع . فدخل إلى عروسه بقدمين ثقيلين ، لكنهما نشيطين ، وسمع على سطح البيت وقع أقدام ، فعرف أن بعض الفضوليين الذين

ركبتهم العادة كما يقولون : « يتسمعون » ، ولكن . . تذكر قول الناس : « اقطع رأس البسّ ، من أول ليلة » ، وتذكر وصية أمه العجوز فى المعاملة اللينة مع هذه الصبية الصغيرة .

* * *

أصبح الصبح ، فكان صبح لم يسبق له شبيه فى عين « حسنة » ، فها هى الآن والخجل الذى كان يتفسح بالحياء الطفولى ، جانبى الأنف الدقيق ؛ وفى العينين ، قد أخذ يلمم راياته الوردية والحمراء ، ويخرج من باب جديد ، تاركًا وراءه تلك الصبية العروس ، مع بداية عمر جديد ، ومفهوم للحياة جديد ، ومعاشرة لمخلوق آخر من صنف لم تعهده من قبل جديد . يقول عنها اللسان إنها « مَرَة » . تطلعت إلى الحناء فى يديها وقدميها . . فكان يبدو لها بلون جديد زاه كدم الغزال ، الذى يقولون عنه ولا تعرفه . وامتدحت الأم بنتها مديحًا لا تصديق له ، وكما يقولون : « ما يمدح العروس . . إلا أمها » .

وعلى أى حال كان هذا الصباح . .

فإن على العروس أن تصحب نساء الدار والقريبات ، بقربتها المطويَّة الجديدة ، إلى البئر منذ الفجر الأول ؛ لإحضار الماء على ظهورهن ، ويقعدن قرب القدور الكبيرة فى الخيمة ، لعجن الطحين وتقطيعه إلى أقراص ثقيلة دائرية على قدر الكف ،

فـ « الدَغابيس » المبطوخة بمرق اللحم ، هى خير ما يقدم لمن يجىء من الناس ، يباركون ويتناولون فطورهم ، فى المَرق والسمن ، وشىء قليل من اللحم ، وبعدها يُصب لهم الشاى والقهوة .

بُسطت السُفَر الدائرية الكبيرة ، وحمل كل اثنين بينهما صحونًا كبيرة ، والتمَّ الناس ، ووقف اثنان من الشباب ، بمنشفتين يحوِّمان بهما فوق رءوس الآكلين لطرد الذباب ، وبين وقت ووقت يجيئان بطاسات الماء . وغص واحد ، كان يكبر لقمته ، فجاء الشاب المنقذ بطاسته ، فتجرع منها حتى جعل من لقماته الكبيرة فى معدته ، تسبح فى الماء ، وهذا ما لم يكن يرغب فيه ، فالماء يحرمه من الاستزادة . ليس فقط بسبب الماء ، بل إن الجماعة يغسلونه بنظراتهم ، فهو رجل كما يقولون : « لا يشبع ولا يقنع » ويجرى وراء اللمات والحفلات .

جمع أبو حمود مبلغًا قدمه المباركون من الرجال ، وتعرَّف جيدًا على كل رجل بارك له ، وعلى عدد الريالات التى قدمها ، ففى غد الأيام . . يجب تقديم مثله ، فيما إذا كان هناك عرس ، أو ما يشابهه من الأفراح .

لم يحضر نفر من الجماعة ، لم يغيبوا عن معرفته ، ومع أنه

دعا كل أهل القرية بالصوت الفصيح من مسجد الجمعة ، إلا أن : « الغائب حجته معه كما يقول لسان القوم » .

* * *

ليس على بيت العريس أن يقدم وجبة الغداء فى كل أيام العرس الثلاثة ، وليس عليه أن يعنى كثيرًا بوجبات الفال فى الصباحات . . بل يقدم كل واجب الضيافة فى العشيات . وهذا هو اليوم الثانى بعد ليلة الزفاف ، ومن بعد صلاة العصر ، سيجتمعون ، ويقيمون رقصة « العزْضَة » . كان لهم ذلك ، جاء واحد ينقّر بعصاتيه القصيرتين ، طبلة الزير وحضر الشاعر فلان ، ليقول كلامًا يمتدح فيه العائلتين وكرم الضيافة . انعقدت دائرة واسعة فى ساحة عريضة قريبة من البيت ، وحمل نفر غير قليل من الرجال بنادقهم ، وتوسعت الدائرة بعد سماع الطبل . ورقص الأولاد فى ذيل الصف الطويل الدائرى ، وخرجت النساء على الأسطح وفى النوافذ .

حوَّم الغبار من تحت الأقدام على ما فوق الرءوس ، وعلى الإيقاع المرتب تقافز رقاصان خفيفان فى وسط الدائرة ، دون ترديد مع الآخرين ، فقفزا ونطّ عقالاهما من على رأسيهما ، ولوّحا فى الفضاء بـ « سلات الجنابى » الخاطفة كالبرق .

جاء والد « حمود المروى » فنفح الشاعر بريالات فى يده

قدام الجميع وأعطى الراقصين وقارع الطبل .

وبعد أن نملت الأجساد على أقدامها من الرقص ، تقاطروا مع غياب الشمس ، على بيت العريس للعشاء فكان لهم مثلما كان فى الليلة الأولى ، غير أن العدد قد زاد . فزادت الصحون .

كانت حجرة النساء مع العروس ، تطفح بالغناء ، وتقرع الأسماع بالدفوف ، واحتشدت الأصوات الحادة ببكاء الأصفال ، والروائح والحرارة ، وشرب الجميع الشاى والقهوة .

خلفما قضى الرجال شأن بطونهم ، قرع القارع طبلة الزير ، وصفّوا صفين متواجهين ، بلا سلاح ، ولا شىء فى الأيدى ، ورقصوا رقصة « المسْحبَانى » على أبيات الشاعر المختصرة . ورقص العريس مثلما رقص فى « العرضة » .

أما الأب فكان يقعد لصق والد العروس ، الذى كعادة كل والد عروس . . لم يحضر فى الليلة الأولى ، ولكن نصيبه من الأرز واللحم ، قد وصله ، وأكله على مضض ، وقطرات من الماء الساخن بطعم الملح ، تنضح من عينه . أما الليلة فإنه قد حضر منذ الصباح ، وأهدر طاقته فى المساعدة وفتافيت الحركة التى لا تهدأ لقلب واحد مثله فى هذا الأمر .

* * *

بقى حفل الزفاف ليلة ثالثة ، وكان أبو حمود فى الليلة الأخيرة قد هبط إلى سوق القرى ، فاشترى أربعة خراف كبيرة ، نالت رقابها السكين ، فقال الناس إنه « تجمّل » و« قام بالواجب » .

* * *

كانت «حسنة» لا تدعى زوجها باسمه ، فتقول : «يا مخلوق» ، إلى أن يمضى وقتٌ يخرج الحياء من كل جسمها فيقول لسانها اسمه . وكانت تقضى وقتًا من الليل فى البكاء ، ولا تشبع بطنها من الطعام ، فيحفزها عمها أبو حمود على الصحن الذى يجمعهم فى كل وجبة : « كلى يا بنتى » ، ينظر إلى ابنه لعله يستطيع أن يقنعها بدعوة أبيه الطيّبة لتأكل ، فترد « الحمد لله » ، وحين تخلو بنفسها مع الحنين وماء العين ؛ فى وقت من الليل ، تحس بالجوع ، ثم ما لبثت مع الأيام أن أصبحت من « آل مرَوى » . .

(فليبارك الله ، وليمنح بها الصلاح والذرارى)

٦/ ١٠/ ١٩٩٠ الدمام

مهرة

ها . . ها .

أتضحكون منى يا أرذل الشامتين ؟

أنا « مُهرة » ألاتعرفوننى ؟

ربما جفتنى الأيام فأنستكم عيونكم جارة دوركم ، وبنت أيامكم ، و« حميلة » رحمكم .

ها . . اضحكوا ، فقلبى ليس صغيرًا كما قد تظنون ، إنه لأكبر من بدنى وأطول من ليلة بلا عَشاء ، وأعرض من وقعة المصيبة المباغتة ، فى خباياه كل لحظات طفولتى وصباى وشبابى ، وما أراكم تنفثون « الها ها » إلا مفرغة تتلهّون فيها بأرذل عمرى ، لكننى « مهرة » تلك تعرفوننى ، وإن رغبت كنت أجمح فى ذى ماضٍ .

* * *

كان قلبها يقرع فى خبيئة الضلوع ، وكانت الضلوع كما يروون : « تنقص واحدة » . وكان النبض العنيف يشاغب فتور الجسد الطريح على السرير ؛ فماذا جرى بدنياك ؛ يا غالية الأيام يا « مُهرة » ؟ أمهرتك الأيام زوجًا من أطراف الديار ، فاخترته رغبة فى الولد ، قلت : شبعت حياتى من الرمَل ، ونبتت

« الصبيان » بين منابت شعر بناتى ، وحفيت خطوتى من مطاردة الرزق ؛ لعلى بزواجى من ابن الحلال أجد المتكأ والولد .

أكلتنى العيون ، وطاردتنى رغبات الرجال ، وتقاطرت حول دارى المطامع ، فما لى لا أجبر همّ نفسى بصوت رجل يملأ الدار ، ويكسر النظرة الطموع ؟

دخل دارك الرجل ببدنه وصوته ، وملأ عليك ما بين الجدار و الجدار ، وغضت العيون ، ثم جاء الولد ، فآنس البنات ، وساح صراخه من عتبة الدار ، وألقمته جوهر الرزق ، ونثرت على مهده كل ما علمته من الدعاء وحفيظة البركات .

قلت :

ولد، يحفظ علىّ لجاجة القول ، ويرد سود الليالى فى الكبر ، ويحمى من القوم « ساقة » الأخوات .

* * *

تزوجت البنات ، ونما مع الأيام عود الولد ، ورافقته عند أول الأيام إلى باب المدرسة ، تحمل الدفتر عنه ، وتلزمه الوصية ، وتمنحه قلبها ثم تعود .

جاءت الدنيا ببغتتها فخطفت الزوج ، وبقيت الدار خاوية إلا من معدتين ، وحفيت « مُهرة » بين الدار والمزرعة ، تفلح كما يفلحون وتسقى كما يسقون ، وتحصد كما البقية من القوم يفعلون .

تجمع التين بشوكه ، وعلى حمارتها القصيرة تزاحم الشوارب ، فتبيع ، وتبتاع ما تحتاج ، وما نقضت فى يوم غزلها ، وهل قسوة الأيام أضرى من قلب لا يعرف الجمود ؟!

فى الغد ..

أو بعد الغد ؛

يكبر قلب الجاهل ، ويمد باليد المليئة ، يردع الصعب ، وينتزع الهمَّ ..

ألا .. « فليباركك الله » يا ولدى .. تكبر كأعلى شجرة فى الوادى ، وتملأ بخضرتها عينى ، فما أحلاك فى العين ، وما أملأك فى القلب .

* * *

ها .. ها .

أتضحكون منى يا أرذل الشامتين ؟

أنا « مُهرة » ألا تعرفوننى ؟

لم أبع من أرضى فترًا ، ولا مددت يدى لمتصدق ، ولا فترت عن الزراعة موسمًا .

أنا : تلك التى ليست يداها من شوك التين وقطف ثمار الشجر نائية ، وما عرف الحناء فى كفى مقام .

هجرتم ثمرة التراب ، ونسيتم الزرع والحصاد ، وخرجتم

من بيت الحجر والطين إلى الأسمنت والحديد ، وقلتم : اركضى خلفنا يا « مُهرة » ؛ لا فى الفم ولا فى الجيب .

قلت : ألحقكم ، الولد يكبر ، والقلب لا يفتر ، أزرع وأقلع وأبيع وأشترى وألمُّ الأبيض والأحمر ولا أبيع أرضًا أكرمتنى .

خرجت عيونكم من محاجرها ، وقلتم من العجب : امرأة تزاحم الشوارب تبنى الأسمنت والحديد ؟!

ها . . ها .

أنا « مُهرة » ألا تعرفوننى ؟

بنيت إلى قرب أرضى على قدرى وولدى دارًا ، وبيّضتها كدوركم ، وأقفلتها بمفتاح صغير كما تفعلون .

و . .

فى الغد . .

أو بعد الغد ؛

يكبر قلب الجاهل ، ويمد باليد المليئة ، يردع الصعب ، وينتزع الهم ، ومن طمع فى أرض أكرمتنى ، أو إرث من بعدى ، يمسح بقفا كفه ما تحت شاربه ويسكت .

* * *

كانت « مُهرة » تفتح عينيها حتى يكاد يجيئها الحَول ،

وترسل كل بصرهما إلى ما تحويه الغرفة الصامتة من أدوات قليلة ، وضعت حولها كما يليق بمريض عاجز .

وكانت تسبل ذراعيها على حافتى السرير ، فتهزه كأنما ترغب أن يندفع وهى ترى زائريها القليلين يهدئون حسرتها على ولدها الذى تاه مع الأولاد ، فتعلم التدخين ، وسهر الليل ، والغياب عن الدرس ، وترك قلب أمه فى بيت الأسمنت والحديد ، ينتظر الوقت الطويل ، وهو لا يجىء ، فترفع كفيها وتدعى رب العباد بدعاء ينتقم من زمان أفسد الناس خلف الأسمنت والحديد والمال ، وأبعدهم عن لذة الأرض ، وحسن طعم جنى المحصول ، تقف وتضحك :

ها .. ها .

أتضحكون منى يا أرذل الشامتين ؟

أنا « مُهرة » ألا تعرفوننى ؟!

٣ / ١١ / ١٩٨٨ - الدمام

ثوب العيد

الطريق المتثنى على حافة الوادى وصخور الجبل . . يحمل فى أحشائه المدهوكة بالحجارة والتراب وبصمات أظلاف المواشى مع بقايا تتسلق الأنوف من الروث . . تحمل صبيًا يبعثر خطواته ، فتصطك قدماه بكل قواهما فى النعلين البلاستيكيتين ، بالحجارة الصغيرة ، ويربض بشراسةٍ غبار التراب على الأصابع .

* * *

انحنى الصبى الماضى فى الطريق فالتقط حجرًا بحجم القبضة ، وقذف به المنحدر . . فطار طائر صغير نحو الفرار ، وتسرّب حلم جميل مع الجناحين الهاربين .

أما ذلك القماش الملفوف كالذراع الطرية فى يد ؛ فقد نالته مع هزة البدن وقت إذ رمى بالحجر ؛ هزة أطاحته فى القريب ، حيث انحنى جذع الصبى مرة أخرى على قيد فينة ، فالتقط القماش ، وكان بلون « يفيح » فى القلب الصغير سرورًا ، ويقابل اخضرار الشجر والأحلام والحلوى المغلفة وعيون القطط فى الظلام .

العيد على مرمى أيام قليلة ، وفرحة الصبى لا تليق بدون ثوب جديد والأب اشترى هنداستين من البزّ الأخضر الذى

يصلح لحركة البدن الصغير بين نزو الأنف على الكُم ، وحبر قلم الجيب على الصدر .

وحيث إذ تلمس الصبى ريالين هامدين فى جيب الصدر ، من يد الأب . . نقلته النشوة المجنحة إلى العم « أبو صالح » خياط القرية من أقصاها إلى أقصاها .

* * *

عندما ولج الصبى من باب الدار . . مدّ بلفافة القماش ، وفرط ريالين مرهقين من كُثر التداول ، وقال :

- « قبل العيد . . يا عم » .

- « أبشر يا ولدى » . . وسأل عن أبيه .

كان العم « أبو صالح » يؤرجح موطئ قدميه فوق لوح حديدى كبير الفتحات ، يدير عجلة تهرهر بسير يلزم عجلة لماعة من عنقها . . تلمسها أصابع اليد اليمنى فتتناسق مع ضغط القدمين المتأرجحتين ، وتذهب عيناه بين مكان الإبرة ، وموضع السيجارة الرابضة فى المنفضة « الملزقة » على خشب طاولة مكنة الخياطة .

* * *

نظر الصبى إلى المقص الكبير الأبيض بممسكيه الأسودين . . يخشخش فى القماش الذى نال قياساته السريعة ، وتمنى لو أنه يملك مثله ولو ساعة من نهار .

وألقى نظره مرارًا إلى وجه العم « أبو صالح » ، وهو ينفض رذاذًا خفيفًا من بين شدقيه ، ويخرج كلمات ثقيلة ومدعوكة برائحة السجائر ، وقال كلامًا اعتياديًا عن العمر والمدرسة وأحوال الأب وسأل :

- « قل لى .. إنت رجّال ، وإلا زُجرجة ؟

احتار الصبى كيف يجيب ، واستحى ، وبالغ فى التردد ، وحار فى الاختيار فالرجّال نقصد ما يريده كل صبى أن يكون ، والزُجرجة ربما كانت بقايا خوضة اللبن إن كان على ما يعتقد .. ورد :

- « أنا رجّال » .

- « بارك الله .. بارك الله » .

دعا العم الخياط زوجته .. فجاءه صوتها الملبى من الداخل ، وطلب منها شيئًا لم يبن للصبى إلا بعد أن قبض عليه فى يده الصغيرة ، ، ومضى يدخل خطواته فى أمعاء الطريق التى جاء منها ، ويقذف بنوى التمرات المعدودات التى نالها دون توقع من زوجة العم « أبو صالح » الخياط .

كان العيد يزحف بجناحين أخضرين ، وكانت فرحة الثوب الجديد تتأهب لتعقد أيامًا فى صدر الصبى .. أما ما عدا هذا فلتذهب الجبال الثقيلة بما حملت .

الشامخ

.. وقيل على ألسنة المتحدثين فى المجالس ، وناقلات الكلام فى فضاء الوقت والضحوات.. أن وطىء الأنف « أبو عروان » يشرب السمن ، بعد أن يغمّس فيه خبزة الفطور ، يأتى على ما تبقى فتلتهمه بلاعمه ساخنًا .

قال البعض : (هو ذا أبو فلان ، ينفر مثل العنز فوق الصخور ، ويحفر فى الأرض فلا تبدو له شكوى ، والسبب .. شربه للسمن) . وقال آخرون : (لا .. انظروه ؛ على طول الزمان لا يحيد ولا يميد ، ولا يقدر على الحراك ، من أثر شربه للسمن ، تجمع فى مفاصل ركبتيه فأقعده عن القيام) .

ومع أن « أبو عَرْوان » ، كان يسمع بأذنيه ، أو عن لسان زوجته ، ما يوجع من كلام الناقلين والناقلات ، والمضيفين والمضيفات إليه فى « القيل والقال » ، إلا أنه كان يضحك من بعض المارة ، ويعلق : « ليت عندى قدر السمن » ، وتزيد حافظة سره فى هذا الأمر :

« متى كنت يا مخلوق ، تشرب السمن » ؟

أما وإن بدنه لا يكشف هذه التهمة ، وعياله ، لا يتميزون

عن عيال الآخرين فى البناء ؛ فربما دل ذلك على بهتان ، وما أكثره عند من وجد فى وقته الفراغ .

* * *

« أبو عروان » ، يحب الضيف ، ويحوشه في غير مناسبة إلى داره ، فتشتكى « أم عروان » بالصوت السليط ، وتصيح فى وجهه :

« يا مخلوق . . أفقرتنا مع ضيوفك ، وما عندك لا يكفى عيالك » . بصوت خفيض ، يرد فى كل مرة :

« لنا رب كريم » .

ولا زال القوم يدعونه بذى الأنف الوطىء !

(غير أن « أبو عروان » أفضل فى كثير من الأمور ، من أى ذى أنف مستقيم منهم ، وما وطأة الأنف فيه إلا ضربة جاءت على استقامة الأنف من سوطه ، فأوطأته ، فسمى وطىء الأنف)

فى القرى الجارة يعرفونه بـ « طويل الذراع » ومحبته للضيف ، و « فزعته » عند الحاجة .

* * *

على امتداد الساحة التى يلزم طرفها بناء من غرفتين صغيرتين ، كانت تقف بكبرياء شجرة « حَمَاط » فارعة ، وكانت

أوراقها فى الخريف تتخابى فى توال مستمر إلى داخل الغرفتين والساحة ، فتغيض الزوجة حين تكنس ، ثم تهبط الأوراق ثانية ، وتربض صفراء جافة الأطراف فى كل الأركان وأسفل الجدران ، وكأنما وجدت مكانًا نظيفًا مهيأً لنهايتها .

وإذا جاء الصيف أخضرّت وأثمرت ولزمت ورقها ، فكانت تغرى النفس بثمرها الأسود الحلو ، (وما أشد أن تغرى المارة ، وأن تغرى بشدّة الصبيان والبنات ، الذين يملكون القدرة على التسلق والقفز ، والهروب) .

اليوم منذ الصباح الصيفى الهادئ ، فعلت (هذه الجامدة الحية) ما تفعله من إغراء بالمارة ، وحدثت نفوس صبيان من الجيران ثلاثة بالقفز عليها ، ففعلوا ، وملأوا اليد والفم والجيب ، وجاء على آخر الوقت « أبو عروان » حيث كانوا سينزلون عن « الحماطة » و . . يهربون .

أمسك بآذانهم ، وقرص قرصة المربى المنتقم ، ثم تطلع إليهم ، ورأى أن هذا لم يقضِ على كل غليل قلبه ، وقال فى حالته : (مثلى ، مثل غيرى . . من يرضى الخطيئة على أرضه وزراعته؟).

لحقهم ، وكان الدمع المالح مع طنين الوجع يأخذ بهم كل مأخذ . كانت عصا طرية تنز بحليبها ، اشتلخها من الحماطة ،

وراح يلهب ظهور ومؤخرات الصبيان ، فعادوا هربًا وألمًا إلى دورهم ، وقد تناثر من جيوبهم الحماط ، وشكوا لأهاليهم ما جرى . .

غضب الأهل وأقاموا نارًا يصعب قتل لهيبها على ذى الأنف الوطىء ، وقالوا : (والله لا نسكت عنها .. بغى يهلك أولادنا . . كيف هذا ؟ يأخذهم بجهلهم ، ويلهب جلودهم بالضرب !) . قاموا حانقين إليه ، هزوا باب الدار ، ففتحت الزوجة ، وقالوا بغضب : « هيا . . أخرجى ذاك الفأر ».

لم يختف « أبو عروان » خرج ، رحّب ، وقعد ثم دعا « أهل البيت » طالبًا القهوة . . كانوا صامتين ، وتكلم أحدهم :

بكل هدوء يا وطىء الأنف ، تستقبلنا !

ابتسم وقال : تفضلوا ، اقعدوا . . أنتم ضيوفى ، اشربوا القهوة ، ثم تكلموا . . إذا لى حق آخذه منكم ، وإذا لكم حق تأخذونه من عينىّ الاثنتين .

نظر القوم إلى بعضهم ، وذاب غضبهم بين كلامه وقهوته ، واتفق « أبو عروان » معهم ، على أنه قد أخطأ ، وبالغ فى التربية إلى الضرب حتى سلخ جلودهم ، ولكنه بلغهم أن «البادى أظلم» ، وأن أحدهم لن يرضى بيد تمتد إلى حقه من زرع أو حلال .

قبل أن يتم الوفاق ، بطلب منهم ، على تكليفه بذبيحة ، أو ذبيحتين من الغنم .. يحضرها كل رجال الجماعة ، ويأكلونها فى بيته ، كان قد سبقهم قائلاً :

الليلة .. الله يحيّيكم ، بلغوا من لم يعلم ، وتفضلوا جميعكم .

***

بعد أن ترفقت الزوجة هذا الصباح ، وبذلت كثيرًا من العناية بقهوتها وفطورها ، وكانت تلاطف فى حديثها « أبو عروان » فتقول :

« مد ايدك يا أبو عروان .. »

وتهيئ حبات التمر القليلة ، وتنفض الرماد عن كسرة الخبزة ، المشتوفة من الحرف الدائرى ، فتهتز الأسورة الفضة ويصكع بعضها بعضا .

قالت بصوت مستحٍ :

« يا أبو عروان ، كل الجيران ، معهم « روادى » ، ونحن .. يعنى أنت ناقص ، وإلا باقص ؟ لا والله » .

رفع رأسه فى وجهها ، وهزه على مهل نحو الأعلى والأسفل ، وكان يعنى الموافقة دون كلام ، فاستبشرت .

لم تأت على الأسبوع نهايته ، حتى كان صندوق صغير

تحمله اليد الواحدة ، ينفخ بأغان ، وبأحاديث وأخبار ، لا تعنى أهل الدار فى شىء ، لكن لابد من سماعها ، (فهذا المؤنس يغنى ويتكلم فى كل شىء) .

وحرصًا على سلامته ، كان يرتع على حامل خشبى ، بعيدًا عن متناول اليد العابثة .

(وإذا كن الجارات ، لا يصدقن فليملأن عيونهن الآن ، وآذانهن) .

* * *

خصام كانت جذوره تضرب فى البعد ، وبقى فى القلوب ؛ ورثه عن الآباء والأجداد ، جيل « أبو عروان » على أشده انبعث لسبب كما يقولون « ما يستحق الذكر » ، فكان بين القرية ، وجارة أخرى ، على أثر آخر تتربص ضدهما قبيلة بكاملها .

اجتمع الجماعة ، واخرجوا جهد مشوراتهم ، واتفقوا على حَمى الأمر ونار الانتقام .

قام « أبو عروان » وطلب من جمع قريته ، السماح له بالكلام ، قالوا : هذا يضيع وقتنا ، ويؤخرنا فى الذود عن وجيهنا .

وقائل فيهم قال : دعونا نسمع ، لن نخسر .

تقدم « أبو عروان » وعلى لسانه كلمة تموج فى الصدر منذ وقت بعيد ، وقال :

(يا جماعة الخير ، مالنا وللخصام مع جارتنا الفلانية ، تعالوا نتصالح معهم ونقف جميعنا فى وجه خصمنا الكبير قبيلة بنى فلان) .

طاح على المجلس صمت ثقيل ، وكأنما كانوا فى غياب بعيد ، قولوا : جئت بها والله ، يا شامخ الأنف . . لو تصارعنا مع جيراننا لتعبنا ، وربما نخسر ، ثم تأتى قبيلة بنى فلان ، وهم أكثر قوة ورجالاً ، فنقع هزءًا على كل لسان فى القرى والقبائل .

فى يوم قريب تجمّع وفد ، وكان شامخ الأنف واحدًا منهم ، وقدموا على القرية الجارة ، عرضوا عليهم الصلح ، قالوا : نتشاور . بعد المشورة ، قالوا : أنتم ضيوفنا ، لا تروحون إلا بعد أن تأكلوا واجبكم من الضيافة عندنا ، وكلنا يجمعنا واد واحد، ومنافع كثيرة واحدة ، فلتذهب الجهالة إلى مكان غير مكاننا .

١٩٨٨ - الدمام

مهران

. . (ولماذا طاح بك الزمان ، ورمتك الوحدة فى ركن الدار ؟ تتناهبك الهموم ، وتتقاذفك الخواطر من باب إلى باب ؟ والله ، ما أنت ضعيف ، ولا بذى مقام قاصر ، ولا يسبقك إلى الزرع وأشغاله من الجماعة مُسابق) .

بهذا الخاطر بصدر « مهران الأعمى » ، تذكر كل ذكر لأحوال الدنيا كان قد مر عليه .

فها إنه ينازع ملامة ما فعله الزمان برجل « طويل ذراع » ، وأقعده كفيفًا بعينين منطفئتين ، (وعليك أن تبرئ النفس من شوك الخاطر وتقنع ، وإذا ما حركَت نغزة واهنة كهذه . . فعِز النفس المبتلاة ، ولا تمنحها كل ويل على البال واللسان) .

كان « مهران الأعمى » ، قد استدعى أحد الأحفاد ، يحضر له إبريق الوضوء ، ويأخذ بيده إلى طرف الساحة ، يطيّر الشَراب ويتوضأ ؛ فعاند الحفيد ، وتعذر كاذبًا بشُغل الدراسة ، وقام إلى العصا الطويلة الصفراء ، فأمسكها من رأسها المعقوف ، وجعل يلعب بها ويطاول سقف الخشب ،، بالحس أدرك الجد الكفيف كذبة الحفيد ، وليست الأولى منه ، فأثار الحزن والمرارة فى دواخله ونسى الأمر وجرى بخاطره خلف زمان قد مضى عليه عشرون عامًا أو يزيد .

ألقى الكفيف على حضرة العيال وقت الضحى طلبًا ، فخاف الحفيد ، ورأت زوجة الابن .. الواجب ، وقالت الزوجة المشغولة بشغل وإدارة البيت : طيب .. يا مهران يوصللك الولد من الطريق الخلفية ، خذ عصاتك ، وعلى مهلك . قام الحفيد ، وقرّب إلى قدمى الجد نعليه وعصاه .. أمسك بيده ، وقال : « هيا يا جد » . وجاء « مهران » يغرس عصاه ويقلعها عبر الطريق على مهل ؛ إلى الجار .

قال الجار مُرحبا :

« حيا الله أبو عبد الرحيم » .

وقعدا مقعدًا لينًا يليق بامتصاص الوقت إلى ساعة الظهر .

كان إبريق الشاى الملقح بالحَبق ، قد جاء بعد « دلّة » القهوة المعمّرة بالجنزبيل والهيل ، وكان الجار يهلك عددًا من السجائر ، التى تتناقص رويدا من العلبة الأنيقة . وكان الحفيد قد جاء مرتين ، يسأل عن جده إن كان يرغب فى الرواح ، فيجيب الجار : « عند أذان الظهر .. يا غلّتى » .

وكان الحفيد للمرة الثانية ، يدخل على بغتة ، فيقطع سالفة طويلة ، كان قد بدأها الجد :

(ولما وصلنا على أرجلنا إلى نبع الماء ، ألقينا بأبداننا فيه ، وكان الماء يتفرع فوقنا ، بعضنا شرب ؛ وحمد الله وقعد ، وبعضنا شرب ، وقعد يتقيأ الدم .

وحلَفنا ، ما نمشى حتى نتزود بالماء ، ورمى بعضنا بزاده من الطعام ، وتزود بدلاً عنه بروح الحياة ، وكانت قربة الماء ثقيلة . . لكن العطش ، أرانا الموت) .

كانت سوالف « مهران » كلها من الماضى قبل أن ينطفئ النور من عينيه ، ويبدو أن الجار ، أحس بمتعة « مهران » عن ذاك الزمان ، فجعل من نفسه كلها . . أذنًا واحدة ، تسمع ولا تعلق إلا بالقليل ، (ألا فليؤخر الله ساعة الظهر . . حتى تكمل السالفة) .

* * *

حدّث خاطره « مهران » وقت إذْ مال على سريره ، وأسند إلى حافته عصاه الطويلة ، وبعد عودته من زيارة الجار ، وقد فاض صدره بالحياة ، عندما سمع لغط العيال فى الدار ، وقال الصوت الفرح فى موجة هادئة : (ما أعجبك إنسان ، كدت أكمم بهجتها ذات لحظة ، وأوقع نفسى فى كآبتها) . جاءت الزوجة تسأله إن كان يرغب فى القهوة قبل الغداء أو بعده ، فاعتذر عن شربها باسمًا ، وأكد أنه شربها ، وشرب الشاى عند الجار ، وهى بكثرتها ، تقيمه من فوق الفراش ليطير الشراب فى كل قليل من الوقت .

* * *

النهار مكتسٍ بضوء صيفى ، والصدور بعد نتاج محاصيل الحنطة مُبْهَجَة ، وليس فى القوم هذه الأيام من ينشغل بشاغلة تأخذه عن الراحة حتى تسقط أول أمطار الوسميّة ، فينهض كل إلى أمره . نادى مناد من طرف الساحة :

« يا أهل البيت . . يا بو عبد الرحيم . . »

وأجاب من الداخل بلسان المرحِّب :

« أهله الله . . تفضل » .

وكان « مهران » المرحِّب ، لا يشك فى هذا الصوت الأليف ، الذى يزوره على أحيان من الغفلات ، فى عصارى الأيام : « مسعود » . . (فحيا الله الضيف المفاجئ ، وحيا الله أية رجل بعده تخطو فى هذا العصر السعيد) .

مد « مسعود » يمينه ، وسأله عن الأحوال والعيال ، وكذا ، رد « مهران » بـ « بخير » وسأله فى نظام يعرفه الجميع عن أهل الدار والحال .

وقال « مسعود » إن السماء صافية والشمس صاحية ، ولا أثر للبراد ، فرد « مهران » بأنها أيام القيظ ، وراح يعدد على أصابعه اللينة القصيرة ؛ الأيام التاليات ، وحساب النجوم .

قبل أن يوجَس ملل الحديث فى أوله ؛ كانت الزوجة تدخل وبين يديها إبريق شاى ، وثلاثة فناجين زجاجية ، وتقعد

متربعة ، لتصبه فى الفناجين ، وتعم السؤال عن عيال « مسعود » وزوجته ، فيجيبها : « بخير ، الله يسلمك » .

لوى « مسعود » واجهة الحديث ، وراح يشكو لصاحبه عن تغير الأحوال ، واختلاط صافى الأمور بغثها ، وكيف أن كبار الناس ، مثلهم مثل بيوت الهاتف فى شوارع المدن . . لا تتكلم حتى تضع فى أفواهها القطع النقدية ، وراح يشرح لـ « مهران » كيف تعمل هذه الصناديق ، وكيف تبلغ النقود عند حاجة من يتكلم فيها إلى مكان بعيد .

عجب « مهران » قليلاً ، وأكد لـ « مسعود » . . أنه آخر الزمان ، وعلى الله فليتوكل بعروته الوثقى المتوكلون .

وكان « مسعود » يندف صدره برءوس أصابعه ، يغمض عينيه ، ويكرر :

كبارهم . . لا يسيرون أمرًا لأحد . . حتى يبلعون ، مثل صندوق الهاتف .

* * *

« يا ولدى . . حماك الله ، أنا شايب ، وسلاحى كما مخاطة الطفل السفيه » .

هكذا رد « مسعود » على حفيد « مهران » ، حينما جعل يمازحه ، ويطرح عليه من تلك التى « خذّها ذراع » ، وكان يعنى

ملاطفًا؛ الحمارة ، ولم يكن الحفيد ، ليدرك مغزى العم « مسعود » ، لكنه قال دون علم وفى خجل : « لا . . تزوجها أنت » .

تدخل « مهران » بمزاحة أغلظ ، وكان حكيمًا فى هذه الشئون ، فقال للحفيد « شوف يا غلتى . . روح لجدتك . . قل لها ، تسوى لنا قهوة ، وقل لها ، جدى يقول . . فى قفا المندوب خشبة » .

ضحك « مسعود » وأعاد آخر ما قاله « مهران » مبتسمًا ، قام الحفيد وهو يحاذر لسانه ، أن هناك قولاً لم يدركه . . فيه مزحة عليه . وعلى أى حال من الأحوال ، فقد نازع الحفيد أحوالاً مختلطة بالرضى ، وبغير الرضى ، وعارَكَ خطوته ، ثم اندفع إلى جدته فى الحجرة الداخلية ، وبينما هو يقفز كقطة ؛ وهذا ما كان يحاول تمثيله . . اعترضت قدمه بسلك المذياع الممدود خلف السرير ، وبلا أدنى ممانعة مال فى انحناءة مشدودة ، وكاد فى تعثره أن يسقط على وجهه ، فقام العم « مسعود » ، وأمسك من طرف ثوب الحفيد وهو يردد « اسم الله عليك . . اسم الله عليك » . ومن ارتطامة المذياع بواجهة الحائط ؛ كانت قد تركت لسان الجد على هيئة هذا السؤال :

« خير . . خير ، وش جرى ؟ ».

ويجيب « مسعود » عن الحفيد الذى احتقن وجهه بالخجل :

« حصل خير . . « الرادى » طاح » .

حينما كان « مسعود » منشغلاً بإعادة المذياع ، وأسلاكه إلى مكانها على الصندوق الخشبى ، قرب رأس « مهران » كانت الزوجة تدخل بـ « دلة » القهوة وفنجانها ، ومعها صحن صغير على سطحه المجوف تمرات .

كان « مهران » يأخذ دون كلام ؛ الفنجان من زوجته ، وتمتد يده إلى مفتاح الصوت فى الرديو ، ليطمئن على صحته ، فيرتج البيت بالصوت العالى : « هنا لندن » . .

الدمام - ١٩٨٩

قِطّاع الجنابى

اهترأ وجه التراب من ضرب المسحاة ، وسال العرق حارًا كذوْب المعدن من جبين « أبو معجب » فأقام انحناءة ظهره إلى الأمام ، وأهملَ عن عروة الحديدة قبضته اليسرى ، وزفر زفرة تتلاءم مع طوله القصير ، وقال :

« أزفر وفى قلبى كما قطع الجنابى » .

وحينما جاءت الزفرة منغّمة ممطوطة ؛ كان أصغر الأصابع فى القدم الثابتة ينز دمًا ، وكان الدم القانى ينثال لزجًا على هيئة القطران فينفرد قليلًا على التراب الذى أبى أن يمتص حمرته .

وتطلع « أبو معجب » بنباهة من يعرف كيف يقيس ضربة المسحاة ، وكمن يألف مثل هذا الوجع الدامى ؛ أهمل عن اليمنى كامل العروة ، وقعد .

ملأ الكف بالمدر المندّى ، وحثاه على مهل فوق مكان الجرح ، وحدث خاطره (أنّ البيت قريب ، وبقطعة من قماش مع مسحوق الشاى ستدمل ما انقطع . أما وإن الحذاء « البلاستيكية » الرقيقة لا تمنع شوكًا ولا « حفى » ، فليغن الله عن لدونتها ، وليلبسها أهل الأقدام الطرية هذه الأيام) .

تحسس موضع الحزام من الوسط ، وفاح رضى قصير أنه

لا زال مشدودًا ، ونثر بصر العينين إلى ما فوق الكعبين ، فاطمأن إلى خلو طرف الثوب من الدم .

كانت الشمس تجمع سيلانها الأصفر نحو الغروب ، وكان الغروب يجرجر مع نهاياته الحوافر والأظلاف وشقشقات الدجاج فى الساحات ، وكانت الآذان الفاطنة تقتنص من غير حدس مزاليج الأبواب على المواشى .

حين دخل « أبو معجب » ساحة البيت ، رأى حمارته الرمادية واقفة كالصخرة ، تطرد بذيلها المشعر القصير عناد الذباب ؛ فآلمه هذا الإهمال ، ورتب كلمتين ثقيلتين جاءتا من فمه إلى مسمعى « أم معجب » ، وقالت على حب ومضض :

- « جئت تستريح ، وإلا جئت « تتخزّى » ؟

وقال « أبو معجب » على حب من غير مضض :

- « هيا . . تعالى ، اربطى الحمارة فى مراحها » .

فإن كان هو لم يغسل قدمه المصابة بالماء الفاتر ، ويتوضأ لصلاة المغرب ، فهى « بلا كلام » لم تترك الحمارة فى ذيل أعمالها ؛ إلا من الانشغال ؛ ولم يكن هذا بخافٍ على « أبو معجب » . . فسكت لسانه ، و «ونونت » ببعض ما فى حلقها ؛ ثم سكتت . .

وكان الطفل الذى عجن كفه الصغيرة فوق أنفه من قرص

الذباب ؛ يمد صوته ، ويخرج مع أبخرة تحته ، فيلصَق بأنف الداخل . ورأت « أم معجب » أن تعطى قفاها للرضيع ، ووجهها لأبيه ، فهذا كما تونون فى خاطرها : « مقدور عليه » ، أما الكبير فقد جاء مرهقًا من الوادى ، ولا قدرة على . .

* * *

وقتما كانت « أم معجب » تذر بطحين الشاى الأسود على الإصبع المدمى ، كان صاحب الجرح يحلُّ عن الوسط الحزام ، ويقاهر الزفرة المغناة ، وكانت لمة الخبزة واللبن مع الأولاد الثلاثة ، تذهب مع « أم معجب » بكل مكدور ، وكان الرضيع قد حبا كالهدأة بعد الطلقة ، وكان الإصبع الملفوف يتشرب فى بطء ماتحت اللفافة ، وكانت الحمارة قد ارتعت فى معلفها ، وكان الليل فى الساحة يستوعب كل هسيس . .

تدفق خاطر « أبو معجب » وسرح فى الأيام المقبلة ، فرأى « معجب » وأخاه ، وقد تزوجا ، وجاء الشقاق بين زوجتيهما وأمهما فانتبذ كلٌ منهما مكانًا بعيدًا عن البيت ، وتفرّد كل بزوجته وعياله .

ردع وساوس الخاطر ، وزفر بغناء خافت :

« أزفر وفى قلبى قطع الجنابى » .

سألت الزوجة ؛ إن كان يحس من إصبعه الوجع ، فما ردّ .

وسألت إن كان يرغب فى فنجان قهوة بعد العشاء ، فردّ : القهوة تفسد طعم اللبن .

وقالت بالصوت الخافت :

« الله بنا وبك يا مخلوق » .

ذهبت تموص بين أوانيها ، وتدندن بقصيدة مهترئة عن لا شيء يمكن لـ « أبو معجب » أن يلتقطه من معانيها ، إلا أن عذوبة نهايتها كانت طيبة فى الأذن .

* * *

خَرخَر الماءُ فى المِسيال ، وتسرب عبر فلَج صغير نحو مزرعته ، وسقى النبت الأخضر ، فنمى فى العين ونمى فى القلب ، وحصل وقت الحصاد ، وحين تلفت المزارع إلى أهل بيته ؛ لم تلحظ عينه من يساعد .

الولد تزوج ، وشغلته أمور الزوجة والعيال .

وأم معجب تقول : « أشقيتنا بزراعتك .. الخير فى الدراهم ، والناس هجروا بلادهم » .

وقلبه يقول :

يا « أبو معجب » أرضك .. أعاشتك ، وأعاشت أجيالاً قبلك .

كان « معجب » وأخوه يمران كالطلقة بسيارتهما من الطريق

الإسفلتى ، ويعرضان عليه الركوب ، أو حمل ما على كتفه فيرفض ، ويرفع يده عن رضى مشيرًا بالثناء .

وعندما كان جوابه :

(أستحى أطلب من أولادى الريال ، وأنا لى يدان تعملان ، ورجلان تمشيان) .

كان الناس المتندرين يسألونه :

أولادك موظفون ، وأنت لا تزال تزرع . . ما تستريح ؟!

يزفر بغناء مكتوم :

« أزفر وفى قلبى كما قطع الجنابى » .

٢٦ / ٥ / ١٩٨٩ - الدمام

الإستسقاء

اندلقت من عينيه نظرة حاسرة إلى حقل القمح ، وقد تطاول بالسنابل كالشهب . ثم صعّد النظرة إلى سقف بعيد من الغمام . . نحو المشرق الذى ولد شمس الصباح منذ ما قبل الظهيرة ، وقال :

(هذا نحن ننقى الأرض من الغثاء والحصى ، ونبذر «ذَرْوَنا» ، ونخطّ بالمحاريث ونرعى باليد واللسان والقلب بذرًا بذرناه ، وتجىء حوافل الغيم المقتم كمثلكِ فتلقى بنثارالبرد على كل سنبلة تسنبَلت بالحَبّ المسهّم ، فيغدو فى حضيض الأرض . . تأكله لاقطات النمل والطير ، فلا تبقى ولا تذر) .

فلما فرغ « ابن ركبة » من هذا الهسيس فى الخاطر ؛ لمع فى السماء برق ، وصعقت ملء الآذان صواعق قصيرة ، ونضحت على الأرض أول أخبار البرد . . فصاح كما يصيح بالصوت المرتفع كل سامع فى القرية لهازج السماء : « يا كَريم » ، وبقى يجرجر خاطرًا فى الصدر محملاً بالغضب والحسرة والويح المرتقب .

وحيث أن الموسم قد أدلق ما يفيض به الزرع والضرع ، وملأ بالرضى كل صدر ، وهنأ كل عين . . فما بال الغمامات

المذيلة بآخر الأمطار .. تأتى كل ثمر الزرع الناضج فتبيد اكتماله ، وتنصبّ النِتفُ على أذرع الأشجار المورقة المثمرة بنتاجها .. فيهلّها عند الجذوع ؟!

* * *

صاح بأهله .. أن يُدخلوا إلى الدار الحَلال ، وكل ما يُخاف من حصبًا السماء عليه .. ففعلوا ، وفعل معهم تحت نُثار ثلجىّ كالزجاج الثقيل .. نقيًا ، صافيًا كعيون البقر ، قاسيًا ، لارتطاماته على صدغ الرأس وما تحت الضلوع وجع لا تمحوه الغضبة ولا الشهقة ، ولا ما يجمع بين الكفين المنبسطين لرَجوة الدعاء .

فالآن .. لن يقف هذا السماوى القاسى ، حتى ينفق كل خزينة له فى الغمام على رأس كل مثمر ناضج يرتع على الخضرة النابتة والمتسنبلة ، ألا .. (فليتول الله بفضل رحمته على عبد « كابن ركبة » ، وعبادٍ فى القوم ليسوا بقليل .. أفنوا جهد عنايتهم فى الزراعة ، وقضوا فى انتظار ثمره شهورًا حتى يحين القطاف .. ويأتى برَد الغمامات قاصدًا متعمدًا .. ليواسيه بالأرض كالقاع الصفصف) .

فلما طوى « ابن ركبة » حبال المرارة على طول الموسم ، واستعوض الله فيما ذهب من السنابل ضحية للبرَد ، وذهب فى

استعداد جديد .. بقى وقتًا مع الناس مطر الموسم الجديد ، واحمضت أكبادهم مع البذور المدفونة تحت مَدر الأرض ؛ فأبطأت الغمامات وتأخرت عن سَوقها الرياح ، واحترقت الشمس ؛ تقطر ضوءها وحرارة لهبها من الشروق إلى الغروب ، وضحكت خوافق الضلوع من عجب الأمور وقال « ابن ركبة » فى غُدرة الظلام :

(أواه .. بالأمس كنا نستعيذ برب الأنواء ،من برد يهلك الأخضر واليابس ، واليوم نستعيذ برب الدهر من موسم لا تُبلل فى قحطه ناشفة) .

* * *

أسرّ إلى زوجته أن تقصد حين تقبض بالكف حفنة الطحين ، وزادها بالوصية ؛ إن البطون تعتاد نفوس أصحابها .. فإن عوّدها على الفضفاض غدت واسعه لا تشبع ، وإن عوّدها على الوفارة والتدبير .. تعودت على ما عودها عليه .

أومأت بالطاعة والصبر إليه الزوجة ، وأغمضت عينيها على ذرارى بطنها الأربعة ، وكبيرهم لا يكاد يبلغ الوادى وحيدًا ، وهى فى بالغ الحاجة إلى معين فى تعب الأيام التى لم تهن من حضور تعبها وشقائها .

تدفقت الأيام فى أذيال الليالى ، وشحبت مكامن المؤونة

الصغيرة ، وبلغ سعر « رُبع » الحنطة بتلك « الرويّة » .

وكان . .

(ما بك يا ابنة فلان ؛ وكأنك عدمت الحيلة وقلة الجهد وخطة البصيرة ؟ أليس فى البئر ماءُ ؟ وإلى قُرب البئر منبتٌ طيب من الأرض فيه البقل وما يصلح من الخضا وللأُدْم والأكل ؟ وقربه ما يشبع بقرتين حلوبتين من البرسيم . . « عليك الحوطة من الله ! » ، جُزّى البرسيم الأخضر النابت واطبخيه مع قليل الطحين ، وانتقى اللائق من الخضار وأسكتى فراغ المعدة ، وجوع الزوج والذرارى . . يوم ، ويومان ، وشهر ، وآخر . . يغير الله الحالة إلى خير حال . . وكل الناس مثلكِ يفعلون . . فلتفعلى . . فلتفعلى من بُكرة الغد) .

* * *

عندما قعد « ابن ركبة » مع ذراريه قرب ركبة زوجته ؛ ينفث دخان سجائره التى وجد لها وقتًا فائضًا . . يلفها من « التمباك » الأخضر ويهذبها ؛ وفى حضرة الشاى المعتق بورق « الحبق » . . نفضت غبطة وامضة نبض صدره ، فألقى بعقب تلك الملفوفة البيضاء على طرف من مقعده ، وبقيت تُناسِل على بطء ذؤابة رقيقة من دخانها الأزرق . . جانَبَ عينيه إليها ؛ وحوّلهما بأسرع من بصرهما إلى زوجته ، وقد بالغت كعادتها فى وصف

أمور العشاء بعد همّ الغداء وفتافيت البيت والذرارى ، وماذا ستكسب فى الغد من أكلٍ للبطون الصغيرة وكيف أنها تخاف على دجاجاتها فى البرد المتثائب هذا الشتاء ؛ من اعتداء الكلاب ، ودحرجت كلامًا آخر عن أشياء لم تكن لتعنى الزوج الذى استمع إلى كل هاربة من قولها ، وقال :

كأنك تحملين جبل الوادى على رأسك خوفًا على دجاجاتك ، وكأنك نسيت ما يتوعدهن .. آذيننا ، وقذّرن سكننا ، ولو صحّ لهن لنهبن ما فى أيدى أطفالنا .. وتأتى فى غيب رعايتك ضالة الكلاب فتهنأ بها ، ونحن بالندم يندب فينا الصدر والجبين .. اسمعى يا ابنة فلان .. إن كنتِ فى عين عقلك ؛ فهاتى السكين نحدّها على رقبة إحداهن .. لنا ولأطفالنا الغداء والطعم اللذيذ .

ما أبطأت الفكرة عن رأسها من قبل ، وهى العارفة بحال دجاجاتها ، والبالغة فى المعرفة ليوم يأتى تحد على رقابها سن السكين ، وتلك حادثة لاتنقضى بقضائها ناسلات البيض .. وليس عزيزًا أن تعوّض عنهن بأجمل مما فقدت .

ولما كان الرد منها يأتى فى فرك حدّ السكين .. كانت الدجاجة تقاسم أخواتها فى الساحة الحركة والضجيج .. إذ عمدت إلى قدميها يد الزوجة ،وحملتها كما تحمل غرضًا

عتيقًا ، فراحت الدجاجة المقلوبة تقطر من ملاقطها بالصوت المسغيث . . وأجرى الزوج على الرقبة المستسلمة بين أصابعه بالسكين ، وتولت الزوجة المحاطة بفزع الذرارى بقية شأنها .

* * *

كاد الموسم يفنى إلا قليلاً ، وهبت فى قحط الأيام رياح جافة . . شنّنت كل ذى جلد على عظمهِ ، وامتدت اليد فى العشيات على رقاب جميع دجاجات الزوجة ، وتمنى « ابن ركبة » لو أنه تدبّر أيام الوفرة فاشترى بقرة كما أشارت عليه بالرأى زوجته ، وكاد ينتف من الندم ذؤابة لحيته . . ثم استعاذ بالله من هواجس الشيطان ، كارهًا « لو أن » ، وهزّ علبة الصفيح الفضية الرابضة عند مقعده ، فوجدها محقونة بـ « التمباك » الأخضر ، فاغتبط ، وذهب يوضب بأصابع يديه التى اصفرّت أظافرها ؛ سيجارة حبلى . . مرّر برأس لسانه من طرف الورقة إلى طرفها ؛ وكواها ، . . سرح فى الدفء الخامل يلفح من مشبّ النار وشرب عددًا من فناجين القهوة المبهرة بالجنزبيل مع الزوجة والذرارى ، وكانوا جميعًا يهطعون فى البرد والرياح المتقلبة ؛ إلى حُجر الدار ينتظرون يومًا يقول فيه أبوهم . . اليوم سنفعل كذا ، ولا يدرون ما هو « كذا » وماذا سيكون .

* * *

و . .

اليوم بقى من حلال الماشية حمارة غبراء لا تكاد تنوء بالحمل ، وقطة ولود بثلاثة هررة لم ترعيونهم النور ، وفى الساحة أظلاف قوائم الثور الوحيد الذى جاءت إلى لحمه حاجة الجيب والبطن . . فباعه « ابن ركبة » لأهل القرية . . أخذ كل مشترك فى شرائه منه « ساديًا » من اللحم أما بقايا الدم والأظلاف بقوائمها . . فما برحت تمتص الرياحات والشمس وثكنات النمل الصغير .

* * *

كانت ساحة المسجد بعد خطبة الجمعة ؛ تجمع نثار القوم ، وكان من بين القاعدين على رءوس أصابع القدمين . . رجل مجعّد الجفنين مستقيم الأنف ، وقد أركز ذقنه على قبضة كفيه المطبقتين برأس العصا . . راح يفرغ سمع أذنيه مع القاعدين الذين استفرجوا الله قُربًا بعد الانتظار والجفاف ، حينما قال الشيخ :

يا جماعة الخير . . جاءنا أمر بإقامة صلاة الاستسقاء صباح الاثنين القادم .

٢٣ / ٧ / ١٩٩٠ - الدمام

حد الأسفلت

أقوال تتناسج فى المجلس ، وأصوات تكاد تلمس سقف الخشب . . بالأيمان والحلفان ، وبين لحظة ولحظة تزداد لفائف الدخان الصاعد من سجائر المدخنين المتضاربين بالكلام فى شأن يبدو كبيرا .

رجل قليل الكلام ، فى الجزء الأخير من العمر ، يعتقل عقالاً ليلزم عمامته على الرأس . . مال إلى الخلف ، بنظارتين لا شك فى أنهما طبيتين بذراعين سوداوين ، شدتا خلف أذنيه بخيطين خوف الانزلاق . . تبدو العينان المتحركتان سريعًا كعينى قط حذر .

فوق الثوب الأبيض الترابى معطف مندلع الصدر ، وكان يعنى بلا تردد للناظر أن أحد « أزاريره » قد شدّ فى غير ثقبه فانقطع .

لزم « مطير » ركن المجلس ، وأهمل يده الممدودة فوق ركبته كالعصا القصيرة ، وقال ببطء الواثق :

- يا جماعة الخير الطريق إلى بيت « سعيد » من عهد الأجداد . . معروفة للصغير والكبير .

- معروفة للرجل الهابطة والصادرة ، وليست معروفة للسيارة .

- ما كان عند الأولين سيارات .

- يعنى من حق سعيد اليوم ؛ أن يفتح للسيارة خط .

كانت الأقوال تتصارع حول هذا المعنى . وسُمع على الباب الداخلى نقر ، فقام صاحب الدار ، وجاء بإبريق شاى كبير ذى معلق ، عاد وجاء بصحن فى حوضه فناجين زجاجية ، قعد على ركبة ونصف وانهمك يصب الشاى فى الفناجين ، ويحاذر ألا يسلخ يده .

تطلع إلى الجالسين فرأى أكبرهم « مطير » فقدم له فنجانًا . على يمين الداخل وقرب سرير خشبى متهالك بأثر البطاطين والبسط القصيرة العتيقة والملونة ؛ قعد صبى ، يداعب قطة نمرية الفرو كبيرة ، تتملص من يديه وتحوم ثم تعود بلطف ؛ وتقعد فى حجره الدافئ ، تجرجر « قرقرتها » المسموعة ؛ فيزيلها بعنف خوفًا أن تسرق ما تعلمه من قرآن (كما تحذره الجدة) .

كان « مطير » يرشف الشاى بصوت عالٍ ، ويرسل نظرات مقننة إلى الصبى والقطة وكان الجالسون ينصرفون فى انشغال بالفناجين الساخنة ، ويذهب بعضهم يدخن ، وكأنهم قد اتفقوا على صلح ما ؛ فأسكت الضجيج .

لم يخل المجلس من فقيه يكتب الصكوك وسينال بعد

الوفاق ثمنَ التعب والحبر والورق ، وسيكتب فى ذيل «الحجة» الموثقة شهادته ضمن الشهود ، ويضيف : « كتبه مغرم ابن على .. غفر الله له ولوالديه » بخط بين « الفارسى والديوان » .

أما وأنه يدرك إدراك العالم أن « مطير » ضعيف النظر وقد تعرض مع هذا العمر إلى هيجان جَمله الحاقد ذات يوم قريب فأهلك بعض ضلوعه ، وكاد « لولا عناية الله » يعجنه بكل قوته ، فإنه سيقوم بالورقة إليه ، يحبر إبهام يده اليسرى ليثبت شهادته ضمن الحاضرين . كان القوم بالاتفاق قد سمعوا ملء الآذان من « مغرم » أن سعيدًا يستحق إيجاد طريق للسيارة إلى بيته ، وكل بيت كانت له طريق للرجل والحافر ؛ سيغدو له طريق للسيارة لو أراد ، « ويشهد الله وهو خير الشاهدين » .

قام كل إلى شأنه ، وكان خارج الدار يحتقن بضباب الشتاء ، وصاح أحدهم راجيًا أن يخلف هذا الضباب المطر : « فرج الله قريب » ، وتقافزت النظرات إليه داعية راجية .

وحينما دلفت الأقدام إلى خارج الساحة ؛ كانت تلك القطة تهز ذيلها ، وتقوم خلفها ثلاث قطط صغيرة كثيرة المواء . وإلى قرب قرص أخضر كبير من التين الشوكى قعد واحد يريق الماء ويوزع الالتفات ؛ ليطمئن إلى أنه لا أحد حوله ، ولا خوف على حواف الثوب المتهدل من البلل .

حيث كان « مطير » قد خرج مع الخارجين ، واتبع قدميه اللتين تعرفان كل طرق القرية بالخطوة ، وهبط إلى الوادى المقابل ، وجعل بعينيه المختبئتين خلف زجاج النظارة ، يطوف مزرعته ، فتختلط قدماه بالأعشاب والنباتات المتطفلة التى عاثت بالأرض ، وها هو بناء المدرّج الذى لا يكاد يُرى من تشابك النباتات ؛ يهدم خطوة القدم ، ويجعل أنة « مطير » تكاد تغلف كل المساحة من حوله .

و . . تستبطئ زوجته « شريفة » عودته ، فتحدث خاطرها بحديث كان « مطير » يحدثها به فى الصباح ؛ عن رغبته فى زيارة المزرعة المهملة فى الوادى ، وتدفعها نيتها على ذاك المكان ؛ عله يكون قد تأخر لسبب . عندما بلغ صوتها أقرب دور القرية . . كان الرجال يحملونه من تحت كتفيه ، ويقعدونه على لين الفراش فى ركن الدار ، ويستدعون « ابن حسين » مجبّر العظام ليعيد مفصل اليد إلى مكانه ، يوصيه بالسمن والبيض ، وكل ذى طعم مرّ وينهاه عن التمر ، وما حلى طعمه من الطعام ، ثم يكرر الوصية على « شريفة » المسئولة الأولى عما يحدث لليد المكسورة من خلل .

وبما أن « ابن حسين » مجبّر الكسور ، لم يمد يده ليقبض « وسخ الدنيا » من الريالات فلن يقبض من « مطير » .

زار أهل القرية مطير أفرادًا وغير أفراد، وكانت « شريفة » تحرص على اليد المعلقة فى الرقبة بالقماش الأبيض المندى بالسمن ، ونتن البدن الراكد فى الفراش ، فتجعل للبخور فى البيت عجاجًا ؛ أكثر مما تفعل عند نفاسها . وكانت تحاذر أن تهمل دخان الحطب الحارق ، لكى لا يأتى إلى عينى الزوج الضعيفتين ، فتشب نارها على العجين حين وقت النوم ، وكان هذا ما يسهرها بعد نوم كل العيال .

اشتهى « مطير » حبة تمر مع القهوة ، فأبت « شريفة » وقالت : « وين أنت يا مخلوق ؟ ابن حسين . . منعك عن التمر » ، وقامت إلى الداخل وجاءت بحافة من خبزة العيال وعليها صفار بيض تملأ لمعته العين ، وقالت تطمئنه : « بعد أيام ، تطيب ، وتأكل الحلى ، لا تعجل » .

* * *

« يا شق بطنك يا شريفة » .

هكذا صرخت زوجة « مطير » حين باغتها وباغت زوجها وعيالها الخبر فقد جاء رجل غريب عن القرية ، وسأل عن دار « مطير السعدوى » حتى دخل من العتبة وقعد إلى جانب رجل كبير السن ، يضع على عينيه نظارة بزجاج أبيض مكبر ، وقرأ عليه ورقة صغيرة فى يده ، علم « مطير » بعدها أن عليه ترك

بيته ، والبحث عن سكن بديل يؤويه ، فـ « خط الأسفلت » تقرر أن يأتي على داره . وكما سمع عمن حدث لهم مثل هذا . . فإن التعويض بالريالات سيبلغ جيبه ذات يوم ، غير أن وضع الحال ، وندمه على تاريخ حياته الذى سيذبح منذ الطفولة فى داره ، جعل قطر عينيه يتحدر من خلف الزجاج بصمت .

الدمام - ١٩٨٨

المركوب

مميزة لا يخطئ في معرفتها أحد ، أحقر من كل شيء فى القرية حقير، وبسيطة ، أبسط من صاحبها ، وقوية لا تَبلى مع كدّ السنين ، بثنيةٍ فوق مفصل إبهام الرجْل ، وبطوق سير متين على ظهر القدم . كان « عثمان » يحتذيها فى الصيف والشتاء .

وحيث أن مادتها من بقايا عجل السيارات زمن المسامير الدقيقة ، وتعيش وقتًا يملّ من طوله المحتذى ، وإن بساطتها ، ورخص قيمتها ؛ لا تغريان بالسرقة .

حدث فى ذات عرس من القرية الجارة ، أن ضاعت ، وسرقت أحذية كثيرة وبقيت حذاء « عثمان » يتيمة . (ومن تسول له نفسه بانتعال هذه الرخيصة المعروفة ؟) .

هاك يا واصف خلق الله بالعيب والمعيوب ، عمامة «عثمان» التى نالت بخطوطها السوداء المتقاطعة فى بياضها المربع سلوة المتندّر ، وهاك لسان الشامت فى غبرة لونها وحاجتها إلى الصابون . (وماذا تصنع الكهلة « حمدة » بعمامة «عثمان » التى لا تنظف من الدَسَم ؟) .

* * *

رغب « عثمان » هذا النهار فى دفء الفراش ، وأتى على

شقٍ كبير من غداء الكهلة ، بعد أن صحا متأخرًا وسألها عن شيء يصك به جوع بطنه الخالى ، وما دامت « حمدة » ، وكالعادة . . تصيح فى وجهه بذى « البطن الأحمر » فلتقلها هذه المرة عن يقين ، وليأت الله « برزق الشِدْق » ، وخير الرزق ما كان من الغيب مباغتًا ، ولن يأتى على السرير جاهزًا ، ولو تمدد «عثمان» فى الدفء والانتظار فوق الحول حولاً .

سأل « عثمان » عن عمامته التى خلعها قبل نومه قرب الفراش البارحة ، فقالت كهلته إنها غسلتها ، وستجىء بها من الساحة ، فقد جفت .

ووضع عجيزته قرب مشبّ النار ، وكان على حَلَق « الكانون » قدر مفحم الجوانب والقاعدة ، يتطاير منه بصوت خفيض بخار أصفر ، فقد ملأته حتى النصف « حمدة » بحبوب الذرة التى تحتاج إلى نار ، ووقت طويل . . يلين ويُحضّر للعشاء .

* * *

كان رد الكهلة « حمدة » حين سألها عثمان عن ابنه الوحيد ، أنه منذ الصباح عند أخواله ، وزادت بلسان اليقين ، أنه سيعود قبل دخول الليل ، وكانت تطلب من «عثمان » الأب أن يمنح « الولد » بعضا من قلة الاهتمام ، فيكون جوابه بلهفة الحريص : « أخاف عليه » ، وتجيب الأم أنه رجل يحسن التصرف ، ويعلم

فى المآزق كيف ينجو بنفسه ، فيغمض الأب عينيه ، ويقول : « ودّعته خالقه » .

ما كان الولد ليخرج من البيت إلا قليلاً ، حتى إن أنداده من الصبيان يدعونه بـ« المختبى » ، ويدعونه الناس من أهل القرية بـ« العاقل » ، غير أن لسان الأب ، وقت إذ نهره بالصوت المرتفع وبالتهديد ، ساق خطواته نحو أخواله منذ نقّب الأب عن أدوات الحلاقة فى الضحى ؛ فنهره بقساوة : « ما أحد غيرك فى البيت . . يلعب بأدواتى » .

ومهما تكن الحال ؛ فإن « المياه ستعود إلى مجاريها » ، وستمحى لمسة من يد الأب على الكتف الصغيرة كل ماض مرير .

أما وإن الأم قد نالت شوك الكلام فى مثل هذه الحالات ، فإنها ستلزم شفتيها السكوت ، وستمنح حلقها المحلى بإكليل الفضة القصير ؛ الهمهمة والكتمان .

عندما عاد « عثمان » من الوادى ؛ وله به أرض صغيرة تعيش على ماء السماء ، قال لـ « حمدة » إن السنابل الناضجة تحتاج إلى « صِرام » وكانت فى محصولها لا تزيد عن الكيسين ، والكيس يكفى باليد المدبِّرة شهرًا من الطحين المخبوز ، (وليبارك الله فيما يعطى) .

بعد أيام شد « على حمارته المراحل » ، وأحسن ميزانها

على ظهرها ، و« أشبى » أسنان « محشّ الصرام » وقال : (على الله ، نتوى الحصاد) ، وساق أمامه الحمارة ، يركب « الولد » ويدلى برجلين صغيرتين قصيرتين . أما « حمدة » فتنظر فى ساحة البيت بعد أن تجهز الوجبة فى وقتها ، تلتقف من الابن حين عودته الأولى ؛ بما تحمل الحمارة ، تسطّحه على الأرض ، ويعود راكبًا إلى أبيه ، وتلك حالة كل ذى حصاد فى الوديان والمدرجات .

وضع الولد مقعده على الحمارة ، وأهمل على الجنبين قدميه ، وصاح بالحمارة : « هش » فمضت فى طريقها من غير عوج ، ثم ما لبثت أن مدّت خطواتها وأضافت على سرعتها ؛ فمال إلى جبنه « الولد »، ودعاها باللين لتقف .

عاندت الحمارة ، وانقلب على رأسه ، فكان الولد يخطّ على الأرض ، وقدماه معلقتان فى « المراحل » الخشب ، وإن الحمارة ليخيفها البدن المسحوب ، فتزداد سرعة وخوفًا ، كانت تقطع اللحم من الرأس والكتفين ، والدم ، تصبغ رءوس الحجارة على طول الطريق ، وكان « عثمان » بعد ساعات ؛ يندب إلى جانب كهلته وينشد :

« يا جحش يا نهاق جوف السفولِ »

ويعلم من يعلم ، وينشد باللحن الحزين على « الولد » الشهيد .

(ماذا جنيت فى دنياك يا « عثمان » ؟ ، وأين الفم الذى سيطبق بالهناء على اللقمة المرة ؟ وماذا بقى لك فى الأيام ؟).

هكذا حدّث « عثمان » نفسه من بعد عشاء ؛ فى ليلة أنفق فيها مع « حمدة » كل ما على اللسان من حديث ، ونظر بعين الرجاء والأمل على وجه كهلته وقال :

(لا عليك يا « حمدة » ، اليوم نخسر الولد ، وغدًا نكسب الحياة والرزق ، فليعوّض الله ، وليختر ما يختار لعبده، فهيا ننام) . وكانت «حمدة » تمسح قطر العين ، وتقاوم فرحًا صغيرًا نبت مع كلام «عثمان » .

أيقنت أن لا محصل للبكاء إلا البكاء ، ولو ذرفت من الدمع بحارًا ، وقالت بلسان الصابر المنتقم :

(يا عثمان لا تبقى قاتلة الولد فى البيت) .

ترفّق «عثمان» بقول « حمدة » وزاد عليه أنه قد نوى ، ولو بثمن حذاء فـ « لتنقلع » إلى حيث لا يدرى .

* * *

كان النهار مسفرًا ، وكان الناس يأتون بأكياس الحنطة على الحمير إلى بيت « عثمان » ، وكانت « حمدة » تحلف على كل آت ليشرب القهوة وتردد :

(ما ضاع من تعاون ، ولو باليسير . . بين القوم) .

١٩٨٩ – الدمام

ابن القاسي

كان « على بن القاسى » قد تعلم القراءة والكتابة منذ زمن بعيد ، على يد الفقهاء الذين كانوا يعلمون الصبيان ، ويؤمّون بالناس الصلاة فى مساجد القرى ، فينالون من الأهالى نصيبًا من حصاد الثمار .

ويذكر « على » أن « الفقيه » حرمه مرة من حضور الدرس ، ونفذ به عقاب العصا . . لأنه لم يجئ كالباقين بما يقابل أتعابه فى التدريس . ويذكر أيضًا يومها . . أنه فرح جدًا ، وانصرف أمام عيون الأولاد ، على حيث مباهجه المطلقة بعيدًا عن البيت والفقيه .

عندما بلغ فى تعلمه للقرآن سورة « العنكبوت » ، رأى والده أن يذبح شاة لفرحة كان ينتظرها ويعد لها ، وقالوا الناس : « سورة العنكبوت . . فيها شاة تموت » .

أدرجت اليناعة عودها ، ونما شعر الشارب بعد أن كان كلمسة الفحم ، وزاد الزناد زنادة ، واشتد عزم الفتى ، فكان يحمل عن أبيه الطاعن فى العمر أثقل الحمل ، ويقف عنه فى كل موقف ، وفاض لسان الناس بالحسن والهناء لـ « ابن القاسى » ، فقالوا : لم يمت ، كما مات البعض مع عصيان أبنائهم ، وهم أحياء .

***

سمع الناس بافتتاح مدارس ، نبذت خلفها « الفقيه » وتعليمه . . فكانت تعلم الحساب والتاريخ ، والعلوم ، وبعد سنين قليلة يقبل فيها المتعلم كبيرًا أو صغيرًا . . يدخل معهدًا للمعلمين ، فيكون مدرسًا لمن هو أصغر منه ، ويأخذ من الحكومة قدرًا من المال ، فكان « على بن القاسى » واحدًا منهم .

وأصبح يرتدى الثوب الأبيض المزهر بالنيل ، ويضع على العمامة فوق الرأس عقالاً ، ولم تبق عين فى رءوس الجماعة . . يوم زفاف أخته الوحيدة ما امتلأت به ، ولم يكن لينقص ذلك الاكتفاء إلا غياب الأم ، التى ماتت كما يقولون « بجوع بطنها » .

* * *

أصبح صبحُ على « على » وقد خلت الدار من الأب والأخت ، فمثلما جرت الأيام الأخيرة على أرذل العمر . . جرت على أبيه ، وطعنته طعنتها الأخيرة التى لا حياة بعدها . ومثلما جرت على الصبايا العانسات . . جرت على أخته بدخولها بيت الزوج .

وها إن « على » يفلّى لحيته ، ويؤرجح ساقيه ، ويذهب بعينيه الثابتتين فى بيوت القرية بيتًا بيتًا ، فمن تكون تلك التى ستأويه وتعجن خبزته ، وتغسل ثيابه ؛ وبالمودة والرحمة تملأ عليه البيت وتنجب الولد ؟

بعينيه الواثبتين طافت بنات كثيرات : فبنت فلانِ طيبة اللسان حسنة الوجه .. نشيطة فى المسراح والمراح ، وبنت فلان شديدة فى الفلاحة ثيبة الطاعة بكر الحياة ، وبنت فلان فى كعبها النكوص .. لا تحوص ولا تموص ولا تلبى اللقمة الريّفة .

(فاختر يا ابن القاسى ، وعليك بالعزم وتنفذ ما تضمره نيتك ، فلا انتظار بعد اليوم ، ولا حَيْل لزمن يأتيك تصفق فيه الكف بالكف) .

فكان لـ « على » أن استعان بزوج عمته .. ويخطب له (طيبة اللسان حسنة الوجه .. النشيطة فى المسراح والمراح) .

قالت بنت فلان تلك : ها أتزوج وارث أبيه وأمه ووحيد أخته ! فى الغد يقولون الناس طمعت فى وحدته ، وباعت نفسها لمعاشه الذى يأخذه من الحكومة ، غضبت أمها ، وكنتها بـ« قليلة الحظ » ، وكستها « الخزى » ، ونقص العرفة .. فمنْ لا يقبل مثل « على » زوجًا . وبالأب ذى الكلمة النفاذة هددتها . فخافت وخجلت ، وهبط الرمش الناعس فوق عين الستة عشر ، قالت بصدرها النابت « كما الفناجيل المكببة » : أيا بنت فلان .. رأيك قاصر ، ورفضك ناقص .. خذى « شور » أمك ، ولا تصنعى فى البيت بينها وبين أبيك الشجار . ولم تجب ، فكان كما يقولون : « السكوت علامة الرضى » . وكان فى

البنات من حسد ، وفيهن من تتمنى ، وفيهن من لا تعرف بعد كيف تهيئ قلبها للدهشة .

* * *

كما يتزوج فتيان القوم .. تزوج « على » وفى الغداة سرحت عروسته مع النساء المكحلات المُحليات بالفضة و« المفارد » .. إلى بئر السقاية ينتزعن الماء ، ومعهن حملت قربتها ، وعجنت مع الأيادى الكثيرة « فال » الضيوف وقت الضحى . لقد أصبحت تحت ضوء شمس جديد ، وفى بيت جديد ، وبين يدى رجل متعلم نظيف الثياب .

قعدت قدام المرآة .. فرأت وجهًا غير الذى عرفته قبل الزواج ، ولملمت هطلان شعرها الأسود المضفر ، وابتلعت ريقًا سائغًا ، واهتزت « دلاديل » الحلى الفضى فى اليدين ، فأدركت أن البارحة ليست كالماضيات ، وأن اليوم لن يكون كالبارحة ، وأن بنتًا كانت فى حضن الأم ، وبين عينى الأب وألفة الإخوان .. قد جاءت لبيت ستكون مديرته ، وأليفة رجله ، وأم ذراريه .

وقال « على » بعد انقضاء مراسم الحفل : يا «خضراء » .

فقالت على خجل : « يا مخلوق » ، ولم تدعه باسمه كما فعل معها . أيام تجىء وتقول يا أبا فلان . وأيام أخر يذهبن

بالخجل إلى ما شاء . لا حماة ، ولا أخت زوج ولاعمّة . وفى مربط الحلال . . مثلما للناس : حمارة ، وبقرة ، وثور أحمر عريض بقرنين ، ودجاجات يتفسحن فى الساحة من البيض يأتين ، ومزارع تنتظر الفلاحة والبذر .

مضت الأيام ، وهنئ « على » بالزوجة الحسنة ، ودفء البيت باللمسة الأنثوية اللينة ، وقال لأيام الوحدة : « من إيدى فى إيديهم » ، وحطّ الريال من المعاش مع الريال حتى نما المال فى عينيه ، ومرت سنون ست والزوجان يرقبان الوليد . . فما زاد مع الترقب إلا الإبطاء .

* * *

ظمئت الحسرة فى صدر « خضراء » وشحب الأمل بقلب « على » ، وتنقل الكلام فى لسانات من لا سيرة فى أحاديثهم إلا قيل وقال . وسمع « على » قولاً هائجًا يطعن فى الخاطر ، فأغمض العين ، ونقّر الآهة من بين الضلوع ، (فمن يكون الخصم ، ومن يكون المختصم ؟! وما دخْل القوم فى عش كائنين ارتضيا بحاصل النصيب ؟!) .

قال فيه لسان : « دجاجة صمعاء ».

وقال لسان : « لا يحذّف مع الناس ، ولا يجىء بالحصى».

قال آخر : لا خير من ظهره .

وإذا كان « على بن القاسى » قد كساه الجارح بثياب غير البيض التى يكتسيها . . فإن « خضراء » قد أدمت من أظافرها بالكلام الشائك ، والقول اللاذع . . فقالوا : إنها كالبقرة تدجّن ولا خير منها . وقالوا : العيب . . فيها والشر فى كعبيها ، وقالوا : لو أن «عرقها دسّاس ».. لأنجبت كما تنجب البساس .

ف : (من يكون الخصم ، ومن يكون المختصم ؟! وما دخل القوم فى عش كائنين ارتضيا بحاصل النصيب ؟!) ، وكيف يرضى « على » و « خضراء » أناسًا لا يعجبهم عاجب ولا عجيب ؟ . . ألا فليدعا للّه أمرًا لا يد لهما فيه ولا رجْل .

قال والد « خضراء » وهو يهز يدًا حمقاء فى وجه زوجها : بنتى تجىء فى بيتى ، وأنت تقعد وحدك فى بيتك . وخرج بها على كره منها . . فلمن تكون الطاعة يا بنت أبيك وزوجة بعلك ؟ انقادت معه على الوعيد ، وحملت جمرًا فى الصدر لا يراه أحد ، وتنازى ماء حارق من العين فكوى قلب « على » ، وجذبها من طرف الثوب وقال :

زوجتى يا عم ، لم تعد ابنتك . . فافعل ما ترى . اهتز ذراع الأب ، ولطم على وجه الابنة مهددًا : « امشى يا بنت إن كنتى من ظهرى » . عِلى الصوت ، وسمع السامع ، واجتمع المجتمعون . .

فقال البعض أخطأت . . كيف تنتزع ابنتك من يد زوجها وهى مكرهة ؟

وقال آخرون : دعوها معه تذهب . ولعل الأمر بعد وقت إلى الخير يصير . قال « على » والغضب يعصر سكينته ، ويفلت من بين يديه حكمته : لو خرجت ، فلا تعد بعد اليوم من عتبة بابى .

احتد وجه الأب بالقول : افعلها ؛ إن كنت من الرجال . « غضب الله على الشيطان » قال الحاضرون . سحب العم ابنته ، وسحب الواقفون على الأمر عليّا .

* * *

كان الفجر يتدثر بضوء رمادى ، وكانت القرية فى آخر نومتها ، وكان « على » يدب كالوهن ، فتشعر « خضراء » فى بيت أبيها بحضرته . . لتخرج إليه ملفعة بشرشفها الأبيض ، خلعت « قلاقيل » حليها وفى صرة تحملها اليد ؛ مع ملابسها وضعتها ، ثم وهبت فى يد الزوج يدها ، وعادا دون عين ترى ، أو أذن تسمع إلى دارهما .

و . .

حين انتصف الضحى ، وقلّب الرأى مع الزوجة الأبُ . . خرج أولاً إلى دار زوج ابنته ، ونادى باسمه من الساحة الفسيحة

فأتاه ، وقال : مرحبًا يا عم . . ادخل فالدار دارك . كأن العم لم يستمع لقول طيب ، وتجاهل أن يرد بأحسن منه ، بل قال : أخرج تلك الملعونة ، التى شقت عصا طاعتى ، دعنى أجرها من شعر رأسها ، وأمرّغها فى التراب .

بالهدوء قال « على » : اهدأ ، يا عم والعن إبليس ، فما هكذا تتفاهم الأرحام .

وهل تعرف معنى الأرحام ؟ . . رد العم .

كانت مسامع « خضراء » فى الداخل قد حوت كل ما جرى من القول والسباب . بلغت الباب ووقفت كالشجرة المنداة بالرواء ، وقالت بصوت المستحى الطمعان : اسمع يا أبى . . ادخل بحفاوة الابن والبنت دارنا ، وهبْ أننا أخطأنا فى واجب الحق معك ، تعال ، فى الأمر نأخذ ونعطى .

لم يهبها من بصره طرفة . فلما صعب على النفس مقدارها وعزها . . نفضت كل عادة مفروضة وقالت باليقين والحدة : أنا « خضراء » بنتك التى ربيتها ، وعلمتها عِزّة النفس وقرارة الرأى . . والله لو قطعتنى لا أبرح بيت زوجى .

كبرت فى خاطر الزوج ، وهزل الأب مع نفسه قدامها ، فعاد خامل الخطوة يجر كعبيه على تراب الساحة .

* * *

هدرت ألسنة الناس من جديد ، وصنفوا لكل حادث حديث ، وكان الزوجان يسدان المسامع واحدة « بطين والثانية بعجين » ، (. . فليصيغوا من القول بينهم ما طاب) .

دارت الأيام دورتها ، وحصحصت بالوضوح أمور كانت فى الغياب وكما تبرد مع الوقت كل حارقة . . بردت ألسنة المتلسنين ؛ ولقد انشغلت بشاغل يصرفها . وكان الأب لا يزال من بنته وزوجها فى الإعراض ، وغامت بالدمامة عيشة البيت ، وربى الخصام بينه وبين أم « خضراء » باليمين أنه ممن يهدرون آخر سنين أعمارهم فى التخريف . . (فمن يقطع فى النهار الجهار رحيمه وخليلة مهجته ؟!) .

وعندما تشتد القتامة مع الزوجة فى الصدر . . يكون ضيق البيت ؛ يتقارب بالزحف على النفَس والنبض ، وكان النبض ينتفض بكلام فيه حب « خضراء » ومودتها ، ولكن من يعلم به ، ومن يدرك أن الأب لا يمكن أن يطأ قلبه عنوة ! . . فإنه يلف على الوجه المجدور العتيق أذيال عمامته ، ويخرج مثلما يبحث عن مؤنس يقضى معه الحديث .

اليوم . .

وبعد سبع من السنين مررن شحابًا . . نبتت البذرة وتورم بطن « خضراء » ، ووجد الفرح له فى ضلوع « على » المكان ،

وتشعشع الغبوط بين حنايا الحامل ، وحين علم الأب . . فكّ اللثام ، ودعا الزوجة والأهل لزيارة انقطعت طويلاً ، وقال بالرضى : « عفى الله عما سلف » وقد كان ينقب عن عذر يمحو به خطيئته . . فجاء إليه كبيرًا مفرحًا .

التمت أصابع اليد كواحد حين تقبض على ممسك النصل فى « الجنبية » .

وجاء « على » فحدّ الشفرة على رقبة الخروف ؛ واستضاف الجار والقريب ، ووعد العم بميزة اسم الولد ، أو الحماة إن كان المولود بنتًا . (فليهيئ له الله من المولود الخير والصلاح وقرة العين) .

* * *

تنازت حبوب الماء قوية ممتلئة من سحابات الشتاء ، واغتسلت واجهة الأرض مرارًا ، فمنذ أيام وضوء النهار لا «يبان» له حدّ مع الليل .

كانت « خضراء بنت مساعد » تعيش مراودة المخاض وكان « على بن القاسى » فى تلك الليلة يعانى قلة الحيلة قدام زوجته التى قرصها البرد . وعصرها المخاض ، فأدرج خطواته نحو بيت العم عند طرف القرية ، ولم يجد بالدار أحدا ، فما كانت أم « خضراء » لتحسب أن ابنتها على موعد فوجئت به بعد شهر الحمل السابع .

أقفل « على » عائدًا ، وطق باب أخته ، وكان مطر الليل يتدجج فى ثيابه اللازقة بالبدن ، قال له زوجها : « ادخل يا رحيمى من المطر . . شريفة ، أفلحت عند حماتها » .

قعد ينتظر ، وكانت فتافيت الوقت تنسج من خيوط العصب غزلها وبعد وقت رآه مديدًا قام كالملسوع وخرج .

كانت « خضراء بنت مساعد» وحيدة فى الدار ، والمطر فى الخارج لا ينقطع ، ولم يكن لأى صوت مكان فى الأذن ، وكان آخر ما استدركه سمعها صراخ المولود الذى « يخرج من الميت» .

لم يستطع « على » أن يجمع بين متناقضين حين دخل متأخرًا ، وفتش فى قلبه فوجد « خضراء » نضرة كالشجرة الراوية لا تموت أبدًا . . لكنها لا ترد على النداء ولا تجيب لمناداته التى تنازلت على هيئة القطر الخفيف من عينه .

الآن . . حين ترى عيون القوم هذا الشاحب الطويل المبتسم يقولون : إنه « مطر بن على القاسى » . . وينسون أنه ابن « خضراء بنت مساعد» الشهيدة تحت مطر الشتاء وعصرة الولادة .

٢٧ / ٨ / ١٩٩١ – جدة

منشورى

نفر . . أوكلوا الله على الزرع والحلال والأهل ، وودّعت قلوبهم آخر شجرة لوز عند رأس الطريق الذاهبة خارج القرية تحملهم النية إلى الحج هذا العام . . ففيه ككل حج من كل سنة إليه يقصدون « الأجر والأجرة » ، وفيه يجتمع الحاج من كل قطر غريب ، ويأتى معه بكل شأن فى الحياة غريب .

* * *

من بلاد ما بعد الهند ؛ قوم جاءوا للحج . . يرطنون بلسان لا يفهم ، ومعهم من أهل القرية « سعيد » سيكون أول محطة للآتين من أولئك الذين يشاركونه الحياة فى القرية .

* * *

ها إنهم دبوا إليه بعد سفر طويل ، أشعثت فيه وأغبرت الأبدان ، وبعد سؤال طال معه البحث والتنقيب ، فلقيوه بوعثاء السفر ، وقبّلوه وقبّلهم فى الرأس والمنخر.

سألهم عن الحال والحلال ، والديار والأهل والزرع والمطر ، وسألوه عن عيشة المدن ، وعن عمله مع الذين لا يعرفون لغتهم ؛ فرفع رأسه حتى مطت رقبته ، وقال إنه تعلمها ، ويقدر على فهمهم وإفهامهم بها ، وعليه سوف ينزلون

عندهم ضيوفًا ويأكلون طيب الأكل والشراب . فرحوا وهانت الأتعاب فى أبدانهم ، وحوت عيونهم المسرة والرضى .

* * *

بعد شىء من الوقت دخل واحد من أولئك القوم ، فأقحم بالدهشة التفاتهم ، وأفزعوا بهيئتهم سكونه ، فسرت فى دواخله الريبة والقلق . قام إليه « سعيد » وأفنى فى حضرته عددًا لا يحصى من الكلام المعوج ، والحركة المؤيدة باليدين ، ليفهمه بأن القاعدين قدامه من أهل قريته ، وأنهم قصدوه بعد عناء البحث والسؤال فى أول محطتهم ، وراح يلجلج باللسان ، ويهمهم ، ويمزج العربية بغريب اللغة .

سأله الحاج الغريب بكلمة واحدة (لعلها تعنى «لصوص») :

– «مَن شُورى ؟!» .

فقال « سعيد » دون معرفة منه بما أراد :

– نعم ، « من شورى » .

تأمله الحاج الغريب ، وأعاد بنظره إلى النفر القاعدين ، ثم هز يده ، وصفع « سعيد » على وجه ، فأخذت بالدهشة والعجب عيون القاعدين من أهل قريته ، وقالت خواطرهم .. لعل « سعيد » قد أخطأ فى شىء لم يدركوه ، وهذه حال المرءوس أمام غضب الرئيس ..

* * *

التفت « سعيد » إلى قومه ، وباقتصاد فى القول . . أوضح لهم ، وهو لا يزال مستعرضًا أمامهم بمعرفته للرطانات الغريبة . . أن هذا السيد ؛ ليس كالذى سيأتى بعد قليل ، فهو بخيل ولا يتفهم مقدم الرجال ، ولا كيف يقوم معهم بواجب الضيف .

وقلب على خده جمرتين من الوجع والإهانة دون إظهار .

* * *

بعد انتظار من الوقت دلفَ إلى الداخل سيد آخر ، كان « سعيد » يأمل فى حضرته الخير .

ومثلما جرى له مع حضرة الأول ، جرى مع هذا المندهش أمامه ، وسأله مثلما سأله سيده الأول . . فقال « من شورى » . . مد إليه بالكف الحامية فغدت عينى « سعيد » ورقبته الممدودة إلى قدميه ، وعلى بطء راح يجرجرهما إلى الوراء .

* * *

لم يعد للنفر المثخنين بالدهشة والحيرة والعجب وبالجوع والمهانة والتعب ، مكانًا عند ابن قريتهم « سعيد» ، فمضوا خارجين اتقاء مزيد الحرج والعقاب .

وحين ألمت بهم دوائر الكلام . . رأوا أن « سعيد » أراد أن يبدو فى عيونهم عارفا للرطانة بغير لغتهم ، ويبنى ذكرًا حسنًا بين

الجماعة . . غير أن الذى كان . . أظهر ما لم يكن له فى البال ، فليعنه الله على ما أصابه ، وليعنه على تحمل المتندرين بعد عودته من الحج ، ولتذهب « من شورى » مثلا لا يقدر « سعيد » أن يصَيِف عن حرقته .

٢٦ / ٦ / ١٩٩١ - جدة

أبو الحصين

ملأت شهرته كل أذن فى القرية وقالوا إن « عيّاف » رجل بصير ، فهو يقول القصائد فى المحافل ، ويفرى الجلود من بعد دبغها ، وشاهدوه مرارًا يسلّك بقدومه فى خشب « الغَرَب » ؛ فيصنع الصحون والمحّال .

وكان بعض رجال القرية ؛ حين تفضى أيديهم من العمل فى العصارى . . يقعدون معه أمام الباب فى ساحة الدار . . قليلون ويكيلون فى الكلام معه . . فحديثه لا يمل كما يقولون.

مرة يسقيهم القهوة ، ومرات تكون أم عياله فى شأن يشغلها . . فلا يشربون . غير أنهم هذه المرة جىء إليهم بالدلة المهيّلة ومعها صحن صغير ؛ عليه حبات قليلات من التمر ، ودارت فناجين القهوة وارتفعت إلى الأشداق بالأصابع حبات التمر ، وطاب الكلام لـ « عيّاف » .

* * *

قال ، إنه افتقد واحدة من دجاجاته مسيّة البارحة ، وألقى ببصر عينيه المزمومتين إلى الأرض ، وبرطَم شفتيه ، ولم يبد شاربه المجنح قليلاً فى هيئة مرضية ، ثم ما لبث أن هذب من تربيعة قعدته ، وحرك يمينه بكمّها العريض ، وألزم أصابع

الأخرى على مهل ذؤابة لحيته الجامدة القصيرة ، فبان أن هناك حديث سيقال . .

وقال . .

– يا جماعة الخير . . الدجاجة ذهبت فى فم « أبو الحصين» ، و« أبو الحصين » عدو لكل دجاجاتنا ، وإذا كان قد اقتنص دجاجتى اليوم ؛ فإنه يعرف الآن طريق دجاجات كل أهل القرية . قال واحد :

– يخسى « أبو الحصين » .

قال ثالث :

– لا والله . . ما حقه إلا الرصاص .

أشار « عيّاف » بهزة مقتضبة من يده ، و : كأنما يرغب فى الكلام فقال :

– هذا هو الكلام . . فيكم رجال ، لم يخرجوا إلى الوديان إلا ببنادقهم ، والبنادق ما صنعت إلا للرمى بالرصاص . . أقول لكم ، إن « أبو الحصين » فعل بخاطرى ما لم تفعله حَشيّة البندقية بدجاجتى ، وألهمنى الحسرة عليها فقلت : لا هنْت ياعياف ، جماعتك ما يضحك منهم الماكر . . والله لو قتلوه ورموه قدامك بلا روح . . لأعشيهم على ذبيحة من الغنم ، ولو أشتريها بقيمة عشرين دجاجة .

* * *

كان القوم فى ذيل الشتاء ، وكان البرد يجمع آخر أنفاسه فى الأيام . وكانت البطون تقْرَم لرائحة وطعم اللحم ، فاستيقظت النخوة التى سابقها اللعاب وجرى مع نطق اللسان :

– نجىء به ولو كان فى أبعد الديار .

ولما كانوا يتصيدون المناسبات لشىء ذى بال يهم الشأن ، أو بغير شىء . . ولما كانت البنادق تستثير أيدى حامليها . . كان فجر اليوم التالى يواجه انتشار نفر من الجماعة تفرقوا فى الوديان ، يدورون عن « أبى الحصين » ، (فأينك يا أبا الماكرين من طردتنا خلفك؟ وأين من يجرك كالخرقة قدام عيّاف ؟ وأين ساعة تتهيأ فيها حرقة بطوننا للشحم واللحم ؟!) .

* * *

حين بلغت الشمس مبلغ الضحى ، احتوت الآذان نقر رصاصة ملأت بصداها الوديان ، فتوقف الباقون عن البحث ، والتموا قرب مبعث الطلقة ، وقالوا لا يطلق بعدها طلقة . . فلو سمعنا « عياف » ظن أننا قتلنا أبا الحصين وعشيرته ، وهذا سيعفيه عن الوفاء بذبيحته التى وعدنا بها . . فهو يريد أبا الحصين الذى سفك دم دجاجته ليس غير . جاء ابن الحصين من ذيله ، وجرجره كجلد الذبيحة طول الطريق ، وعلى كتفه اليمين رفعت أنفها بندقيته الحامية ، وتقاطر النفر خلفه إلى دار

«عيّاف» ، صاح ابن فلان من حافة الساحة :

- اخرج يا عيّاف . . غريمك هامد فى يدى .

* * *

كانت الشمس التى تكاد أن تلج كبد السماء بعد الضحى ، تكشف كل خبايا الدنيا فى العيون ، وكان بيت « عيّاف » يحمى بنصاعة الضوء الذى أبان بناء حجريًا مرصوصًا رابضًا وسط ساحة تتقافز فى بساطها المحدود شجرات لوز قليلة متباعدة ، وبابا النافذة الوحيدان المطلان إلى الساحة ، والمنقوشان بتعاقب دقيق . . قد سطعا بلون القطران الأسود ، وكان مصراع الباب يختبىء بدرفته فى ظل فتحته داخل البيت .

فى جهار النهار القروى يسيح كل شغب وحركة فى الانشغال بالحلال والزرع . . غير أنه قد خرج على هيئة الخيبة المعبأة من لسان « عيّاف » وهو يندفع من الداخل بقدمين حافيتين وفم مفتوح ، ليقول ، دون أن يقصى عينيه عن أبى الحصين :

- هاه . . سلِمت عنايتك يا ابن فلان ، لكن « أبو الحصين » هذا . . ليس هو الذى أكل دجاجاتى ، هذا من وديان القرية المجاورة ، وما هو من وديان قريتنا ، وحسبك أنك فتكت بروح حيوان ليس له فى الأمر ذنبًا ولا تأنيبًا .

* * *

ألقى ابن فلان ببندقيته عن كتفه ، وأسندها على حجره ، حيث قعد على أصابع قدميه مهمهمًا : (فعلتها يا عيّاف) .

تناول بالالتفات والدهشة رفقاء ابن فلان ، وماثلوه فى القعدة وإهمال البنادق ، فتقاسموا صمتًا كالصخر رنا على الجميع .

أضمر ابن فلان ومن معه لـ « عيّاف » أمرًا ، وأدرك « عيّاف» أنهم لن يتيهوا فى لعبته ، فرأى أن يستحوذهم بلين الكلام فدعاهم إلى داخل البيت ، وسقى عطش لهاتهم بالقهوة المهّيلة ، ولا زال يلاطفهم فى هدوء ضغين ، ويتحسر على قوم ببنادق تحصد العشائر وقت اللزوم ؛ لم تقدر على صيد أبى الحصين الذى فتك بدجاجته .

كان ابن فلان ومن معه لا يتكلمون إلا القليل ، وكانت صدورهم تعج بالانتقام ، وكانت معرفتهم به وببصيرته واحتياله تهيبهم من فعل لا يعلمونه . ودّعوه وقاموا ، وكان أبو الحصين يشغر فاه ممدًا طرف ساحة الدار .

* * *

هبطوا بعد أيام إلى سوق القرى ، وعمدوا شيخًا عُرف بحل المتشابهات بين الناس . . حكوا له ما جرى لهم مع « عيّاف » ، وندت الحسرة والتشفى من حلوقهم ، وطلبوا منه حكمًا

يرضيهم ، وأكدوا على حفظ الأمر ، فوعدهم ، وألزمهم موعدًا بالمجىء إلى قريتهم .

و . . كان ما كان من أمر المجىء ، فاستقبل « عياف » الشيخ على خير السعة ، وقدم له ولابن فلان ومن معه القهوة المهيّلة والتمر . دار بعد دورة فناجين القهوة الحديث ، وأوضح لـ « عياف » الشيخ ما سمعه من جماعته ، وقال :

– . . واليوم ، إن كنت ممن يأخذون ويعطون فى الحق ، ولا ينقضون ما وعدوا به الموعودين . . فجهز سكينك وأرق دم ذبيحتك وقدّام كل عين تعلّق أبا الحصين على غصن تلك الشجرة فى ساحة دارك . . ساعتها ، نقول عياف كمّل وجمّل وأوفى بوعده قدام القاصى والدانى . . وصلى الله على محمد .

قال كل لسان حاضر : « صلى الله عليه وسلم » ، وأطبقت الأفواه مع استعداد المسامع لرد يأتى من « عيّاف » . . قال :

– جئت ، والله يحييك يا شيخنا ، والحق ما يرفضه إلا الجاهل ، ولكن أقول . . إذا كان ابن فلان ومن معه . . يؤكدون لى باليمين والحلفان . . إن « أبو الحصين » الذى صادوه ، هو بذاته الذى أكل دجاجتى . . فإنى أوفى بوعد دون تقصير وأطعمهم « مرقة » ولحم الذبيحة هذه الليلة . . وإلا ، كيف أقبل ؟!

* * *

حيثما التفت الشيخ على ابن فلان هذا ومن معه . . ورأى أنهم لا يقدرون على حلفان اليمين ، وليس هناك ما يستدلون به على أنه « أبو الحصين » الذى أكل دجاجة « عياف » . . قال ووجهه البالغ النقاء بالشعر الأبيض ، وعقال رأسه يكاد ينحدر من مؤخرة رأسه ، ويده اليمين تومئ بحركة تلاءمت مع قول اللسان :

يا عياف ، هذا تعجيز ، وفى التعجيز هروب ، وفى الهروب إدانة ، والإدانة عليك بنكران الحق .

اختلطت الأصوات ، وهاج وماج أخضرها بيابسها ، وضاقت ساحة المجلس بالهرج ، فطلب الشيخ منهم السكوت ، واستدر موافقة الطرفين على قبول حكمه ، والله على خير ما يقول معين . . فقال :

- اسمع يا عيّاف . . الليلة تعشينا على العيش والسمن ، ويسقط عنك ما لزمت به من وعد الذبيحة . . بعدها لا لك ، ولا عليك . . كيف ترى ؟

* * *

رأى « عيّاف » ، أنه قد بلغ السبيل المسدود ، وأن بعض الشر أهون من بعضه . . فالعيش والسمن ليس كتكلفة الذبيحة ، ومجىء الشيخ فى أمر كهذا ليس بالأمر الهين . . وماذا سيذاع

عنه فى القرى والقبائل ؛ وهو الذى تملأ بصيرته وطول ذراعه البعيد والقريب .. فقال بصوت يقين : .

« قبلت حكمك يا شيخنا .. الله يحييكم جميع » .

* * *

كان الليل القروى يهبط هادئًا نقيًا تخترقه نباحات متقطعة للكلاب ، وكانت بنادق القوم ترتكز على كعوبهم إلى جوارهم قرب جلستهم الملمومة حول صحن العشاء ، وقد راحت أفواههم تصطفق بلقم العيش اللينه مع السمن ، كانت تفوح منه لذاذة محببة .

أما « أبو الحصين » فكان ينتفخ على مهل طرف الساحة ففى الغد سيغدو مرتعًا لزرافات النمل والذباب .

١٢ / ٦ / ١٩٩١ – جدة

المستورة

وألقت بها النهارات ببياضها ، والليالى بسوادها ، بين صروف أحداث لم تكن مع الزمان تحسب لوقعها حسابا ، فنالت من بساطتها ، وفاضت شبعًا من مرارتها ؛ صفقت الكف بالكف ، وسالت من العين مثلما سالت من الأخرى ، مياه حارقة ، وغير ذات فائدة .

قالت النفس الراكدة فى تعب الدنيا : (وماذا بعد يا واهبة الحزن دمع العين ، وأنّة الصدر ؟ والله لا تفيدك الأحزان ، ولا ندب الليالى) .

كان القريب ؛ بالاسم قريبًا ، وكان الصديق فى الزائرات يمر بالعام .

* * *

حملت « رحمة » ابنها الرجل المريض ، سحبت عن شواربه هم الأطفال والزوجة ، وصاحبته من دار إلى دار ، ومن مستشفى إلى آخر ، وقالت : (أحمله على كُبر الأرض ، وبعد الأسفار . . يطيب ، يطيب ، ولو بعد حين بعيد) .

وكان المرض « الخبيث » يتفسخ بلؤم فى الجسد الطريح ، ولما حان الحين الذى لا يؤجل ؛ ودعته بقبلة أخيرة فى اللفافة

البيضاء ، ولم تجر خلفه فى الجنازة ، ولم تقعد باكية فوق القبر ، ولكنها كتمت ثم انهمرت غصبًا بين يدى زوجته والأطفال .

فتحت ذراعيها ونادت بيقين : (هلموا يا فراخ عمرى ، أخصكم من لقمتى ، وأرد عنكم البرد بكسوتى) .

ولمت إلى جانب أطفال ابنها الميت ؛ الزوجة الشابة ، فمنحتهم كل حب قلبها ، وكل عطف حناياها .

* * *

نما الأطفال ، فكبر الصبيان ، وقطفوا جهد دراستهم ، وكبرن البنات ، وكذا رأين ثمرة الدراسة ، وجاء يوم تخطو فيه المراحل ، وكانت « رحمة » تحفظ حتى قيمة البيضة وصغير النسيج الذى تقيمه وزوجة الابن بين أياديهن ، وفى غير تقتير ؛ يعيش الكل فى ستر وأمان .

(ماذا كتب عليك فى هذا الصباح المقتم يا رحمة ؟) .

كتب أن يعلن الأولاد نيتهم « نهارًا جهارًا » بأنهم لابد سيسافرون ! وإلى أين ؟!

إلى المدينة التى يضيع فيها الراعى والرعية ، إلى تلك الأماكن التي يقولون أنها كالوحش ، يأكل الآتى والذاهب ، ولكن لابد من السفر ، ففى السفر إلى المدينة تستكمل

الدراسة ، ويلقى الدارس فى آخر الرحلة ما كان من أجله درس فى الطفولة وفى الصبا .

مسحت « رحمة » بطنى كفيها ، كأنما تنفضهما من شىء عالق ، وعلقت : (خسرت يا رحمة . . تبقين مع زوجة ابنك ، تنشدين المسافر والقادم عن أحفادك ، فيقولون : فى الجامعة ؛ الأولاد والبنات ، للكل دراسته وحياته إلى يوم يتخرجون) .

* * *

دعت زوجة الابن أم زوجها ، وكانت تناديها بـ « أمى » ، إلى الغداء فامتنعت ، ولم يكن فى ذلك الامتناع ما يدعو إلى الخوف ، أو التعب ، فهى تأكل فى ذيل النهار وجبة خفيفة واحدة ، وتبقى تشرب القهوة المبهرة بالجنزبيل ، حتى لتكاد أن تحتقن .

قالت زوجة « المرحوم » ، وصرفت عينيها إلى شىء بعيد عن وجه الأم :

(كيف يا أمى ، تحملين الهم على الأولاد ؟ أنا قلبى يفيض بالغربة ، ولكن عينى تمتلئ بهم ، تتغير حياتنا ، ومن أحسن الناس نصبح بعد التعب والغربة وعذاب البعد . . قولى كيف لو أنهم لم يتعلموا ؟ ينفعون أنفسهم ، وينفعوننا ، وينفعون الناس) .

شربت « رحمة » آخر قطرة من الفنجان « الصينى » وحركته بوضع دائرى بين السبابة والوسطى ، ثم أدارت وجهها المحضون فى ثنايا « شيلة » سوداء خفيفة ، وابتسمت ابتسامة كانت زوجة الابن تتمناها منذ زمن بعيد ، وراحت تعدّل من قعدتها ، وتنظر بعينين فرحتين إلى الفضاء الواسع البعيد من خلال فتحة الباب المستطيل .

الدمام - ١٩٨٩

نوادر « أبو سالم » مع الحيوان

١ - الجراد

فى الأقوال المتداولة فى المجالس ، يؤكد أهل القرية أن « أبو سالم » لم يتعرض لأدنى خلل فى دماغه ، بل إن أحد المتحدثين قال إنه رأى بعينيه الثاقبتين . . – يصيبهم العمى إن كان كذبًا – رأى جلدة رأس « أبو سالم » عندما دعاه ليطلى رأسه بالماء والصابون ، ويشحذ « موساة » لحلاقته :

سليمة من أى أثر تعرضت له دون علم البقية .

فما له ؟! مرة بالذكاء ومرات فى الغباء .

* * *

دخل « أبو سالم » من باب البيت ، واهتز الباب الخشبى فى أذنى أمه العجوز ، وكانت تقعى من العجز فى ركن الدار ، وتلفّ حولها ما تستطيع من أغطية البرد والخلق ، فهى تستشعره حتى تحت دفء الشمس الصيفية .

سألته عن الفجيعة التى هبطت على وقت الغفلة فجعلته يندفع كما هبوب العاصفة ! أجاب وهو يقدم ساقيه نحو معلاق البندقية أن الجراد قد غزا المزارع ، وأنه يحل بعذوق الذرة ، يحيل بياضها إلى عراجين بلا حبوب ، وقد تلون كل أخضر بحمرته .

* * *

جمع الفلاحون عزائمهم ، وتبعثر أولادهم فى المزارع ينَفّرون الجراد ، ويصطادون منه فى الأكياس فيفيض ويتسرب من كل جانب ، وكانت السماء صافية ، والشمس تسيل فوق كل شىء دون بخل .

* * *

قعد « أبو سالم » على رءوس أصابع قدميه فى ركن أرضه الخضراء وعب بندقية الصيد وكمن يتهيأ بحذاقة لتصويب « قمرية » على غصن بعيد . . راح يصوب فوهة البندقية ، نحو عذوق الذرة . . ورمى ، فنفذ رصاص القنص ، وتعب كتفه اليمين . . بل كاد ينخلع ، وها هو يحارب جيوشًا لا تحصى . حين أدرك أن المقاتل فى العادة ، يستسلم حين يخونه السلاح . . رمى بالبندقية أرضًا ،قد سخنت ماسورتها ، واستهلكت ذخيرة الحزام المنضود على الوسط .

١٩ / ١٠ / ١٩٨٧ - الدمام

٢ - الثور

خلَّف الشتاء عُقب رحيله ؛ سيرة طويلة فى عظام أم « أبو سالم » ، وأضافت إلى دعائها الملح – بأن يأذن الله بهزيمة البرد – وقتًا سيطول تقتطعه إلى جانب موقد النار ، وقالت كعادتها . . إن شمس مؤخرة الشتاء وطلائع الربيع تكون باردة .

أما المساحات المحدودة بضيق ، والتى غالبًا ما كانت تحيط بالدور ، فقد نهضت من غيرتها وحولها نباتات خضراء ، وزهور صغيرة ، وأشواك لينة كثيرة ، وكانت تغذى الناظر إليها ببهجة ربيعية منشرحة تحت هطول الشمس بعد غياب طويل .

وكانت الأرض تهيئ أديمها الرطب لتُلقى البذور تحت سِنّة المحراث ، وقالت أم « أبو سالم » :

(يا ولد الخير . . دلَف فينا موسم البذور ، وامتلأت الآبار من مطر الشتاء ، واخضر كل عود يابس ، وتوفر علف المواشى . . فإننا نحتاج إلى ثور بسنام سمين ، وجهد فحول ، نجعله جرورًا للمحراث ، نزوعًا لماء الغرْب من البئر ، فاهبط سوق القُرى ، واستعن بالله ثم بخبرتك فى الشراء . . وفقك الله ، ودلّك على بغيتك) .

أخرجت من « شيلتها » عقدة مضمومة فأهملت رباطها ،

وفضتها عن آخر تجاعيدها .. ريالات معجونة تنفح الدفء والرطوبة وروائح العجوز التى لا تُخفى ، وأكدت أنها كانت تؤلفها من سابق الزمن ، و« تنشّ عنها الذباب » .

* * *

فاض وجه « أبو سالم » بالرضى ، وقبض على « دلدول » لحيته .. و«معطها » من الانفعال ، حتى اندلق معها نصف شفته السفلى ، وتلك لزمة الوعد بالتنفيذ .

* * *

جال فى سوق المواشى ، حك جلدة رأسه السليمة وفكر ثم قرت عيناه على ثور أحمر « تهامى » المولد والنشأة ، ساوم وقاوم فى الثمن غير أن البائع زاد من القيمة القائمة ثمنًا للرباط ول« خزام » الأذن ، ولم يمانع « أبو سالم » واستوثق من صاحبه طبع ثوره الذى لا ينطح ، ولا يرتخ ، ولا يعصى لآمره أمر المريد .

* * *

فرحت أم « أبو سالم » بالوافد الجديد ، وغزلت على سنامه وأذنه المثقوبة كلام المديح ، وقامت برغم برد عظامها ، ومسحت بيدها ذات الخاتمين الفضيين المنكسرى اللمعة ؛ على ظهر الثور . وكان « أبو سالم » يهيب بفراسته ، ويفتل شاربيه ، وكأنه هو الذى صاغ سنامه المائل .

* * *

أصبح صبح صبوح ، واقتاد « أبو سالم » من الرباط رقبة ثوره إلى الأرض ، فركّب عدة الحرث من أمام السنام ، إلى جانب حمارته الرمادية ، ورفع « عَرَقة » سوط الجلد داعيًا الثور نحو العمل ، فهز الثور ذؤابة ذيله وتقدم خطوتين ثم . . تسمّر كشجرة ضخمة ، نهره « أبو سالم » لم يزد خطوة ، مال على ظهره بوجع السوط فما تحرك سوى أن يؤرجح رأسه كما لو أنه يطرد ذبابًا .

أهمل مقبض المحراث ، وتقدم إلى رأس الثور ، وهو يشد بيده على عصا الفأس قائلاً فى عصبية جبلية :

(خيّرتك ، فاختر . .

تعمل مثلما أريد ، أو ترد لى دراهمى ، وإلا . .)

١٩ / ١٠ / ١٩٨٧ - الدمام

٣- الأرنب

لم تكن الأرانب على الغالب عند أهل القرية بمعروفة ، الصدفة النادرة فى الجبال البعيدة عن إقامة سكن الناس ، تقع فى طريق أحدهم ، فيعرفها بالوصف ، كان من أبلغ أوصافها ؛ أنها تشبه فى جسمها القط الكبير ، وفى شفتها العليا شفة الجمل ، وفى ذيلها ذيل الحمل ، وفى أذنيها أذنى الحمار ، وتقفز كالضفدعة ، أما إذا فاجأها الخطر فهى كالغزال النافر . وكان الكل يعلم علم اليقين ، أن الأرانب مثلها مثل القطط ، تحمل وتلد ، وترضع وتفطم .

* * *

السماء تكتنز بحشد متغضّن من الغيوم ، ونفثات الضباب كما يقولون : « لا تشوف طرف إيدك » ، ومع كل هذه الأسباب المدججة بطمسة نور بقايا النهار ، فقد كان وقت أذان المغرب يكاد يحين .

كان « أبو سالم » يريح « مسحاته » على كتفه اليمين ، ويجرجر قدميه عائدًا من الوادى إلى البيت ، وسيطوف بالطريق المحيطة بالقرية من جهتها الشامية ، ثم يلقى السلام على جماعة منتظرى حلول وقت المغرب ، يصلّون .. ثم يعودون إلى

بيوتهم للعشاء والنوم ، وكذا « أبو سالم » .

* * *

أشجار اللوز الجبلى تتوزع بلا انتظام فى المساحات أمام البيوت ، وفى الجهة الشامية - ربما لسبب أو لآخر - كانت هناك ، تنتصب منذ عشرات السنين :

تطرح ثمرتها ناقصة عامًا إثر آخر ، إذ كانت بجذوعها بنيّة اللون ، وكالقرفة المحروقة ، وبأغصانها الشائخة ، صالحة كمحطات للعصافير ، والحرباوات ، وبعض الحشرات ؛ لأن تقيم بها مساكنها .

* * *

ألقى « أبو سالم » بأغلظ الأيمان - وهو على وضوء - أنه لا يقول سوى الحق .

فقد مرقت قاطعةً طريقه . . أرنبة بيضاء تشبه قطة جارتهم الكبيرة ، وخلفما تتبّع أثرها إلى اللوزة ؛ عثر على عشها وبداخله بيضتان كبيرتان .

كان الجماعة يتذكرون بعض الأحاديث فى فضل العمل الصالح ، ولما دلق « أبو سالم » ما جرى له - بعد إلقاء السلام - كان وقت الأذان بالضبط يحين ، فأذن المؤذن ، وكان يحب النوادر « الأبا سالمية » حُبه للقهوة والتمر ، ولم يكن على صحة

من الأذان ، فقد كرر « الله أكبر » ست مرات دفعة واحدة ، وختم « لا إله إلا الله » مختلطة بدفعات هوائية تشبه العطس المكتوم ، مما دعا بالآخرين إلى الإفصاح بها على هيئة قهقهة واضحة لكل الآذان الصاغية لوقار الأذان .

١٩/ ١٠ / ١٩٨٧ – الدمام

٤ - العنز

للشاعر فى القرى مقام المحسود ، وله الموضع المذكور عند الصبايا وله مناعة القول ، وله فى شدة المناسبات حكم الفصل وطاعة القاضى . . فلم لا يكون « أبو سالم » شاعرًا ؟

ولم لا يفرط فى هذه الأمنية بين يدى الجماعة بين حين وحين ؟

* * *

قالوا ، نتسلى بإيهامه .

وقالوا ، علّها تصيب ، وعلها تخيب ، فإن « صابت » فما أسهلها علينا ، وإن خابت فما أصعبها عليه .

أشاروا عليه ، أن شياطين الشعر لا تأتى كل من يرغبها . . لكنها قد تجىء لمن يطارح وحدته معها فى الليل بقفرٍ بعيد عن المساكن ، على أن يذبح لها عنزة ، يمرّغ دعوته بدمها . . يخلع جميع ملابسه ويقعد إلى جانبها . . « عاريًا كما خلقه الله » .

* * *

تناطحت الظنون بخاطر « أبو سالم » ، ووازن بين الرغبة والمخاطرة ، وكان الخوف من جن الليالى المغدرة ينمو مع كل الأهالى منذ الطفولة ، وكذا نما مع « أبو سالم » إلى جانب عشقه للشاعرية .

غير أنه عزم ، وكان إذا عزم قبض على « دلدول » لحيته ، وجذبها بعنف بسيط حتى تنجذب انفرادة الشفة السفلى .

فاختار عنزة سوداء من بين القطيع ، وأركبها كتفيه . فتدلت أطرافها عن اليمين وعن الشمال ، وبدا رأسها بقرنيه وأذنيه الهاطلتين كالخرق الخاملة .

وعلى حين نوم الناس بعد صلاة العشاء ، وهب قدميه للفيافى البعيدة التى لا يحدها سوى شبح الجبال فى الظلام .

* * *

أنزل العنزة عن كتفيه على مهل ، وكأنه يسكب سمنًا من القربة ، لكن هدوء انسيال السمن فى القرب ، ليس كالزمامير النافرة من لسان العنزة وسط الفيافى فى الليل .

شحذ سكينه على حافة صخرة بارزة ، وفرك بحدّها رقبة العنزة فخرخر الدم ، وتدافعت أطرافها الأربع فى الفضاء الرحب طويلاً .

لم يفصل الرأس عن الجسد حتى استوى منتصبًا كالجذع ، وخلع ملابسه واحدة بعد واحدة . . ثم قعد متكئًا إلى الصخرة منتظرًا شياطين الشعر حتى الصباح .

* * *

علم الأهلون أن الغداء على ذبيحة عند « أبو سالم » ،

وقالت زوجته ، إنه جاء بها مذبوحة ، وتعب فى سلخ جلدها الذى برد على لحمها فى الليل ، وأن الحمى تهزّ أوصاله .

وكان « أبو سالم » يمضغ قطعة متجلدة من لحم العنز ، يتبلّعه كما الحنظل فى صمت جارح لا يعرف معناه إلا هو .

٧/ ٤ / ١٩٨٨ – الدمام

٥ - القطة

لم يكن السبب الذى جعل من هدوء أول الليل ،وتهيؤ كبير العائلة وصغيرها ، للعشاء المنتظر ، جديرًا بحاصل ما حصل .

فها إن « أبو سالم » يدفئ يديه المطهرتين بماء الوضوء .. على خفوت النار المتهالكة أمام قعدة جسده الملموم كالقبضة ، وإلى جانبيه : الزوجة التى هتكت طاقتها منذ صلاة العصر .. تعجن فى قدر متوسط أسود .. الطحين والماء والملح ، وتسوط بهراوة قصيرة عصيدة الذرة .

وثلاثة أولاد ، اثنان بزوجتيهما ، وكلاهما ينتظران مولودًا ، وبنت فى التاسعة .

* * *

كانت قطة رمادية هزيلة كالخرقة .. تموء ، وتلفّ بمكان الجمع ، وحينًا تهرهر ، وتسمح برأسها .. ثم بذيلها على ركبة القاعد. نهرتها زوجة الابن الكبير :

- هيا انقلعى .. ما تشبعين يا مسعورة ؟!

نظر « أبو سالم » إليها مؤنبًا بنظرته الرخوة :

- لا .. لا ، رزقها من رزقنا .

امتدت يد « سالم » إلى ذيلها ، وجذبها كأنما يشدّ دلوا

فارغًا ، فتشبثت بركبة أخيه ، وغرزت مخالبها الأمامية ، فصعق من الوجع .

* * *

حينما فزعت القطة . . كانت تلقى بخوفها وهشاشة عودها حيثما التجأت . . فى صحن العصيدة و « المرقة » ، وكانت « المرقة » تنضح ببخار حارق وتندلق . . وحيث أن «أبو سالم » قد هذّب لقمة أولية ، وحفف أطرافها ، وجعل حفرتها على هيئة فنجان القهوة الصغير ، ولم يُهيأ لها أن تغمس فى المرقة ، هزها بين أصابعه ، وقذف بها ، فجاءت دون عمد فى وجه زوجة الابن الصغير ، وكانت هى الأخرى تجهز لقمتها ، وظنت أن القذيفة اللينة تلك . . جاءت من يد الزوج ، ولسبب ما دحرجت لقمتها أمام يدها ، فوقعت مع الغضب فى جبين « سالم » .

* * *

قال الناس :

– عيال « أبو سالم » تحاذفوا بالعصيدة .

– « الله يكثر العيش » . . غدًا ينتقم منهم رب الأرزاق .

– « . . تحفرها أصغر الثيران ، وتطيح فيها أكبر الثيران » .

– « الله لا يضلنا » العقل نعمة . . حسدوا القطة . . فأكلت حتى انتفخت .

* * *

كانت القطط تحوم فى المناسبات حول دار « أبو سالم » ، ثم تنصب آذانها ، وتجرى كالريح ، فبعد ضحية عيد الحج ، جلس « أبو سالم » يقطع اللحم إلى فتافيت صغيرة ، تحفظ مع الملح والبهار الأسود ، بعد طبخها أدمًا لليالى الآتيات ، إذ امتد رأس القطة ، فاجتزّ « سالم » أنفها بحد السكين ، وقذف بها إلى الساحة .

يناير ١٩٩٠ – الدمام

من مجموعة

« أسفار السروى »

الإهداء

إلى ناهد . . الصمود والوفاء

عنترة بن رداد (*)

قال الراوى :

وكانا يمشيان فى وسط الشارع الأسود ، والشارع يخلو من أى هسيس ، والأنوار الجانبية تنثر ضوءها . . فتكشف كل ذرة على أرض الشارع .

كان عنترة يغنى . . يرفع عقيرته . . فتلعلع فى المبانى التى ارتفعت . . من اليمين ومن الشمال . . تصطدم القوافى مثل لمعان البرق بواجهات الزجاج ، وتسقط كما العصافير فوق الأسفلت . . وتحت قواعد العمارات الشامخة . يحمحم ، ويرفع عقيرته :

« فإذا ظُلمت فإن ظلمى باسل   مرّ مَذَاقتُهُ كطعم العلقم »

* * *

قال الراوى :

ضغط صاحب عنترة على مسبحة فسفورية كانت فى يده . . حتى كاد أن يعصرها . . التفت إلى عنترة ، وقال :

– يا ابن بنى عبس ، ، أتدرى أننا نمشى فى الشارع بعد منتصف الليل ؟!

(*) « ردّاد » : اسم شعبى .. يتردد كثيرًا .

رد عنترة وأنفه فى السماء :

- أنت من قبيلة لا تعرف الشجاعة ، ومُذْ عرفتك . . لم أَرَ فى يدك ، إلا هذه المسبحة .

فاغتاظ صاحب عنترة ، وقال :

- يا عِنترة ؛ هل تعرف ، أين تقع « سراة عبيدة »؟

أجابه عنترة ، غير مكترث :

لا تهمنى معرفتها !

* * *

قال الراوى :

ثم إن صاحب عنترة . . زاده بالسؤال ، وقال :

- أرأيت أنك تغفل معرفة قبائل العرب ؟! طيب . . قل لى . . هل تعرف قبيلة فلسطين ، أو قبيلة بيروت ، أو قبيلة موزمبيق ؟!

التفت إليه عنترة ، واللهب يقفز من عينيه ، وقال :

- هل جئت تخبرنى ؟!

أجاب صاحبه :

- معاذ الله يا بطل . . إنما أردت السؤال فقط .

فلم يجبه عنترة . . بل قذف بصوت كالرعد ، وأنشد :

« يخبرك من شهد الوقائع أننى   أغشى الوغى وأعف عند المغنم »

وما إن وصل عند : « عند المغنم » . . حتى جاءت سيارة عريضة ، وعلى سطحها قرون كثيرة ، طويلة ومدببة . . بعضها كالسهام ، وبعضها كقرون الصراصير .

وقفت بجانب الرصيف ، ونزل منها (رجل) بثياب مرقطة ، يتمنطق بمسدس ، وفى يده عصا قصيرة . . وفى رأسها نور أحمر ، ونادى بعنترة وصاحبه :

- يا ولد . . أنت ، وأنت يا ابن الأمة .

قال الراوى :

لم يأبه عنترة . . غير أن صاحبه اتجه ، إلى (الرجل) . . تاركًا عنترة خلفه يتأمل بفضول السيارة الواقفة قرب الرصيف ، وتقدم صاحب عنترة ، حتى وقف بين يدى (الرجل) ، حَنَى رأسه وقال :

- أمرك سيدى .

رفع الرجل عصاه ، وألقى بضربة مسعورة على رأسه .

صرخ صاحب عنترة ، من الوجع :

- آه يا سيدى . . ماذا فعلت ؟!

اجتذبت الصرخة عنترة . . فجاء مسرعًا . وضع يده اليمنى إلى جنبه الأيسر ؛ ليسل سيفه ، فلم يجد السيف ، وتطلع فى وجه (الرجل) بتحدٍّ ، وصاح به :

من أى قبيلة أنت ؟

أجابه (الرجل) ذو الثياب المرقطة .. بلسان كله استسخاف :

- نعم !!

ثم أضاف :

- كيف تسألنى يا ولد .. هاه .. من أنت ؟!

نظر عنترة ، وقد أشعلته بالغضب لفظة « ولد» فأنشد:

أنا الذى :

« فى حومة الحرب التى لا تشتكى غمراتها الأبطال ، غير تغمغم » .

ضحك (الرجل) وشفتاه تفضحان السخرية ، وردد :

- تغمغمى .. تغمعمو ، يا سلام .. ياسلام .. والله شاعر !

قال عنترة ، ووجهه ينفح بالغضب :

- اذهب إلى قبيلتك ، وقل لهم .. إن فارس بنى عبس ، لا يخاف نباح الكلاب .

* * *

قال الراوى :

فمد (الرجل) عصاه ، وهوى بها على رأس عنترة .. فآلمته ، لكنه صبر ، وسخر فى نفسه .. فأخرج رأس لسانه ،

وقال :

- طز .. ألأننى ، لا أحمل سيفى !!

فوجئ (الرجل) .. فتح عينيه ، فالتهمته الدهشة ، ونطق :

- الله الله .. سيف !

من سمح لك بحمل السيف فى الشارع ..

(ماتدرى وين أنت) ؟ وأضاف :

- (.. وعامل فيها بطل ! والله شىء !) .

واندفع ، مسلطًا عنفوانه وعصاه ، نحو عنترة وصاحبه . ولم يأبه عنترة ، بل اختطف العصا من يد (الرجل) .. نزل فى وسط الشارع ، وصاح :

هل من مبارز ، هل من مناجز ؟!

* * *

قال الراوى :

و .. بهدوء مشحون بالثقة .. أخرج (الرجل) المسدس من مخبئه ..

صوبه نحو صدر عنترة :

ثلاث طلقات متتالية ، فتركه ، يفرك بدمه جسد الإسفلت اللامع تحت الضوء .. ظانًا أنه قد مات .

غير أن عنترة صرخ :

(إنى قادم .. قادم ، لا أهاب الموت) .

وصراخه .. يهز كل جماد .

* * *

قال الراوى :

أما ، ما كان من أمر صاحب عنترة ، فقد بكى قلبه .. حتى تفجرت مسامه بالقهر .. ولم يحس بانفراط مسبحته ، إلا عندما انطلقت به السيارة كالريح .. فى الشارع الطويل .

أكتوبر ١٩٨٣ - الدمام

ابن السروى (*)

وكان فى العشرين من ذى القعدة . . سنة القحط أن حمل « عطية بن السروى » زعبة من قماش نظيف ، فى لفتها كسرة خبز من خبز البلاد ، وعددًا غير كثير من التمر الجاف .

وضع « الزعبة » فى اليمين ، وعلى كتفه . . ربضت بطانية مقلمة . ودَّع زوجته : (سُعْدى) ، واستودعها خيرًا فى العيال . . مضى وقت أذان الديك الأول ، وعزم بنيته السفر إلى مكة .

وكان أن دخل فى صحبة عشرة من الرجال / محلوقى الرءوس . . معممين ، ومحتزمين بأحزمة من الجلد عريضة . . تلزم الوسط ، وتحفظ بعض دراهم فضية .

ومشوا . . تحملهم الحكايات والسير . . حتى شكت أقدامهم وجع المشى .

صنعوا مجلسًا ظليلاً ، تحت سدرة تهطل بالفىء ، وكان بالقرب من السدرة مسيالٌ بخيل يُسرب الماء .

(*) « السروى » : قروى من الجنوب ، و « السراة » هى سلسلة الجبال الممتدة شرق البحر الأحمر .. إلى الجنوب .

فَردَ الكل « زعبته » . . وفرد (عطية بن السروى) « زعبته » التى حَوَتْ مثلما تحوى زُعبُ العشرة .

وجعلوا يأكلون ، وكان الوقت . . يبين فى ظل القامة ودخول صلاة الظهر . . توضأوا من ماء المسيال . . أذن « عطية ابن السروى » ، وأمَّ العشرة .

ما إن أقيمت الصلاة حتى قطعها مرور ثعبان ، قدّام القبلة . قالوا : لا تخفْ .

بعد وقت من قتله . . حملت الزعب ، ودقت فى القلوب نية المسير ولما اقترب زوال الشمس ، وانغمست فى المغيب :

انحدروا جهة جانبية من الطريق . . ودخلوا فى طريق متفرع ، فهبطوا واديًا ، على غبرته مسحة من خضار ، وعلى ضفته المقابلة : بيوت قليلة . . لون بنائها كلون الجبل المستندة إليه .

أذّن « عطية بن السروى » ، وصلى المغرب ، وسبح بعجلة ، وقام فى مكان غير الذى يجمع التفاتاتهم . قال : « عطية ابن السروى » :

نبيت عند أطراف بيت من هذه البيوت . . معنا التمر ، ومع بعضنا الحنطة . . أجمل المسافرين من جاء بزاده فى البلاد الغريبة . رأوا فى المشورة الصواب .

قال واحد :

يا جماعة الخير .. خير لنا أن نجعل صلاتنا جمعًا وقصرًا .

قالوا ، لا ندرى حتى يقول إمامنا .

قال « عطية بن السروى » :

الخيرة فيما يختاره الله ولو أخرّناها ما عوتبنا .. فنحن فى سفر قد يطول .

* * *

طرقوا باب أطرف بيت فى القرية .. وكان طرقهم يقرع بالهدوء والثقة : كمن ضمن حسن المبيت .

قالت امرأة من خلف الخشب :

مَن ؟!

قال (عطية بن السروى) :

مسافرون للحج .. اقتطعهم الليل ..

وزاد :

نحتاج للمبيت ، ومعنا العشاء .

وردت المرأة ، وفى شجن وجوع : أنا وحيدة ، وأخاف الرجال .

قال (عطية بن السروى) :

يا مخلوقة .. من قصد الحج ، تبرأ من الذنوب .. فلا ترجمين بالظن والغيب!

قالت المرأة :

ومن يضمن ؟!

أجاب :

بعد العشاء : تنعزلين فى مقصورتك ، ونحن نتوسد أذرعتنا . . وننام .

فتحت شق الباب : مسافة شعرة . . لملمتهم بنظرة ، ثم فتحت الشق كله . . ووقفت خلف الشق الثانى ، وكان لا يزال « ملحوجًا » .

سَلّموا بطيب السلام . . سألوها عن مرتكز الرحى . . أومأت إلى ركن البيت ، وتبرعت بطحن الحب .

* * *

بسطوا بطاطينهم ، وتمددوا من بعد العشاء ، عمته المرأة بلبن حامض ، وسمن عتيق .

* * *

قالت المرأة :

ويل نفسى من طول الليل .

وقال (عطية بن السروى) :

فى الصبح الأول ، قدامنا سفر طويل .

* * *

نام العشرة فى إعياء .. تغيب فيه طلقة الرصاصة .

* * *

قالت المرأة لوسواسها :

إلهى هب لى صبرًا .. كف عنى شر الكثير ، وامنحنى خير القليل .

قال (عطية بن السروى) لعينيه الساهرتين :

إلهى ، إنك ستغفر الذنب لعبدك الساهر .. إنك تعلم نفس عبدك ، وحيلة عبدك ، وضعف عبدك .. يا حنان .. كل أدران الخطايا يغسلها سعى الحج .

* * *

كان أن حمل الحديث نصف اليوم .. وجاء الظهر .. وقت أن توسطت الشمس كبد السماء .

تغامزوا .. والكل يظن بالآخر الظنون ، وآخرون لا يظنون ، ولا يتغامزون .

قال « عطية بن السروى » :

يا جماعة الخير ؛ لقد ذكرت الله كثيرًا ، والله يغفر الذنوب جميعًا .

قال واحد :

يا إمامنا ، المثل يقول .. « يا غريب كن أديب » .

قال « عطية بن السروى » :

المسافر كالرياح .. لا تعلق بالشجر .

قال واحد : انتفوا لحيتى إن كان حج « عطية بن السروى» .. سيصل الرب . قال « عطية بن السروى » :

لو علمت ، أن قولك سيصيب .. عدت إلى (سُغْدى) . قال واحد :

يقولون ، إن الرسول أكد على النية .. أن تكون صادقة ، أو تكون فى باطنها ما يستبطن . جاء صوت ثلاثة :

(الحج موسم رزق .. الواحد يطلع ، بطلعة إلى منى .. وينوى الحج ، يشغل بجهده ، ويحصل على الرزق من عرقه .. وكله : أجر ، وأجرة) .

* * *

مضت أيام ستة ، والرجال .. يهبطون الوديان ، ويصعدون الجبال .. وحين يأتى المغيب .. يلبّون : « لبيك اللهم لبيك ».

و ..

كان أن طلعت شمس اليوم السابع ، على (عطية بن السروى) وهو يهذى من ضربتها .

كان وجهه كالقرفة السمراء ، وأنفه كنصل السيف .

قالوا : لنشتر جديًا ، ونذبحه ، ونسقيه من مرقته .

طبخوا الجدى على أغصان شجرة جافة وشرب المحموم من المرقة ، زادت الحمى . .

قال : سأوصى .

قالوا . تفاءل خيرًا . . عمرك طويل .

قال : سأوصى .

قالوا : أوص .

قال : (إذا أخذتكم الأوجاع ، وتمكن منكم الضيق . . قوموا واصعدوا الجبل الذى تلقونه . . وغنوا لعل صوتكم يبلغ البلاد ، ويطوف بالأرض وسمائها .

أما (سُغدى) فإنى لا أخاف عليها . . هى كرجل .

أخرج من جيبه ورقة قديمة : مثل لون التراب . . بسطها أمامه ، انتفض . وقال :

اكتبوا ما بها فى صدوركم .

ردد بعض ما فيها بجهد :

« أنا من قرية عزلاء منسية

وكل رجالها . . فى الحقل والمحجر ،

أبى من أسرة المحراث لا من سادة نجب ،

وجدى كان فلاحًا بلا حسب ، ولا نسب » .

٢٨ سبتمبر ١٩٨٣ - الدمام

من السروى .. إلى شوق

عندما بلغ التعب من (السروى) مبلغ الألم . . تطلع إلى جهة الشارع المزخرف بالسيارات الفارهة ، وحملق بلا عناية فى أشجار مكتظة بالخضرة لا تفيد إلا فى المنظر ، ورآها كورق الطلح . . ورآها كورق السدر . . ورآها كحقل ذرة ، ورآها وديانًا من حبق ولوز ، تدخل الذاكرة فتصفح بالحنين . . وتفيض برغبة تجمح فى العودة إلى الديرة .

شتم بكلام مرٍّ حياة المدينة ، وتمنى لو يجلس مع صديق صباه ، (شوق) ويتذكّران حُب الحياة المولود من بطن قريته . وعندما بلغ الحنين من (السروى) مبلغ القصد من المراد ، عمد إلى صديق هندى يعمل بدكان فى الحارة ، فاشترى (فرخ ورق) .

أقفل باب غرفته القديمة . . وكتب :

كيف حالك يا شوق ؟

أل تزال كعادتك مع نفسك ترحل من سفر إلى سفر !

علمت أنك سئمت من العيش فى الغربة ، ولم أقع على عين السبب .

لا تحدثك نفسك بالسفر ، فالغربة فى المدينة أثخن من طعنة (الجنبيّة) .

لا تسافر . .

وبعد ؛

وصلتنى رسالتك ، وكانت تحمل طابعًا منقوشًا بنغمة . . حسبتها من تنهدات قهر العيش الذى تشتكيه فى بيتكم الطينى .

اسمح لى يا شوق لأتجرأ ، فأقول :

لم أصدق أنك لا تزال فى ذلك البيت ! وحسدتك . . كم أنت حبيب مخلص لبيتك العتيق .

صدّقت أن الزمان لا يقدر على تحويل الأرض إلى أيام وساعات ، وإن قدر على تحويل الإنسان .

شوق :

خبرنى كيف حال عمنا صابر . .

كيف حال العم (أبو جمعان) ؟

آخر ما علمته ، أنه اشترى حمارة صغيرة . . تحتاج لتدريب فى (المسراح والمراح) . . بعد أن حزن على موت حمارته الرمادية العجوز :

أطمئنك بأن الخبر أعطانى الدليل على استمرار العم (أبو جمعان) فى حبه لخبزة الذرة فى الصباح ، وأُدم (البُلْسُن) فى العشاء .

صدقنى ، إن الألم الذى أعيشه الآن فى المدينة ليس إلا انتفاخا من قذارتها .

يا شوق :

كم تبلغ مساحة قلبك ، بعد هجرة آمالك من أعالى فروع الطلح !!؟ أتعلم أن الصراع لا يزال عنيفًا ، وأن الرفض لا يزال ؟! أرجو أن تحمل تلك الآمال الرائعة فيك ، وتعلقها على مشارف قرى القلب المسكونة بالانتظار .

لا تعجب يا صديقى . . فقد سألت عن مساحة قلبك لأنى أعرف مدى تقبله لخواطر صمتى .

يا رفيق انتظارى البعيد :

يكفيك ما تعلمته فى المدرسة . . فهذا يبقيك على الثبات فى أرض ديرتنا . . ليس كل من تَعَلَّمَ بصالح للوظيفة فى المدينة .

شوق . . أنيس هجرة الظمأ . .

أرجو الكتابة إلىّ ، ولا تَنس أن تُطَمئننى على حال العم (أبو جمعان) ، مع أننى سافرتُ وحاله ميسور .

قل له :

إن البحر لا يزال يورِّد القمح الأمريكى ، وإن الشعير الذى يزرعه ويسقيه . . أعلى لذة من حنطة البحر .

سألتك أن تخبره بأن يكتنز (جنبيّته) التى لا يخلعها وقت النوم ، فى كيس الذرة . . وأن يبيت حدها داخل حَذَرِهِ . .

فالنوم فى هذا الزمان حرب باردة ، لعله لم يستدركها بعد !

تحياتى وسلامى لك .

تحياتى وسلامى لعمنا صابر .

تحياتى وسلامى للعم (أبو جمعان) ، والسلام .

طوى السروىّ (فرخ الورق) .. مد طرف لسانه ليلزق الظرف .. وبقلبه كلام كثير عن حبه للأشجار والناس ، والطين .

٩/ ٧/ ١٩٨٢ – الدمام

الفراشة التى انهزمت

قال الطفل ذو الحذاء الجديد ، للطفلة القادمة مع الأطفال :
(ارجعى ، وإلا . . رجمتك بالحجارة) .

اختصرت كثيرا من خطواتها . . سبقها الأطفال إلى البقّال .
نظر الطفل ذو الحذاء الجديد إلى الخلف ، ولمحها : تضع خطوة قصيرة إلى الأمام . . ثم تقف مدّة خطوة ، وتنظر إليه من بعيد . . بخوف وتحدٍّ ، وانهزام .

* * *

نظرت الطفلة إلى رءوس أصابع قدميها . . كانت تحسب مدّة الخطوات القادمة . . وفجأة رأت حجرًا صغيرًا ، يهرول على مهل أمامها !

قال الطفل ذو الحذاء الجديد :
(ارجعى . . ما عندك فلوس) .

* * *

عضت الطفلة على رأس سبابتها ، بقليل من الغضب . . ساحت على ظفرها دفقة لزجة من اللعاب .

استنشقت السائل المتهدل من أنفها . . بصوت يشبه حفيف أوراق الشجر . . فقالت بصوت متردد :

(ما أبغى فلوس .. ما أبغى أشترى .. أبغى حلاوة) .

كان الأطفال الباقون ، قد تجمعوا كأصابع طفل ، أمام باب البقالة .. لحق بهم الطفل ذو الحذاء الجديد .. زاحمهم .. فرقهم بقوة سرعته ، ثم التفت إلى الخلف البعيد ، وصاح بالطفلة : (لو دخلتى .. ضربتك ، ضربتك .. ضربتك ، هيا ارجعى) .

* * *

عندما تجمع الأطفال ، حول طاولة الحلوى .. بأشكالها الزاهية ، أطلت الطفلة من الباب برأسها المنكوش كالفراشة ، وتسللت منها عبارة صغيرة .. لدنة كحجم شفتها السفلى : (ما أبغى تعطونى شيء .. أبغى أقعد معكم) .

تضاحك الأطفال .. جميعهم صنعوا ضحكة واحدة .. محشوة بالسخرية ، وبالتهديد ، وبالخوف .

أشاروا إلى الطفل ذى الحذاء الجديد .. أن يتصرف .

* * *

كان الخوف يركض بقسوة داخل قلب الطفلة .. وكانت هناك حرقة دافقة ، وطافحة بالفزع ، وتمددت إلى قدميها . كانت تجرى ، كنسمة مبعثرة دون أن تلتفت .

اختفت خلف سيارة فخمة .. لم تكن الحجارة الصغيرة

تتوقف .. كانت تنسج وقعًا يتناثر على طول الطريق العائدة منها .

أعلن المؤذن لصلاة العصر .. كان صرير باب البقالة ، الذى يشبه ستارة من حديد .. يملأ كل الآذان الصغيرة الواقفة .

* * *

اطمأنت الطفلة ، أن البقال يقفل على كل أشكال الحلوى .. ولايقبل الفلوس ، إلا بعد انتهاء الصلاة .

وقفت .. كنبتة طرية تهزها الرياح .

التفتت ، ولم تر أحدا .

واختفت بين زحام السيارات فى الشارع الموازى .

١٨/٢/١٩٨٢ – الدمام

الأبواب

قدمان تسكنان بخشونة « حذاء بلاستيك » أخضر وطرى . . وجلد مطاطى من بطن عجلات السيارات يغلف الحذاء ، ويقيه جراح الأرض .

خيط يلتف حول أسفل الساق . . يتدلى منه طرف ، يعصم الجرح الذى يندى بالقيح . . أبى أن يطيب .

يبحث (على) . . اللف طويل ، والتفتيش أبعد . . أمامه أشجار اللوز ، وخلفه أنهار يجف ماؤها فى الصيف ، يعلو الصخور الملساء التى تعترض مجراه فى الشتاء . . يحسها فى يده ملساء ناعمة . . تصلح لدق أصابع تعودت اللطم والجلد واللمسة الخبيثة .

عينان كبحيرتين من حلم وشاربان متراخيان ، ذراعان يطوقان البسمة المضيئة .

أصبحت رجلاً . . رجل . . نعم رجل !) .

يعصر دفاتره المصبوغة بكفه الرطبة . . يترك على أغلفتها بصمات الرشح والعرق . . يصعد الجبل الأجرد كل صباح ، وكل مساء . . فى الجيب كسرة خبز ، أو حبات تمر تسيح بالبريق ملفوفة بورقة .

يحلم (على) بقطف العناقيد . . ليست عنبًا ، وليست شوكًا . . وإن « باح العنب يا سروى فاقضم العود » .

تقول جدته :

حلم خير . . أحلامكم بأعلامكم . . قدامك طريقان ؛ واحدة بعيدة ، لو مشيت فيها تصل عين الشمس وتغترف من نورها . . تملأ جيوبك حتى تفيض وتملأ يديك وفمك . . تَتَلهّف لتوزعها على كل الفقراء والبلهاء والشرفاء .

تعود وكلك نور . . صوتك سنابل مكتنزة ، وأزهار تفوح كما عطر الجنة . . الطريق طويل . . به أشواك وطلح وجبال .

وواحدة ، قدامك مفتوحة . . لا تروح فى الشمال ولا فى الجنوب . . تمسك يمينك . . وتمشى ، فى وجهك جبل أسود كبير يسد النظر من المشرق إلى المغرب .

توصيه . . تقرص فخذه الصغير :

الرجال يصبرون على ضرب الرصاص . . اختر طريقك واستعن بالله .

الرمل ينادى ، والجبال والنخيل . . شجر اللوز والمبانى العتيقة ، والمعذبون فى الأسفار .

شواطئ البحر ، وأيام الحب القديم . . تنادى :

اصبر . . اصبر يا (على) .

ويذهب :

يجتر أتعابه فى الداخل .. ويجتر أتعابه فى الخارج .. تركض فى عروقه النجوم فتضىء ليل وحدته الطويل .. الطويل .

ويذهب :

(أصغ إلى الزمن كيف ضجيجه .. بسمل وحوقل وابصق على نماردة الأرض .. عد الدقائق ، ساعة كسنة .. ماذا قال الراكب على ظهر حمارته حين عاد من السوق ؟!

ماذا قال .. ماذا قال المقوّل :

تغير الزمان ، ابتعد القريب ، واقترب البعيد ، وتكلم الحديد) . تكلم الحديد .. لم يكن له صوت كالرنين .. ولا كالجلجلة ، ولا ككسل الماء المتهدم بين الصخور .. كلام الحديد يدخل فى العظم ويعصر النجوم السارية فى العروق .

* * *

تزحف جدران أربعة ، وتضيق .. تضيق ، يمد (على) قدميه يردعهما جداران .. يفرد ذراعيه يردعهما جداران ، ويفرد رقبته للوراء .. يردع رأسه جدار .

وتمشى على رءوس العظماء أحذية الخنازير .

يذكر وصية جدته .. قرصتها الحنونة .. يهز قلبه نور ..

تدخل صورة امرأة جميلة باب القلب .. تبزغ كنخلة تشهق فى زرقة السماء .. تركض بين كثيب وكثيب .. تفتش عن الماء لتمنح الناس الرطب . يأتى صوت (على) محملاً بوهج الشوق :

يا « مارية » ..

يا بنت الرمل ، احنى جذعك الفارع وامنحينا بعض الظل من ظل جدائلك . تركض ، وتنتشر جدائلها تحت صحن الشمس .. تنثرها بسخاء فى هواء الأرض . لا تضع خطوة إلا وتغمس فى ثناياها لحظة حب عارمة .

من أطراف الأصابع تلج .. تعبر إلى النبض .. تنام مفتوحة العينين .. بوابتين من حنو وأمل :

فوج يدخل من عين ، وفوج يخرج من عين .

يا « مارية » ..

وتعصر شفتا « مارية » .. ينساب الرحيق ، وينساب الدم ، وتنساب أغانى الصباح .

يتذكر (على) الصبح بألوانه الفرحة فيغنى :

« يا نسيم الصباح

سلّم على باهى الخد

نبهه من منامه ..

ليل دان . . » .

ويذهب :

اصح يا حلمى الجميل . . فشفتاك تعتصران . . أصحى يا نخلة الفقراء . . لا تنأى . . لا تنأى فى البعيد .

* * *

حذاء لدن أخضر مغلف بمطاط . . الثوب قصير بلون التراب ؛ على الكمين بريق ناشف من مسح الأنف . . ثابت كالشّن ، ودائرة مرتقة مكان الجلوس من الخلف ، وفى ظهر الكف اليمنى تغور خطوط حمراء من شوك « العقّش » .

فى الظهيرة تخرج الثعابين . . تسكن الحركة . تبقى حمير الظهيرة تهطل لآذانها وتصمت لصوت حجر يصطك بقدم ماش فى الطريق . . أو لهبوب رياح بالأنواء تبعثر بفوضاها هدوء الأوراق فى الأغصان .

يتلمس (على) خطوط وجهه . . يتعرفها و . .

يذهب :

وجه الأرض يتغير لكنها لاتقدم . الأرض هى الأرض . . أيقدم عزم الإنسان بين غضون الوجه وشحوب اليدين المسبلتين ؟!

ويذهب :

الآن تجتمع الهموم كثيرة . . بعضها يفترس الكفين أرضًا لطلع جديد . . بعضها يهمس فى الخلوة :

يا أرض ماذا صنعت بك ، وبماذا أضجرتك ؟!

اشهدى علىّ أنى أصعدتك لأفكّك من السبى . . أحملك على كتفى وأمشى بك الزمان .

ويذهب :

ويل لى لأنى صرت ثمرة لوز تشتهيها نفسى . . فتضيع بين الزرع فى مدرجات الجبال ، وبين خفق القلب الراكض خلف وجع الإنسان .

ويذهب :

إذا سقطت أقوام . .

إذا جلست فى الظلمة فتاريخ الثابتين يضىء لى . .

أحتمل الغضب

أحفظ الفرائض ،

ويذهب . . ويذهب

تذهب صرخة مكتومة فى الليل لا تلفظها الأبواب .

٢٢ أكتوبر ١٩٨٣ - الدمام

يصلكم مع حامل الرسالة

الحياة على الرصيف نشطة إلى حد أن السكون يفشل فى بسط هدوئه على البلاطات الرمادية .

الليلة ليست يتيمة دهرها فليال شبه متناضدة تحتويه فوق الرصيف . . الحياة فوق الرصيف كانت أكمل نشاطًا ربما لأن خطو الأقدام المتواصل على البلاطات أوشك أن يكون قليلاً . .

أن يكون بطيئًا .

وأن يكون خفيفًا .

* * *

اقتعد مكانه المألوف ، قرب عمود النور . . ذى الذراعين الممتدين ، ثم أملى على رفيقه الذى حنى رأسه نحو الورقة البيضاء المفرودة فوق ركبته اليمنى . . وراح يرصد بعينيه ذبذبة القلم بين أصابعه المرتجفة . أملى عليه . . بلهجة يمانية . . فيها كثير من تكلف اللغة .

« وسلامى إلى الوالدة الحنون ، وإلى الأخ مرشد وحرمه ، وإلى عمتى رفعة وأولادها . . وسلامى إلى أختى حجة ، وشقيقى العزيز حميد ، وأنا إن شاء الله ، فى أول شهر الفطر الثانى ، أكون عندكم .

يصلكم مبلغ ستمائة ريال سعودى ، مع حامل الرسالة ، وأرجو منكم . . المعذرة يا والدى العزيز ، لأن الشغل هذى الأيام قليل والشغالين الأجانب . . كثروا فى البلد واحنا . . لا نعرف الإنجليزى . . ولكن يا والدى العزيز . . نرجو منكم . . الدعوات الصالحة .

والسلام ختام »

* * *

سأسلمك ستمائة ريال ، فى العُزبة . . عند عودتنا للسكن . . وداعة ، تسلمها بيد الوالد . . مناولة . . تعانقه أربعًا . . فى خديه ، وجبينه ، وفى رأس أنفه .

* * *

كنت حذرًا . . حذرًا . . حذرًا . . كنت أفرغ كل شحنات حدسى لألتقط الحديث ، دون أن يشعرا بحضورى .

وكنت ممتلئًا بالحنين . . إلى حدود البكاء . . امتد بصرى فى حقل متلألئ . . فى أضواء العواميد والسيارات ، وانكسارات الشعاع . . التى هطلت بحرارة .

١/ ٢/ ١٩٨٢ - الدمام

الغائب

قال سعيد بن حسين : سأسافر ، كما يسافر الناس ، يلتقطون زرقهم ويبحثون عن قوت يعيش أولادهم .

ولما سألته جماعته عن سفر لا يعرف مغبته قال :

يا جماعة الخير ، ألم تروا قول الأيام « سافر ففى الأسفار خمس فوائد » ؟ الزمان لم يعد بذاك الزمان ، والسفر غير ذاك الزمان . . فى الأسفار فوائد ، ربما تجاوزت الخمس . ياجماعة الخير ، سأسافر .

* * *

سفرى تعرفون إلى أين . . وأنا أنوى البعد ، فلعل فى البعد فائدة حين أوكل على الله نية التوجه . . حمل على جمله مئونات السفر من احتياجات الغذاء والشراب وقال :

يا رب لقد أوكلتك سرّ العين ، وخير ما تأمله غائبة ، وأوكلتك غيب ما ألقاه فى سفرى ، فالقنى خير ما تكتبه . وشد على جمله الرحال ، ثم نوى .

* * *

أسر إلى بعض مُزامليه :

إنى أعرف طريقًا غير التى تعرفونها ، فاتبعونى .

ولما اشتد بعض حديث الذين كانوا معه :

أنت وحيد .. فلا تمش فى الطريق التى لا تصحب معها أحدا .

قال : لكم طريق ولى طريق ، فدعونى أختر طريقى .

قالوا : يا سعيد .. هذه قفرة فلا تَخْلُ بنفسك .

قال ، وقد علا بنفسه بعض من العزة :

يا قومى ، لى فى كثير من ضرب الفيافى خبرة ، فدعونى أختبر خبرتى . وأوكل إلى زوجته وأخته أن يتزودا بالماء كما الذين يركبون جفاف الصحارى .

* * *

كان سعيد بن حسين قد امتلأت رجلاه بالورم ، وأوهن جسمه التعب .. ولم يكن بعيدًا عن الحس أنه ابتعد عن مسير الطريق ، غير أنه حاور نفسه :

- للزجل كلمة ، فامض فى طريقك يا سعيد .. هذا سفر ، والسفر يبدأ بخطوة .. فلا تشتك .

* * *

دنا آخر اليوم الثانى ، وسعيد يبعثر تخميناته على طرق لا يدرك نهايتها : مرة جهة الشرق ، ومرة جهة الغرب ، ومرة يهتدى بروث القوافل . ولمّا أحس فى طريقه البعد ، التفت إلى

زوجته وأخته التفاتة الحائر ، وقال بصوت تلفه حرقة الندمان :

- « يا أهلى . . ألا ترون أن طريقنا طال ولم نر لأثر القرب علامة ؟ » .

قالت زوجته :

- « أدركت رأسك يا سعيد ، وتوسمت فى ذاتك الخبرة . . إلى أين تضيع بنا لتأكلنا الذئاب ؟ . . أنسيت أن المقوّل قد أوصى بالرفيق قبل الطريق . . فأين منك الرفيق ، وأين الطريق » ؟!

ارتعد الرد على لسانه :

- « يا امرأة . . حدود خبرتك لاتتعدى بيتك والمزرعة ، ما علمك بالطريق ؟ . . إنْ كنت قد أخطأتها فإن الله لا يضيع جهد من اتكل عليه » .

وأمر جمله الذى يتزود من شحم سنامه أن ينهض جهة ضرب فى خطّها طريقه .

* * *

تساءل أهل جماعته حين لم يجدوا سعيدًا يقابلهم فى محطة النخيل :

- « رفيقنا لم يصل على وعد المسافر من بلادنا إلى هنا ، لعله أخطأ الدرب . . لاتخترع الحجج . . فالغائب حجته معه » .

* * *

انصهر الناس فى تحصيل ثمن النقل ، ومضت أيام تزيد عن الشهرين ، وسعيد يضرب الفيافى .. يفترش الرحل ، ويتدثر بالظلام . حتى جاء على نهاية زاده ، فعض الجوع بطن أخته ، وعصر حيلها ، فهوت كما زوجته ، ولم يجد سعيد من القوة مايحمله إلى دفنها .

تيممّ .. مسح بباطن كفيه على وجنتين غائرتين ، وأطلق إلى الصمد دعوة المستجير ، فما بلغ نهاية الدعوة حتى لحق بزوجته وأخته .

* * *

عاد جماعة سعيد بجمال موقرة بالتمر ، وأسندوا الأحمال على أركان البيوت ، ولما استيقنوا بعد وقت من عدم عودة سعيد .. نادى المنادى لصلاة الغائب ، فصلت الجماعة ، ودعت الله أن يجزى من يشذ عن جماعته فى غير صواب ، جزاءً مناسبًا .

١٤ فبراير ١٩٨٥

حمدان يسأل

علم الوالد ، أن الجهالة مرتبطة بقلب الولد .. فتوكل على الرب ، وساق خلفه مع أيام النشأة عصا التأديب .

جاء الصبا ، فاشتد عود الولد ، وجاء المشيب .. فقسى عود الوالد ، وشاخت أغصان يديه ، وألقى بعصا التأديب حطبة فى نار الموقد .. اشتعلت فجمَّرت فترمدت .. وقال الوالد :

يا ولدى ، املأ أذنيك بحكمة الشيوخ .. لا تنحرف بقلبك عن معرفة الكبير ، هذا الوقت يضيع فيه الجمل من الجمّال .. زمان لم يعهده تاريخ الأرض ، جدك ما حكى لنا من غرائب الزمان على عهد أجداده مثلما حان به زماننا .

* * *

نقش الولد على تأملاته نوايا السفر ، جاهد مع خاطره فى وزن الأمور بالعدل .. قال :

(لو تمنيت خبزة الفقير فى شوارع المدينة ما تفضل بها علىّ متصدق .. الشغل فى المدينة كالجهاد .. فإن جاهدت يا حمدان وإلا سُحب فراشك من تحت جنبك) .

* * *

ما كان الوالد ليكتنز النصيحة بعد اليوم ، وحيث جمعت

قهوة الصبح كل العائلة ، وتناثرت نظرات الأم والأخوات والإخوة فوق ثياب حمدان النظيفة ، والتمعت بعض أحداقها . . امتص الوالد من فنجان «الصينى» رشفة قهوة ، فارتدّت نظرات ، وسكنت نظرات ، وهاجت بالطفح نظرات .

ربّتَ الأب الوالد على كتف الولد . . فحنى الولد رأسه نحو الأرض ، وزاد بالوصية الأب :

إذا قعدت مع متخم للأكل فلا تنظر إلى أطايبه ، واجعل لحنجرتك سكينًا إن أوجست فى نيتك الشراهة . . وجُه قلبك وأذنيك إلى المعرفة ، ولا تحسد الجاهل بغناه ، فالله يحب الفقراء لا الأغنياء والكسالى . .

احفظ عنى القول . .

أشرار المدينة كثير ، وأخطارها أوبق من الآثام . . السيارات من حديد ، والحديد عدو اللحم ، فاحذر سرعتها ومرورها ، ولا تبت بمقهى إلا وأنت خالص النفس مع روحك ، فروح المسلم معلقة بين النية والعمل .

ياحمدان . .

إنى أحذرك من مزاملة الأشرار . .

إنى أحذرك من مرافقة الجاهلين . .

وقد ودعتك الله فتوكل عليه .

* * *

قالت الأم للأب ، وفى قلبها بدايات حزن جديد :

يا مخلوق .. إن كنت قد حفظت الوصايا ، فلا تُمل بها على ولدك .. حمدان أصبح رجلًا ، والرجال لا يوصون بوصاياك التى لا تصلح لمسافر من دار الحجر والطين إلى بيوت الأسمنت والرخام .

ضاق الوالد بالكلام ، وثَبَّتَ على لسانه حكمة الأجداد : « نسوان قليلات العقل والدين » .

أطفأ حمدان شعلة الكلام .. (فالأب يحب الخير ويهدى بالوصية ، والأم تحب قلبها الذى سيسافر مع الابن) ، الإخوة والأخوات يفهمون ولا يفهمون ، وموسم الوصايا الكبيرة لم يحن مع أعمارهم .

* * *

جاءت الأم ببعض دراهم مبرومة ، ومغلفة بعطور صندوق الملابس .. دفنتها فى جيب الصدر مع دراهم الأب ، غرزت المشبك المعدنى ليحفظ الكنز فوق قلب حمدان .

أما وداع الأبوين .. فكان يحفر فى النبض حرقة الفراق .. لكنه قال ، الرجال يتغربون لطلب الرزق ، وأنا رجل .

* * *

(يا ديرتى مالك علىّ لوم ، ابعثى إلىّ بنسمة من صبحك

المندَّى بالحبق والطين) .

تحسّس حمدان ذراعه .. ورأى نقش جدائل السرير مرسومة بالقنب على طول الساعد .. أبواق السيارات تنفذ إلى رأسه بهمجية .

استل حزامه الذى يجمع كل أجرة أيام عمله من تحت جنبه ، طوق خاصرته ، ووقف كأطول (شيشة جراك) بالمقهى .

« يا حمدان ..

إنى أحذرك من مزاملة الأشرار ..

إنى أحذرك من مرافقة الجاهلين .. »

وما أحوجك يا حمدان إلى زميل ، وما أحوجك يا حمدان لأى رفيق .. وما أحوج الغريب إلى غريب .

لما مرقت حكمة العامل المصرى بذهنه ، وهو يضع على كتفه قالب الثلج : « صديقك فى الغربة فلوسك » .. استوعب القول ، وردد :

الفلوس ..

الفلوس .. لا تشترى صديقًا !

وحين تمددت القيلولة كالهواء المشتعل .. مدد حمدان جسده بدون عناية تحت شجرة ظليلة على الرصيف ، ورأى

الأطفال حوله يرمونه بأغطية قوارير الشراب المثلج ، ورأى السيارات تحوم فوق رأسه .

نهض .. نفض ما يغطى مما تحت الحزام من ثوبه الرمادى القصير ، قال :

أتغدى « كبسة رز » وأمنح نفسى فسحة بعد الغداء .. وعزم .

قال :

قدماى تحملانى ، وأنا أحمل جولاتى فى الشوارع بالفرجة .

وقال :

(أشبع نظرك بواجهات الزجاج ، فإنك تغشم يا حمدان) .

لما كان الزجاج يعكس القامة الشابة بهيئتها القروية .. هذّب حمدان أطراف عمامته ، وأحسن لفتها .

ولما كان الزجاج يحمى وراءه العطور والأجهزة والملابس الملونة ، وأشياء لا يعرفها .. قال :

(يا أبى .. هل أجعل لحنجرتى سكينًا .. أم أجعل السكين لعينى) ؟!

لمن الشقاوة .. لمن الجروح .. لمن الكرب .. لمن السكين ؟! .. يا رب ، وما زاملنا الأشرار ..

ما رافقنا الجاهلين . .

ما عصيناك ، وما سرقنا ولا كسلنا . .

فامنحنا الرزق على قدر استقامتنا . . أو انقص منه قليلاً .

* * *

مسكنه بالمقهى ، كان قد فلت من ذاكرته ، والذين يسألهم عن مقهى « السبيل » يقولون : (من هنا) .

وأين هنا ، من هنا يا حمدان ؟!

تعلق بحافلة . . نادى سمسارها :

« السبيل . .

السبيل . . »

٢٣ يونيو ١٩٨٤ - الدمام

خَطَط « ابن عوض »

يشاء أن يطرق الباب .. طرقًا يوقظ النائم فى عز الليل ، فتسمع (صالحة) الخبط على خشب الباب .. تدفع عن وجهها بالكساء ، فتسمع يقينًا الصوت من خلف الباب :

- يا أهل البيت ..

تقول لزوجها .. كاشفة عن وجهه الكساء .

- اصح ، بالباب طارق يلح .

يقول الزوج :

- من « يتضيّف » فى وقتٍ سافر فيه الرجال ! استعنت بالله . ينهض وتنهض (صالحة) .

ولما انفرج الباب بعد صرير .. داهم الطارق بوجهه الأمرد لحية (سعدان) وأكثر من القبل وكرر السلام حتى استطاب ردود السلام ، قال (سعدان) :

- حياك الله .. ادخل ، ولا تتعثر فالنور شحيح .

وقال الضيف :

- الله يبقيك .. الظلام هو ظلام القبر ، وصاحب المثل يقول «قابل ضيفك ولا تعشيه» .

رقص الكرم بقلب (سعدان) ، حاور نخوته قليلاً .. ورأى

أن الواجب يدعوه ليأمر (صالحة) . . تخرج السمن المكنوز ، وعلى قدر شخص واحد تصنع قرص خبز .

* * *

قال (الضيف) من عقب العشاء :

- تغير الزمان يا صاحبى . . وقفت على أبواب ثلاثة بقريتكم ، ولم يجب على طرقى مخلوق .

قال (سعدان) :

- الرجال مسافرون للحج ، والدور خالية إلا من الحريم والعيال . وسأله :

- من أين ، وإلى أين يا ضيف ؟

فأجاب :

- أنا عبد الله بن عود . . تاجر من أطراف الأرض . . أسافر من أقصاها إلى أدناها ومن أدناها إلى أقصاها . . أحل بأهل الكرم فى القرى التى تعترض طريقى . . خلفى القوافل ، تصل غدًا . . بعد غد . . قل أسبوع أو أكثر .

قال (سعدان) :

- أهلًا . . البيت بيتك ، حتى تصل قافلتك .

غمّده بكساء عتيق ، واستمساه بالخير .

قالت (صالحة) :

- ضيفنا جاء من السماء ، وللرزق أسباب .

قال (سعدان) :

- من يدرى ؟!

قال (عبد الله بن عود) .

(محطتى هنا ، وبغيتى دنت بين يدى) .

وبات يهندس الخطط .

* * *

انبثق خبر الضيف (عبد الله بن عود) ، فسرى على كل ألسنة حريم القرية .. قلن : فى عزّ الصبا يحب الكحل والحناء .. يراقص خياله ويعشق الرقص والسمر .

* * *

يهوى الليل ، فتهوى النساء إلى (صالحة) ، فيبدأ (عبد الله ابن عود) بالقصيد ، ويرد (سعدان) على القصيد .

* * *

يحلو النشيد ، فيضرب الدف ، فتموج القدود وتموج القلوب .

* * *

قال (سعدان) :

- قافلتك يا عبد الله أبطأت .. عسى ما أصابها مكروه !

قال (عبد الله بن عود) :

- لاتخف . . لعلها أخطأت الدرب . . أسبوع لايحسب به في سير القوافل .

* * *

جاء يوم نفد فيه رزق (سعدان) من البيت ، ولم يعد للفأر فيه ما يردع الرمق .

قال (عبد الله بن عود) :

- يا صاحبى . . تبيع خنجرك وما يفيض عندك من عدة الحرث . . تشترى الحب والسمن . قافلتى لا ريب قادمة . . أرد كرم الكريم بأكرم منه .

قال (سعدان) :

- استعنت بالله ، ووجهك ينبىء بالخير .

قالت (صالحة) :

- الكريم حبيب الله . . افعل يغنك الله .

* * *

تدانت الأيام ، وبقى على يوم العيد أقل من عشرين صبحًا ، ووجد (عبد الله بن عود) فى خططه النفاد ، وقافلة الوهم لم تصل بعد .

قال :

- ياصاحبى ، فى دارك غلّة دفنها الأجداد . . تغنيك ،

وتغنى ابن ولدك . . لا ينتزعها من بين يدى الجن غيرى .

فإن تتبعت رشدى غنمت :

سأل (سعدان) :

- ما رشدك يا عبد الله ؟!

أجاب :

- ثورك الذى تحرث به وتسقى به زرعك . . يموت قبل المغيب . . الجن رابضة بين أظلاف قوائمه . تجزره ، وتأكل لحمه أسبوعًا . . يكون يوم الوقفة بعرفات قد أشرقت شمسُه . . تختفى الجن ، نحفر أرض البيت ، ونكشف عن الغلّة .

* * *

ما أذن العصر ، إلا ولحم الثور ينتضد على حبل مد من طرف البيت إلى طرفه . . والساحة تجمع بين صراع القطط والكلاب . . ظل دم الثور ناقعًا فوق قساوة الأرض .

* * *

مضى الشهر إلا قليلاً ، و (عبد الله بن عود) يحل ببيت سعدان كما يحلّ بداره .

ودنا يوم الوقفة كغد . . دنا فرج الترقب ليوم الكشف فى خاطر (سعدان) ، واستعارت (صالحة) فأس الجيران . . قالت ، (عبد الله) ولدٌ صالح ، لا يأتى بنبأ فيه للكريم مضرة . .

اليوم فقر ، وبكرة يخرج لنا الغلال . . قد منحه الرب فراسة فى شأن الجن .

دعت الله بأكثر من عدد ساعات اليوم ، أن يمنع عنه كل مكروه ، ويحفظ عليه صباه وحكمته . . كما دعا (سعدان) أن يبدله بالثور والخنجر وتلك الأدوات التى افتقد . . مالاً يثرى شح حياته .

* * *

كان (عبد الله بن عود) قبيل صبيحة الوقفة . . يبيت بدار ، عند مستضاف جديد ، فى قرية لا تمر بها الطريق مخلفا (سعدان) وزوجته ، وكل الحريم فى انتظاره إلى يوم الدين !

وحينما لم يجد (سعدان) الابن الصالح (عبد الله بن عود) . . قال لـ (صالحة) :

- يا امرأة . . لا تكثرى الكلام . . عبد الله ، غاب مع الجن . . يظهر فى الغد ، أو بعد الغد ، أو بعد أسبوع . . هو يعرف شأنهم ، وهم يهابون فراسته .

قالت (صالحة) :

- أين ندور عنه ؟! إننا قاعدون .

* * *

يرقد (سعدان) وقتما تكشف النجوم عن ضيائها وبعدها . .

يململ رأسه ذات اليمين وذات الشمال ، يوجس طرقًا ، أو حفيفًا . . فيستوى على إليته ويكثر الدعاء متضرعًا إلى القدير أن يمنع عنه شر الجن ، ويعيد (عبد الله) .

وحينما تقابل (صالحة) حريم القرية . . يسألنها عن (عبد الله) ، فـ (عبد الله) استجلب حليهن ليوعدهن بأمان يطرد فيها الجن ، ويحضر العاشق والمعشوق ، ويخصب العقيم .

كلام كالوقر يصهر مسامع (صالحة) :

ضيفكم يضحك علينا ، ولن يعود أبدًا .

تقول (صالحة) :

- لو سمع (سعدان) الكلام لطار صوابه .

(سعدان) يذوب فى انتظار (عبد الله بن عود) أو ريح قافلته . . ينهزل عدمًا ، حتى أنه ليبيع نعليه وعقاله .

تنتظر الحريم . . يعود الرجال من الحج . . فيتسربون فى الطرقات علّهم يحصلون على طارئ (عبد الله بن عود) أو ريح قافلته . . ينقلبون فلا يعثرون على خبره .

يقول قائل منهم :

- يا جماعة الخير . . عبد الله بن عود ، نال قصده وهرب . . أين تدورون ؟ هل جننتم ؟!

يكون التعب قد بلغ منهم مبلغ اليأس ، يلتقى بعضهم

ببعض . . يواسون (سعدان) ، يستخلفون الله فى حلى الحريم .

تكثر الدعوات عند كل جمعة وصلاة . . طالبة نزول سوء المحن ، تحيق بالذى هو : (عبد الله بن عود) .

٢٠/٩/١٩٨٢ - الدمام

الشيخ ابن الشيخ .. يتزوج

كان ابن الأربعين حولاً .. ولدُ الشيخ .. قد أصبح بعد مراسم دفن الأب شيخًا .

اسم أمه لا يذكر فى مجال الرجال .. فالولد ابن رجل ، والرجل شيخ ، وابن الشيخ شيخ ، وعلى القبيلة الطاعة فى الأمر .. لايحيد فى الخروج عن الاستقامة عاص إلا قُرِّع بالكلام ، ونيل به فنُبذ عن القوم .

للشيخ زوجات ثلاث .. أولاهن : أم عبد الله .. فى أول الصبا دخل عليها ، لم يكن يعرف وجهها إلا ليلة الدخول .. فبارك الله ، وطرح البركة فى أول رفَث .

للثانية فى قلبه مسيس حب نشأ على الوصف قبل الدخول ، والثالثة بنت .. قالوا عنها كالبدر ، وقالوا كالشمعة ، وقالوا الشيخ جدير بكوكب صغير ينام على صدره المهموم بهموم القبيلة .

* * *

امتد الزمان ، وشبع الشيخ من الأيام .. واشتعل الرأس بخيوط الكفن ، واشتعل العمر كبرا .

انتشرت هموم الآخرة ، فاختلطت بهموم القبيلة .. ورأى

أن يلطّف أيامه بصبية تعيد إلى عمره الستين بعض الشباب . . ورأى الصواب فيما يختاره الله ، فحزم القصد على ركاب المراد . . قال لأصحابه المنصحين :

ما ترون فى صنعٍ كهذا ؟ أكمل العد أربعًا ، فالبيت لايقوم على أركان ثلاث .

قالوا :

يا شيخنا . . العلم علمك ، والرأى لك . . ومن تحلل بالرابعة ، فقد أرسى لبيت حياته قواعد لا يزعزعها منافس فى القوم .

قالوا :

بنات القبيلة . . بناتك . . فاختر أيهن تليق بعرقك ومقامك . غير أنه استصوب مناسبة قبيلة أخرى .

* * *

حسنت فى عين الشيخ بنت الخامسة من خلف العشرة ، وأبصر فى نضارتها ما يوافق رغبته .

قال أبوها ، أزوجها للشيخ . . فى الغد ، تلد ذكرًا . . يغدو بعد زمان شيخا ، فنكسب النسب ، ونروم الحسب . طوبى لرحم يتصل بمنازل الشيوخ .

وأفصح على رأس لسانه . . أن ابنته قد وهبها هدية للشيخ ،

قال الأقربون :

ويحك . . أتدفن ابنتكَ فى حضن شيخ هرم ؟! ألا تسألها الرأى !

قال الأب :

رأى البنت عند أبيها ، وهى لا تدرك نفع نفسها .

اختلط صياح الأقربين بحجج الأب ، فتدانت أنظار ، وتباعدت أنظار . . وغلب على بعض الأقربين الرأى .

قال الذى يبتغى من الأب مصلحة :

أحسنت الفعل . . فى وقتنا هذا لا يفيد إلا المال والبنات . . متى ما تزوجت ابنتك بالشيخ كسبت المال ، وحظيت بالجاه . . نحن مع ما عزمت عليه . . لا نطمع فى شىء منك ، سيجد الشيخ فى نفسه الخجل : ينفحُنا بما يليق بشياخته . . مالاً . . كسوة . . شيئًا ينفعنا ويرتضيه .

* * *

تناثر النبأ بين قرى القبيلة . . فى السهل والجبل . . اجتمع عُرفاء القرى . . ضربوا المشورة : أن كل قرية تجمع مايفوق قدرتها من المال ، على الغنى والفقير ، والحاضر والمسافر ، ومن زاد فقد بيّض الله وجهه : خروفًا . . عجلاً ، أو بقرة أو جملاً .

تنافست مكارم القرى ، وغدت كل قرية بما جمعت .

قال الفقير :

من أين لى ؟ والشيخ لا ينتظر مكرمتى !

قال الجماعة :

من شذّ .. شذّ فى النار .

وقال اليتيم :

هل أبيع وصية أبى ؟

قال الجماعة :

اليتيم .. يتيم الدين والجماعة .

ولم يقبل من المعتذر عذرًا .

* * *

احتشد حوش الشيخ بالأنعام ، وغطت بروثها وجه الساحة .. فولّى من يقتاد برقاب كثير منها إلى السوق ، يبيعها ، ويربو على المال مال .

وولّى على بقية منها من ينحر فى كل يوم عددًا .. يأكل الضيف ، ويأكل « المعزوم » .

* * *

طوت الأيام لياليها ، وحان وعد الزفاف .. فأذن المؤذن داعيًا رءوس القرى أن يتجهزوا فى اللبس والسلاح وأن يركبوا

ما استطاعوا عددًا من السيارات ، فالشيخ يرى أن تكون طلعته فى عين الأرحام مهيبة ، وأن تكون عظيمة ، وأن تكون قوية .

وخرجت القبيلة فجرًا بأحسن مظهرها .. تزحف بقطار يطول من السيارات .. قاصدين بيت العروس .

ولما حان وقت الظهر .. أوقفوا سياراتهم .. تنادوا للصلاة ، وبعد الصلاة ينتظرهم الغداء .

على الغداء لحم مائتى ذبيحة ، وقدر زنتها أرز ، وشاحنات تفيض بالفاكهة .

كان الفائض الكثير قد حُثى على الطريق أكوامًا تنتظر أفواه السباع .

تجشأ القوم ، فحمدوا رب النعم ، ودعوا بسلامة شيخهم .

قال صاحب الرأى :

نداهم قبيلة العروس بـ (عرضتنا) مستعرضين .. سياراتنا نوقفها على بعد مسافة فى غير بُعد عن محطتنا .

قُرع الطبل ، ونُفخ فى البوق ، وظهرت البنادق والتمعت السيوف والخناجر .. انتظم العرض ، وتراصت الرقصة الدائرية ، وغدا للأقدام فى الأرض غبار .

توسط الشاعر الحلقة الواسعة .. دفع صوته إلى (مكبر الصوت) فأنشد :

« قال وجهى ، وعهد الله لأحط محفل
يسمعون به ، من الدمام إلى جَدَّرُوس »

* * *

استقبلت قبيلةُ العروس الشيخَ العريس وحشد قبيلته .. بطبل وسلاح ورقص لا يقل فى الشأن عن مماثله .

نصبت الخيام ، وضجت حركة الخدام .. تسكب الماء والمقاهى ، وتورد صحون التمر والفاكهة .

أما العَشَاء .. بعد العِشَاء .. تكون الخرافُ الأربعمائة تفوح لحومها الناضجة على (كبسات) الأرز ، ويخلف الله على المضيفين خيرًا .

* * *

بيّض الله وجهك .. بيضت وجهى يانسيب قُدّام قبيلتى .. كانت البركة أكثر من الخير ، وكان خيرك يفيض على كل خير .

وقالت القبيلة :

شيخنا منصورة دنياه .. مباركة زيجته .. وفّى فوفّاه الله وصاهر فتخيّر عرقوب الجمال والبركات .

* * *

بكت العروس على حجر أمها .. فتقاطر كحل العين ، ودخل الأب فرمى بصفعة على الخد الصغير ، نَهَر ونهى ، وأمر

بغض الطرف والصبر على الطاعة .. ثم بصق وتوعد ، وخرج .. ليفتح باب مقصورة الرفث الجديد للشيخ ابن الشيخ ، أدامه الله ، وبارك في مطيته إلى يوم الدين .

١٤/٨/ ١٩٨٤ - الدمام

مجموعة

« بوح السنابل »

السنبلة الأولى

اليوم الثالث

كان المرض غامضًا سريعًا ، فعبر ثقيلاً عن البدن النحيف ، ولم تظهر نجمة الصبح فوق رأس أشهق جبل فى وجه القرية ، حتى لفظ أبو «الثمان» بنات ، كلمته التى لم يتنفس بعدها أبدًا .

(يازينة ، ليس بيدك ، ولا بيدى . . خذى هذه الفروخ من رقبتى ، وعلقيهم برقبتك ، كما تعلقين مفتاح الحجج والصكوك القديمة) .

* * *

غرقت عينا أم الثمان فى دمعتين ، و«ندفت» زوجة الميت على الصدر المشتعل بالحسرة ، فبدا للأذن مثل شن مشدود .

بكت بعض البنات ، ونشج البعض ونحب ، والبعض فرح باجتماع توزع فيه القهوة والشاى .

لم تشك زينة من بطنها الذى لم يرزقها بولد ، لكن ألسنة الناس قالت : (لو أنه ترك فيهم ولدًا رجلاً يحميهم باليد والعين) ، عندما تساقط القول على مسمع الميتّمة ، قال قلبها المطعون :

(ما مات المرحوم بأرضنا التى نعيش على خيرها .. غدًا سأفلح مع المفلحين ، وأحصد مع الحاصدين ، أمد يدى إلى خير ما تثمر أرضنا ، أبتاع من الموجود بالنقد شاتين أو ثلاثًا .. تغدو قطيعًا ، وأغدو للقطيع راعية ، وللفروخ حامية آمنة) .

* * *

هبط نَضح السماء ، فأحيا الأرض التى يحيا عليها الأحياء ، وتناسجت يدا الأم بيدى الفروخ الذين يعلمون بحمل العيش ، والذين لا يعلمون ، وبان لعيون الطامعين والراقبين .. قوة العزم والعضد ، فقالوا :

(امرأة بناتها .. ليس للحرمة غير ظل الرجل ، وليس للبنات غير سترة الأزواج .. طاح رجال بزنود خضر .. تطيحُ أرملة ولو برز زندها) .

عندما تقاطر القول على مسامع الميتمة ، قال عزمها الممدود :

(لنا بيت من حجر وطين ، مثلما لكل ذى لسان .. لنا أرض وتراب وماء .. لنا زنود ، وفى عين المتشدق القذى) .

* * *

حينٌ من الدهر أتى ، وشطر من العمر تسرب مع سواد الليل وبياض النهار ، وها إن قطيع الثلاث غنيمات يربو اثنتان ..

فاثنتان ، يتحاشد فى مراحه ، يملأ الجوف ويكسو البدن .

جاءت زينة بمشط الغزل ، و«منفش» الصوف ، فركّبت الأعواد القوية على أرض البيت ، وجزت لباد الغنم ، فغزلت ولبست ، وغزلت وألبست ، وما نقضت فى يوم غزلها ، بل كانت تحصد الأرض ، وتجنى الخير من الغنم ، وللبنات فى كل عمل نصيب المجتهد .

* * *

ماذا قال اللسان فى الأسحار ؟

وماذا أوقدوا بنار الكلام «الفوت» ، وبعد الموت ، وبعد انقطاع الصوت ؟

قالوا : (زهق فلان ، بعد غطاء الليل ، فدق الباب ، وفُتح الباب ، وجرى ما جرى من أمر المرأة مع الرجل فى الخلوة) ، وقالوا : (نعم .. لعله كان ، والبهتان قاتل ، لكن ، كيف والأرملة تنام بين كوم الثمانية !).

أغلظ البعض ، نفى البعض ، والبعض أخذته الظنون ؛ وصفق بالكف البعض ألا تزر وازرة وزر أخرى .

عندما ترامى نثار القول فى سمع الميتمة ، رفعت اليدين الحيتين أمام الوجه الفاتر بطفح التهمة .. شكت الحال إلى ذى عين لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يغفل مظلمة تنزل بعبد يطلب

الستر فى الليالى ، ويبذل مع ضنى الفؤاد كل ما يجتهد به المؤمن من أجل عيش يتجنب رمى الكلام . . قالت بلسان امرأة يتمرغ فى غار فمها المطبق على غيظ الفيض :

(اللهم يا مفرج الكرب ، فرج كربة من رفع يديه تحت ناظريك ، وانزع عنه مظلمة من التجأ إليك من المظلومين) .

دُق باب الدار . .

فتحت أكبر الثمانية ، وصفقت الباب فى وجه الذى لم تشك فى شخصه .

دُق وجه الباب . .

فخرجت زينة ، وفمها يمتلئ بخدش الكلام :

(يا مخلوق . . كفاك ، أجئت تؤكد قولتهم ؟ والله ماجئت على بال زينة ذات خاطر ، ولا دنوت من بوح الصدر ذات خلوة ، وأنت العارف بما أصبنا من غث اللسان ، فكيف تجىء ؟) .

نظر فلان بعينين ضامرتين إلى صفاء حائر وخوف مبثوث على الزندين المختفيتين واليدين القويتين وقال :

(دعى القائل يلوث مذمته ، أرى من البر قتل هذا التلازم بالحلال . . تعالى ، أكون لك حاميًا ، وللسانهم مانعًا قاطعًا ، فهذا وربى مع الوقت لأقوالهم قاتل نافذ) .

تنازعت فى بال زينة الشكوك ، وقرعت بباب ذهنها كثير من الأمور ، جمعت الثمان ، وقالوا ما يقوله المستشار الصغير : (أنت الرأى وفى يدك الأمر) .

ولما كانت الدهشة تحلق بجناحين من بغتة ويقين . . علق البعض بالإثبات فيما حدث ، وقال البعض :

(قطعت شك القيل والقال ، وفعلت الحلال ، واستظلت بظل رجل) .

* * *

مرق حين من الزمن ، كما يمضى على النائم عشية وضحاها ، تزوج من الثمان اثنتان ، وخطبت من الست واحدة ، خلا البيت من ست عيون وثلاثة أجواف ، كانت تأكل من ثمر زندها ؟؟ يبست ألسن الناس فى أفواهها ، وقالت بعض الألسن على مرارة : (يا للزمان . . يوم لك ، ويوم عليك . . أصبح لزينة اليوم من يحميها ، وأصبح للبنات فراش تحت بطون الأزواج ، ألا يعلم هذا الفلان الذى لا يطيّر شرابه إلا قرب ملتها ، أن الميتمة انقلبت مع الترمل كرجل ، تمد وترد وتأمر وتنهى ، يالفلان ، أو فلان وفلان . . لا شخص له ، ولا حول فيما تقوله زينة) .

قال فلان لراحته وسكون حياته مع زينة :

(لم أهنأ بعد وفاة أم فلان ، إلا وقتما سكنت إلى زينة ،

مالى ومال طول ألسنة الناس وكثرة السؤال . فى عين المتشدق القذى) .

وقال فى ضيق الصدر ، واشتعال ما يقال :

(الناس لا يستخرجون القول من جيوبهم ، زينة شديدة فى اليد ، عزيمة فى الزند ، غليظة فى النهى والأمر . . لا بارك الله فى طمأنينة تأتى من خلف امرأة تمشى بالرجل كالدلدول) .

رأى البعض ، تفاهة ما يثرثر من دخان الكلام على لسان فلان ، ورأى البعض لين مايقول ورجاحة ما يحدث به عقل الرجل .

لفظ فلان على مشهدة رجلين «والله خير الشاهدين» طلاق زينة . فما شكت ، ولا بخل عقلها بمعرفة الأشرار . . وقالت :

(مالى وما للقوم ، فى كل مقعد يجرون سيرتى على الشوك . من قبل ومن بعد . . لن ينفعنى منهم صديق حاجة . . اليوم بقى فى حلقى خمس بنات ، غدًا ينفرط عقد الخمس ، فيخف الحمل ، يأتينى منهم فلان جديد ، طامع راغب ، فأقبل أو لا أقبل ، لن ينفق على من عنى بأرضه وماشيته بشر . . لكل ذى خوض مع اللسان وقت لايجد فيه مكان ، فيبلع لسانه) .

* * *

دُق باب الدار . .

فتحت أكبر الخمسة ، وصفقت الباب فى وجه الذى جاء يجرجر ما التقط من قيل وقال .

دُق وجه الباب . .

فخرجت زينة ، وقلبها يتفرغ لاستقبال نبأ جديد :

(يا مخلوقة . . من أنت ، ومن ساقك فى غدارى الليالى إلى أرملة أغلقت على فروخها الباب . . إذا كنت خير فأشهد أن لا إله إلا الله ، وإن كنتِ شر فأعوذ بالله منك) .

قالت عينا الغريبة :

(ألا تفتحين لمن استباتك . . جئت من أقصى الديار ، أرقى المريض ، وأشفى معقل القلب ، وأتخبط على الرزق . . افتحى يا محشومة ، آوى برد عظمى ، يرويك رب الغرباء من نهر الجنة) .

استوطنت مقعدًا قرب الدفء والعشاء الذى لاينفذ من ضرع الغنم ، وحين امتلأ الجوف . . تحرك اللسان ، كثر السؤال ، وأفرغت زينة كل ما يرقص فى البال .

أخرجت نائية الديار معاصبها ، وفكت حُق دهانها . . وشرعت الدعاء :

« . . . . »

« . . . . »

اسمعينا .. اسمعينا .. اسمعينا .. يازينة يا مزيونة .

بك واحدة لا ترحم ، جنية لا يقدر على استنطاقها من روحك غيرى .. أماتت حامى عيالك ، وفرقت بينك وبين زوجك بالبهتان ، هادمة للملذات ، مفرقة للجماعات .

عبثت الشكوك بخاطر زينة ، وبصقت على ماض لم تكن تعرف فيه هذا الكشف المهيب .

قامت إلى صندوق الملابس ، فجاءت بالحناء والبخور ، وريالات كانت إلى جانب الصكوك القديمة .. فمنحت وأغدقت وطلبت العذر ، لعلها لم تعط واجب العطاء لمن أخرج المخبأ من ظلام العمر .

* * *

حفلت الألسنة بما يحرك هدأتها ، عصفت رياح الهمز واللمز بفم من لا شأن له بترك أحوال الناس ، فقالوا : (جنية ترافقها ، جاءت على زوجها الأول ، وقسمت بالطلاق مع زوجها الثانى ، منعت الخمس من الزواج ، وقطعت نصيبها فى الثالث . جنية مولية ، لا هى شرقية ولا غربية .

قالوا :

(ستنتقل الجنية بذراريها إلى بنات زينة .. واحدة ، واحدة) .

قالوا :

(مسكينة تلك الشقية .. خير لها لو تموت فتريح وتستريح) .

وقالوا يوم أن نهشوا إلى العظم لحمها :

(ما لنا ولها ، للمجانين رب لطيف ، ولطفنا بها ، تركناها لسيرتها) .

أما من صفق على يديه وخبأ فى الصمت لسانه .. فكان يقول :

(لم تؤذ أحدًا ، ولم تتعد على أحد .. ما فرطت ولا باعت من أرضها ، ما نامت على الذل والهوان ، تزوجت فلان فاستترت عن الكلام ، وربت بناتها فتزوجن مكرمات .. ارحموها من البهتان فليست بمجنونة) .

* * *

كان الشتاء يلف كل ما تراه العين بالضباب ، وكانت الرياح تطارد السحب المقتحمة فوق الرءوس ، وكانت الحياة بشتى تفاصيل الحركة فيها .. تكاد تجمد فتصبح كحجارة البيوت أو أشد صلابة من قسوة البرد ، أما الصواعق التى تفجع كل ذى قلب ، فإن أبلغ ما يستشهد بفاجعتها ، أن إحدى الراعيات مع شاة وحملها ، وأن البنت الراعية سرحت بقطيعها ولم تعد إلى

البيت ، وعلم فيما علمه أهل القرية أن الصواعق جاءت على أشياء كثيرة فأهلكت أصلها ، وقد حفرت مكانًا عميقًا كحفرة مدورة فى بطن صخرة عند طرف القرية ، فافتدت بها بنى آدم .

كانت زينة قد غابت عن عشرة عيون تموج بالفزع فى رءوس بناتها ، منذ عشية البارحة ، وقتما بحثن عنها فلم يعثرن لغير القطيع طارئ ، وجاءت الألسن طرف السيرة المعمرة بالجنون ، أن الجنية اختطفتها إلى الأبد .

ثالث يوم فى زمان غيبتها ، اشتم بعض الرعاة رائحة لا ترضى الأنوف ، قادتهم إلى بدن متصلب بيدين مقبضتين ، وفم لا يدخل الهواء من بين أسنانه المطبقة ، وقد تكورت من الرأس إلى القدمين ، ونفرت رائحة فى أول ما صحت الأرض ، بعدما سقاها الشتاء والربيع الأول ، فخرخرت المياه ، وتنازت الوديان بالماء ، أما السفوح فتناثر على جلدها صفوف الزهر البرى ، فاختلط بنباتات « العثرب والقراص والعنصل » وحتى الزقوم ، وتطاول على جنبات المياه الجارية اخضرار «الحبق» ، فأرتعت المواشى ، وهبطت وحلقت طيور السمان والعصافير الملونة .

تقاطر وقر الكلام مع سمع زينة ، فأوجست فى بدنها الجن ، وذهبت تحدث بالصوت فى الوحدة نفسها ، ثم ارتقت

الحال ، فكانت تغنى ويخرج غناؤها إلى آذان من يمر بالطريق جانب الدار ، وترمى عفونتها . .

قيل : البرد اغتال زينة ، وقيل :

صاعقة دعتها الجنية فلبت وصرعت .

١٨/ ٤/ ١٩٨٧ - الدمام

السنبلة الثانية

الحجر

غضب والد مانع ، تلفت حوله فى المزرعة ، فلم يعثر على مقبوض يمتص الغضب من اليد ، فآثر اللجوء لسلاح من لا سلاح له ، وقذف مانع بأقرب حجر ، فجاء الحجر فوق العجيزة ، وأحس مانع بغضبة أبيه تبرق ألمًا فى أسفل غضروف ، فلعن عصيان الأب ، وقال هذا جزاء الرب لمن يعصى الوالدين ، ولعن والدى الحجر والألم .

سقط كشجرة طلح نضرة على تراب المزرعة ، وسقطت مع سقطته دمعة مالحة ، فاختلطت بالمخاط واختلطت بالتراب . . وإذ ذاك تمددت غضبة الأب الغيور فى العروق ، ورأى أن الغضب المباغت من عمل الشيطان ، فاستعاذ بالله من شياطين الوادى ، وجاء إلى قلبه الملقى على التراب ، فمسح لعابه بيد خشنة ، ومسّد موقع الحجر ، وقال لمانع ، أنت تنتزع منى على كره نار الغضب ، وتدعو يدى لفرد هجمتها ، هيا . . الآن قم .

هذب مانع هيئته الملقاة ، ففرك بظهر الكف اختلاط المخاط بالتراب ، فالتصق بالشفتين طعم الدمع المالح ،

وأجهش جهشتين على حرقة ، وقال فى تقطع مرير ، أنا لم أرد كسر طاعتك ، ولم أود هروبًا من أمر فضلك ومقدارك ، لكننى ملك مداراة هذا القطيع من الشياطين التى تلبس الصوف ونتلمس فيها بركات غنم سيدنا موسى . جاء الليل ، ولملم تحت سواد خيمته عودة كل الناس من الوديان . وجاء والد مانع بحزامه اللين ، وقد لاقى بين جلدتيه بمسمار معقوف ، ومدد مسحاته التى تشبه أذن ثور عريضة على كتفه المفرودة .

جاء مانع بعصا الغنم ، يتوكأ عليها ويهش بها ، وليس له فيها مآرب أخرى ، فمد ذراعًا إلى الخلف ، ووضع أصابعه الخمس على أسفل غضروف فى الظهر ، وقال فى مرات لا يحصيها ، ياللحجارة القاسية إن وقعت عليها آلمتك ، وإن وقعت عليك آلمتك .

ألقى عن كتفه بالمسحاة الأب ، وألقى بالذى فى يده مانع ، خنع من ألم الحجر ، وضبع على قدميه إلى قرب موضع النار من الدار المسقوفة بالطين والخشب .

جاءت الأم من مراح الماشية ، فألفت «مانع» مضطجعًا إلى جانب النار ، علمت أن ابنها ابن الفلاح وصلابة الأرض لا يضطجع إلى النار دون شكوى ، وعلمت بعد السؤال عن السبب ، فسألت الله ، يكفيها شر غضب الزوج ، وطفح على

ضبطها ورجائها فائض من حنان الأم ، فنثرت ما على لسانها فوق هدأة الزوج المتعب ، قالت (يا مخلوق ، هون من قساوتك على الولد ، كفاه تحملاً ورعيًا للغنم . . ما خالف إلا مع الجهالة ، ولكل صبيان القرية مخاطئ ، لا تظنه حين أفلت بعض القطيع مهملاً ، وإن كان غاضبًا ، فقلبه «محسوس» من سفاهة الأولاد مثل كل ولد فى سنه) .

احمرّت عينا الزوج ، فغدتا قريبتين من لون الجمر الذى يتوقد بين اليدين ، ورأت فيهما الزوجة أشياء لا يفهمها غيرها ، فاستنجدت فى الخاطر المضنى برب يفرج الكربات ، ويذهب حماقات الليل .

حطت معصب رأسها ، وفيما يشبه الرغيف الصغير ، لملمته فى القبضة ، وطرحت واجهته أمام اشتعال النار ، فالتقط من الوهج قدرًا ، ومسدت به أعلى العجيزة من أسفل مانع ، وقالت (اللهم أنت المبتلى وأنت الشافى . . كاشف الضر ورافع البلاء) .

تألم مانع فوق الألم ، فدعته أمه إلى الصبر ، وعلق الأب على وجوب التحمل ، بأصناف الكلام الذى لا يمكن لعاقل أن يزن مداركه المبهمة .

على الطريق المنحدر تجاه الوادى القريب ، كان ثلاثة من

الصبيان يجيئون من المدرسة القائمة فى ضاحية تتمركز القرى ، كان أحدهم يحمل حقيبة جلدية بدون ذراع فى يمينه ، بينما حمل الآخران كتبهما على ذراعيهما ، وقتئذ قفز أحدهما فى مشيته ، كما تقفز دجاجة أرعبتها حدأة محلقة .. ضحك الآخران ، وعلق أحدهما ، بأن صاحبهما يمشى كمشية مانع ، يغرس ساقًا وينتزع أخرى ، وكأنما يريد أن يزرع الطريق بقدميه .

كان إلى أعلى الطريق ، وعلى امتداد حذفة حجر ، رجل فى لباس ظهرت على قصره عدم عناية بالغة ، كان يجلس على صخرة مرتفعة ويغنى بحداء لا يفهم منه مراد ، غير أنه يسيل على الأسماع كموج رياح جر معه صوتًا حزينًا ، وكان الرجل قد تخطى سنى البلوغ بأعوام لا يختلف فى تقديرها الكثير ممن يراه ، يضع حذاءين مجلدين إلى جانب مقعده ويشد عمامته المتهدلة عقال أسود مبتسم وعريض ، وكان بين الفينة والأخرى يلتقط حجرًا صغيرًا ، ويقذف به قريبًا من فم شاة تبقم نبتة خضراء ، ناهرًا خروجها عن القطيع ، فيُهرول الحجر ، متخذًا له طريقًا سهلاً نحو الأسفل ، ومحدثًا فرقعة صلبة منزلقة .

صرخ واحد من الصبيان الثلاثة :

(يا مجنون ، لاترمى الحجارة .. ستقع على رءوسنا)

فرد مانع :

(لا . . لا ، لا تخافوا ، فأنا لست بمجنون) .

أغمض عينيه على جمرة ، توقدت منذ زمن طويل ، سأل نفسه وجاوبها على أشياء ربما جاءت منذ حجر رماه به أبوه ذات وقت فى نزق ، فأصاب أسفل الظهر ، وأصاب المشية التى غدت أضحوكة ، وأصاب ألسنة الناس لتقذفه بالبلاهة والجنون ، فغدا راعيًا لا يصلح المدرسة ولا لأمر فيه شأن للعقلاء .

ساءل نفسه :

(هل أنا مجنون ، أم هم كاذبون ، كم كذبوا علىّ ، جميعهم يعدوننى ويخلفون) .

هبّ بخاطر مانع كل العرائس اللواتى كان يندمج فى صخب مناسبتها . .

هات الصحون يا مانع .

(حاضر) .

هات الشاى للضيوف . . هات القهوة .

(حاضر) .

كانوا جميعًا ، يضحكون منه وقتما تنتهى مراسيم الزفاف ، وتذهب كل عروس إلى حضن عريسها . . كم من العرائس

قالوا ، قالوا إنها لك يا مانع . . فهات للضيوف وهات ، وإذا ما أبطأ قليلاً ،

قالوا :

(يا مانع ، سيّد القوم خادمهم . . هات) .

تدفقت غضبة من الصدر المكتوم ، فحدا بالغناء الذى لا يفهم منه سوى صوت متقطع حزين ، قبض على حجر قريب ، والحجارة حول وتحت مقعده . . هنا على السفح المغطى بقطيع مشاكس من الغنم ، لا تلتفت إلى شىء ، ولا تدرى عن شىء ، تفرط كل قواها فى العشب الأخضر . . حجارة كثيرة وبأحجام تروق لقبضة اليد واليدين . . تكفى لرجم كل رجيم .

كانت السماء تمنح الدنيا بسخاء صفاءً أزرق ، يمتد من أقصى بعد للعين إلى أدنى قرب ، وجد على جرف قريب ، عصفورًا ملأ الآذان بنثار شقشقة رهيفة ، فامتدت يد مانع إلى حجر لم يتعب أبدًا فى التقاطه ، لكنه عدل عن قذفه إلى العصفور ، بقى العصفور يتقافز بعيدًا . . قريبًا منه ، وكأنه يتحدى مانع ، وكانت الشياه تتنقل دون ثغاء فى السفح المندّى بالاخضرار .

أما الأولاد الثلاثة ، فكانوا قد بلغوا بيوتهم منذ حين ليس

بقليل ، وقد هيأت لهم أمهاتهم وجبة الغداء ، وراحت أطياف خواطرهم ، تحلم بأيام فيها يحصلون على أوراق بيضاء كبيرة ، فى آخر العام ، اسمها شهادات ، لا يكذب عليهم أحد فى يوم تقام لهم على الحقيقة حفلات الزواج . (من يدرى ربما أخدم فيها لأننى كما يدعون سيّدهم) .

* * *

وقت إذ كان مانع يخوض بلا حساب فى أشياء متشابهة ، تدخل من باب وتخرج من آخر . .

تقلب حجر يملأ قبضة اليد ، دفعته دون عنوة قدم شاة ، فتدهور مسرعًا إلى آخر أسفل السفح ، وكان الحجر قد استفزع مانع ، فالتفت فى بغتة ، وتابع انزلاقته حتى توقف وسكت كأى جماد إلى الأبد .

٤ مايو ١٩٨٧ - الدمام

السنبلة الثالثة

البعيثران

- معذرة .. معذرة ، لقد تأخرت .. إن اعتذاراتى سمجة إلى قاع الغباء ، فبعد هذه السنين الطويلة (جدًا) .. لايمكن للاعتذار أن يليق بلسانى ، ولا بأذنيك .. لكن : ماذا يمكننى تقديمه بعد كل هذا الغياب ؟

- لا عليك .. لا عليك ، كله منك مقبول « يا ولدى» .. قل لى كيف حالك بعد الغربة .. آه ، قاتل الله الغربة .. فرقت بيننا .. أنت معذور ، «والغائب حجته معه» إنك تعذب نفسك فى الغربة ، ولا تدرى أنك لم تغادر قلبى ليلة واحدة .

- لا .. بل قولى ، إننى أنا الوحيد المسئول عن طول هذا الغياب ، قولى إننى متهاون ، وغارق فى «اللامبالاة» وفقير الحس بالمسئولية .. هذا الذى أتحمل اللعنات وكلام اللوم عليه .

- هل تحب أن تشرب القهوة ، أم أنك مازلت كعادتك ، تحب شرب «الشاى» ؟

- أرغب فى شرب قهوتك .. رجاءً أكثرى الجنزبيل ، واحمسى البن حتى يتفحم .. فإنى متوجد إلى طعم مرارتها الداكنة .

- أبشر « من عينى هذى قبل هذى » .

- سلمت عيناك « يا أماه » ، ما حالك بعد الانفصال عن أبى . . هؤلاء هم فى هذا الزمان . . يرمون المرأة كما يُرمى الحصان العجوز ، بعد خدمة عمره . . يرمونه بالرصاص ، علمهم الزمان الجديد ، حب المال على الزوجة والولد . . هل كان يحدث مثل هذا فى عصر جدى يا أمى ؟

- لا ، عيب ، لا يجازى الرجل أم أولاده بالطلاق ، بل هى تعيش معه ، ويعيش معها ، «على الحلوة والمرة» . . يربيان الأولاد والبنات على الحب والتكريم .

- كلها أمور . . تحملت عذابها أنت . . أما نحن فقد فارقنا العذاب وتسلمته .

(ما ألذ قهوتك المرة ، ورائحة جنزبيلها ، وفوح دخان نار الحطب . . أراك أحضرتها من غير أن أسمع صوت «المهراس» آه . . عندك مطحنة بن بالكهرباء ، وجهاز للغاز نظيف يشبه الصندوق «الزنك» الذى كنت تحفظين به ملابسك وكتب دراستى و« دخون » عطرك وروائح « الكادى » والريحان ، والبعيثران .

يا إلهى . . أين ذلك الصندوق المبلل بندى الرطوبة ، ودخان الحطب المتجمع فى «الملّة» القريبة من ركن الحجرة ؟ صوت المهراس وحبات القرنفل . . أغبرت الأيام ، وأغبرت

الصور الراسخة فى الذاكرة ، وما تغيرت ، أنت كما أنت . . تستعملين عمامتى القديمة حزاما لثوبك الطويل ، إيه . . تركك الغبار خلف حوافر الأيام . . هل سمعت أبقار مدينة بريدة تتغذى بالكمبيوتر المبرمج ؟! السيارات العريضة تأتينا من أمريكا ؟! ابنك لازال محتارًا ، لماذا لا يكون فى القرية طبيب عام أو صيدلى واحد ؟

أتذكرين قولك :

إن البدو هبالى

بقدرة الله تعالى

يكسون بدنهم من شعر غنمهم . .

(ليتنا كنا هبالى . . نكسو أبداننا من شعر غنمنا . . كنت توصينا بطرد القطط الدافئة من فراشنا فى الليل ، لأنها «تقرقر» و«تمهمه» وتجرجر أنفاسا مكركرة ، وتسترق ما نحفظه من قرآن ، فنغدو مثل أولاد البدو ، لا نصلح إلا لرعى الإبل ، ومطاردة الغنم والماعز فى الجبال والسهول . . تغير الزمان وتبدل وجه المكان . . اثنتان ، واثنتان من الغنم تساوى قيمتها مالا . . يشترى البدوى لولده سيارة «عراوى» . . يشتريها من معرض للسيارات على طريق الإسفلت ، يوبخ ولده ويتهمه بالتخلف والبداوة . . يقول : يا بدوى . . يا ابن البدوى . . قد

لنا السيارة مثل أولاد الناس . . تنفعنا فى نقل الماء و«الحريم» والغنم ، ولا تقتل «خلق الله» فى الطريق ويحلف الولد ، أنه يخاف ، ولا يتقن قيادة السيارة ، ويتهمه أبوه بالبداوة . . يعلم الله ماذا يكون «للعراوى» ، وماذا يكون للبدوى ، وماذا يكون لابن البدوى؟) .

– يوه أتشرب الدخان ؟ صحتك ياولدى . . الدخان أوله دلع ، وأخره ولع . . من يوم ما سافرت ، والدخان ما يفارق جيبك . . ما تدرى ، الدخان ضياع للمال ، لكن . . تدرى ، الله يصلحك . . أنت رجل ، والرجال لا «ينخاف» عليهم .

– سجائر «بفلتر» مكتوب عليها «مصنع للتصدير خارج الولايات المتحدة» ماذا يضايقك فى هذا ؟ . . أنا أدخن مثل الناس المتمدنين . . دخان أمريكى ، للتصدير . . قطران ١٣٫٠ ملغ ، نيكوتين ١٫٠ ملغ . . كل شىء بحساب فى علبة بارقة أنيقة . . «نسيتى قول المهموم» ؟

« . . . . »

« . . . . »

وعلى كل علبة تحذير رسمى : التدخين سبب رئيسى للسرطان وأمراض الرئة وأمراض القلب والشرايين . بارك الله . . بارك الله . . عندك تليفزيون ملون . . ماذا يعجبك من برامج

التلفزيون ؟ . . « ماما . . عندك أنشودة » رددى هيا :

« بساسى . . بساسى . . » .

وماذا أذكر . . لا أذكر يا أمى . . ابتعدى ، لا تقرعى باب دواخلى . . هذا كلام لن تفهمى منه شيئا . . « خلى حوارى مع داخلى يتوالد فى جلستى معك . . » .

اعذرنى يا ولدى . . ليس عندى ماأقدمه لك مع القهوة . . التمر «باح» من الأسواق . . عندى «حلاوى» وعندى عسل من تركيا . . (ياولدى . .

لا تبك فأحزان الصغر

تمضى كالحلم مع الفجر).

– شكرًا . . أبغى راحتك .

(عندنا مائة نوع من الحلوى . . عندنا أربعين نوع من العسل . . عندنا «غريب فروت» عندنا «كورن فلكس» ، والله عندنا حتى مربى البطيخ ، كله من الخارج . . الحمد لله ، الله يديمها نعمة) .

– الحمد لله يا ولدى . . الخير موجود . . لو أن الناس يذكرون نعمة الله ، ويعافون النميمة والكذب والتكبر . . لكن ، كل واحد على نيته ، وربنا يحاسب المؤمن على فعله ، مثل ما يقول « كل شاة معلقة بعرقوبها » .

- الله كريم . . الله كريم .

قولى لى يا أمى . . سمعت عن «نيكاراجوا» عن «السلفادور» عن «تشيلى» ؟

سمعت عن «بيروت» عن مخيمات لأناس مهجرين ونازحين فى «صبرا» و «الجنوب» و «عين الحلوة» . . بارك الله . . بارك الله .

« قصفت

طائراتون . .

عدوتون . .

جنوب لبنان

درس اليوم . . كم مرة يكتب على اللوح الأسود ؟

كم مرة يكتب فى دفاتر البيت . . فى الدماغ ؟

سمعت بالنشيد الإخبارى الجميل . . ليتك تجيدين القراءة والكتابة . . ليتك تساهمين بحفظ مثل هذا النشيد .

-(أمى . . اليوم أول الشهر الأول فى السنة . . يقول الرئيس «ريجان» أنه سوف يتزود من ميزانية عطفه فى سوق النقد النووى ، ووعد بالنظر فى «حرب النجوم» أمام النظير السوفيتى . . احتفل بعيد رأس السنة ، ونفض الغبار عن «تمثال الحرية» . . تلمس خارطة المخططات للسنة الجديدة «٨٦» . . .

ادعى معى :

اللهم يا مخلص الناس من الرصاص

ومخلص الرصاص من الزناد

ومخلص الزناد من الدولار .. اللهم احم حوزة الدين .. وانصرنا على القوم الكافرين واليهود والمستعمرين .. اللهم آمين .. آمين .

أمى .. أراك تحدقين فى التليفزيون .. أنسيتِ أننى جئت لرؤتيك بعد انقطاع ، وغربة واشتياق ؟

كأنك تحبين مباريات كرة القدم .. هـ .. ى .. هـ .. مع من أنت .. لاتقولى أنك مع المنتخب .. قولى لى أنك مع الفريق المفضل ، وأن لك أكلة مفضلة ، ولك فرشاة أسنان بلون مفضل ، وتحبين أغنية البراقع لمحمد عبده .. قولى لا « تخجلين » ..

أنا أحب أغانى « محمد عبده » أحبها إلى منتصف ساقى .. وبالذات ، آه .. أغنية « أوقد النار يا شبابها » وأهديها للمتضررين من برد الشتاء فى المخيمات ..

«كما أننى» أهديها لعمى « أبو جمعان » .

«كما أننى» أهديها مع التحية للوالد العزيز خلف مقود شاحنته .

«كما أننى» أهديها لمقدمة البرنامج ، وشكرا) .

اشرب قهوتك ياولدى .. بردت .. مالك تسرح كثيرًا ولا تحدثنى عن سنين غيابك ، ومتى تزوجت ، ومن هى زوجتك ..

وكيف لم تتزوج من عندنا ؟..

سمعت أن أباك غضب من زواجك دون معرفته .

(« وقريبًا تكبر يا ولدى

وتريد الدمع فلا يجرى »)

لماذا يغضب ؟ كل الناس تزوجوا من خارج عائلاتهم ، واستقلوا مع زوجاتهم ، أبى لن يقدر على التوافق بين زوجتى وزوجته .. زوجته تقعد فى البيت وزوجتى تقعد فى البيت ، وأخواتى يقعدون فى البيت ، سيبحثون عن عمل ينفثون فيه طاقاتهم .. بالكلام .. بالخصام .. بالقيل والقال ، و«كثرة الجواب والسؤال » . كلمة من هذه وهذه .. « لا شغل ولا مشغلة » .. الرجال يذهبون للعمل ، و « الحريم » يجئن للفراغ والكلام .

« يقولون فى المدن كل الراحة .. البنات يخرجن من الجامعات .. يقعدن فى البيوت ، أمهاتهن يعملن ليل ونهار على الإنجاب » ..

عندهم سواق وسيارة . . سواق من « الكوارية » وطباخ من « كوستان » حتى الشاهى يشربونه بالفلفل والبهارات . . الحمد لله الخير والبركة ، نحن لا درسنا ، ولا تعلمنا . . « ايش فايدة التعليم » وبعده نقعد فى البيت ؟؟

نقعد فى البيت و «بلاش» ندرس ولا ندخل جامعة ولا مدرسة .

- يا ولدى . .

« لن يسقى دمع أشجارا »

لن تبنى بالآه جدارك وانظر فى قلبك ستراني .

يا ولدى . . ياولدى . . ياولدى .

- لملمى فناجين قهوتك ، امنحينى عفو ضلوعك . . فغيابى ربما يطول . . ربما لا نلتقى بعد الآن . . اطردينى من وديان قلبك ، فإنى قد أخذت على خطوتى دينًا ، يعد بالدفء فى البرد وفى الشمس .

١٢/٢/١٩٨٦ - الدمام

ملحق

١ - فى القصة كلام تحده تنصيصات أقواس صغيرة ، وأقواس كبيرة ، وهى خليط مركب من باب التداعى لبعض

الأمثال الشعبية واللهجات الدارجة الفصيحة الأصل ، وبعض مقاطع صغيرة من أغنية للشيخ إمام وكلام كثير ينتشر فى حياة واقعنا اليومى . . .

٢ - «البعيثران» نبات طيب الرائحة ، صنو الريحان ، ويستخدم فى القرى الجنوبية كمبيد للعثة بين الملابس

السنبلة الرابعة

المدفأة

كانت مدفأة الجاز قد جمعتهم ، وراحت فى تباطؤ تمنحهم دفئها الفاتر . . وكانت فناجين الشاى المتناثرة بين قعداتهم تكشف أن شايًا قد شرب . . أما الإبريق فكان يربض بلا عناية به إلى جانب المدفأة ، ولا خوف على فراغه لو عدا تحت حركة قدم أو يد غافلة .

وحين كانت ساحة البيت فى الخارج «يتنازى» سيل السماء الذى لم ينقطع منذ الصباح . . التف كل الحاضرين بملابس عريضة إضافية ، قليل كان يدثر قعدته بالصوف ، قال الشايب ، وكان لا يسترد قدميه الباردتين اللتين نصبهما فى وجه المدفأة :

(سألتمونى يا جماعة الخير ، عن طارئ الحرب المشهور ذكرها . . بيننا وبين أهل قبيلة «ف» وصواب ما حدث . . أن الناس ، كانوا يزيدون نارها بالحطب ، ويتذرعون بالقيل والقال ، وتنشب الحروب ، ولا يطفئها غير دماء الأوادم .

من أجل سفاهة البعض . . يموت البعض ، ويتيتم البعض ، والبعض يترمل . . أذكر وقتها ، أن القبائل القريبة ، على حدودنا . . جاءوا بالقطران ، وسوّدوا أبواب بيوتنا ، وكان

معناها أننا قد فرطنا فى الكرامة ، وأن وجوهنا أصبحت سوداء بين كل القبائل .. فثارت فينا النخوة ، وقلنا .. لا عاش من سوّد وجوهنا قدّام القبائل .. احتزمنا على سديد الرأى ، واعتصبنا بسلاحنا ، وهبينا مثل القرود فوق الجبال .. رمينا عيالهم فى واديهم ، وقلنا ما يغسل هواننا غير الدم الأحمر ، وكان كلام شاعرهم قد طاف فى حناجر القبائل ، وخفنا من زيادة الشتيمة .. والرأى صار ، الرد على القول لا يكون إلا بالرصاص .

تنازعوا ، وتفازعوا ، وقالوا : ما يرد الرصاص إلا الرصاص ، و كان فيهم رجال لا يخطئون الرمى .. رموا فينا وأصابوا ، ولولا أننا كنا فى الجبل لأهلكونا .. صاح صائح ، ليوقف الحرب إلى غداة الخميس ، والمهلة يوم .. قلنا ، المهلة يوم .

يشهد الله ، إنهم غلطوا علينا بالقول ، وغلطنا عليهم بالرصاص ..

لكن القبائل سوّدت وجوهنا ، ولابد من غسلها .

ثلاثة من رجالنا ، أصابتهم البنادق ، وواحد من رجالهم مات ..

عدنا نحمل جرحانا ، وعادوا يحملون ميتهم .. وتصافقت

الجبال بغناء « عرضتهم وعرضتنا »)[1] .

* * *

كان الشايب يعقد كفيه فوق «ضنابيب» ركبتيه ، بينما كانت القدمان ، تمتصان الدفء المباشر من حمرة المدفأة ، وبين لحظة وهنيهة تتحرك أصابعها القصيرة حركات أشبه بالتقافز المباغت ، وكان الإصبعان الصغيران يبدوان وكأنهما قد ألصقا بالبنصر ، وحقنا بحمرة مكتنزة ، تحسبهما استعارتى وهج المدفأة ، وكان بين تعليقه خفيفة بالكلام ، من أحد القاعدين ، يجمع القدمين المنصوبين ، ويلمم فرط انفصالهما .. ثم يستوى متربعًا لوقت قصير ، ويبرم طرف شاربه بيساره .. وتابع :

(يا جماعة الخير .. مات من مات ، وأفلح من أفلح ، وراحت الأيام بخيرها وشرها ، وبقى طارئ الحوادث .. يسألونك الناس عن أسباب الحروب ، ولا جواب ، إلا أن الجهالة ، كانت تحكم الناس .

أقول لكم ، كان يوم الخميس ، سوق وسط واحدة من أكبر قراهم ، توقعنا الشر ، وحصل ، فواحد منا طعن بائع تمر منهم

---

(١) رقصة جنوبية شعبية كانت تقام مع ترديد قول الشاعر فى مناسبات كالحروب والاحتفالات .

بخنجر ، وهاج الناس ، تدخلت القبائل ، وقالوا عيب . . هذا سوق ، والحرب موقوف إلى صباح الجمعة . صباح الجمعة . . كنا قد انتشرنا فى موقعنا . . رموا ، ورمينا . . رموا ، ورمينا . . لا خدنا حق ، ولا باطل ، ولكن لهم عندنا «رقبتين» .

كانت الشمس تصب لهيبها ، والحما هاجم حلوقنا . . صاح الصائح بالهدنة وقت الظهر . . عادوا ، وعدنا ، وما رفع واحد من القبيلتين بصوت العرضة) .

قال واحد :

– طيب . . وأين كانت الحكومة ؟

لم يرد الشايب ، فقد أجاب آخر :

– الحكومة ، سلاحك . . وقتها الحكومة فى المدن . . بعيدة عنا .

فتح الشايب فمه ، ودفع معونة إضافية من التوضيح :

– (كان عمرى ذاك اليوم خمستعشر سنة ، اليوم ، لنا خمسين عام . . وينكم) .

* * *

خمسون وخمس . . سنوات لا تعبث بها رياح مسافرة فى طول العمر ، بكل ألوان الحياة فيها . . مرت تقرع مساميرها ، إلا قليلا وإذا ما تماوجت بعض أحداثها بذاكرة الشايب . . حك

بسبابته رأس أنفه ، وتلمس قساوة كعب القدم بباطن الكف وأغمض الهدبين ، فكيف لسعادة الماضى أن تزيد الشقاء حين الشقاء إلا الشقاء ؟

كان يعج بأطياف الذاكرة .. صخب الشباب ، وصلابة العظم ، وارتحال الحماس .. فيردد همس الخاطر ، بيتًا من الشعر قديم ، يناسل تراكيبه بلغة ، يكسر ضمتها ، ويفتح كسرتها :

« ألا ليت الشباب يعو .. »

وهاهى آخر فلسفة الحياة ، تجعل من اشتعال بداياتها .. شايبًا ، يمشى محنى الظهر ، كإصبع معقوف ..

« سبحان الذى .. » كأن حرب القبائل ، لم تكن قد غادرت طلقات رصاصها حفرة الأذن ، الملقاة ككف طفل نائم إلى جانب الرأس .. تتهدل اليوم .. رخوة ، لينة ، تنبت بحضنها خيوطٌ بيضاء ، يسمونها شعر الشيب ، ورمى الشايب فى حضرة المستمعين ، ثلاث كلمات :

« يارب .. حسن الخاتمة » .

تكلم لسان أحدهم :

- أكمل .. بارك الله .

- (بقى لهم عندنا ، رقبتان .. واحدة خذوها بالغدر ،

وواحدة ضاعت فى السنين .. جاءت الحكومة ، وتغيرت الأمور) .

يعنى ، سكتوا ؟

- سكتوا ، وسكتنا .

* * *

ما كان القاعدون قد شبعوا من تفاصيل الحكاية .. لكنهم أوجسوا من الشايب ، رغبة فى الاختصار والختام ، وسمع الشايب جرس الهاتف يصب رنينًا فى الأسماع ، جاء ولد الابن ، وحكى كلامًا تعددت فيه «بخير ، الحمد لله» ، ثم أنهى المكالمة وخرج .

ولم يكن فى دفء الحضور ، تساؤل عن غياب حب الفلاحين للأرض ، وتزاحم الرغبة فى مطاردة الريالات ، وقطع التراحم ، غير فى صدر الشايب . وكان القاعدون ، ينتظرون توقف المطر .. يركب الكل سياراتهم ، ويتركونه مع نبضه الرتيب ، الذى يتناسق بفرح مع نشيج السماء .

١٤/ ١٠/ ١٩٨٦ - الدمام

السنبلة الخامسة

الأقوال

للسان الحال ، في هذه الحال .. أن يسرب عبارة كـ«تعرف المصيبة كيف تختار مكانها . . . » ، وقد ورد في نثار الكلام وفتات الحديث .. أن أم مسعود .. شقت الجيب ، ولطمت الخد ، وجعلت من جدائل الشعر مشدات لقسوة الواقعة ، وسحيق الحزن ، وللقائلين في أمر فعلة المصائب قول من إذا نزلت به مصيبة قال : « إنا لله وإنا إليه راجعون » .

الأرض بخيلة إذا ما قاطعها المطر ، والبيت فقير إذا عز جنى الحصاد ، والحال تمتد لسانًا من الدم من المعدة إلى حدود الشفاه عند طرف اللسان .. فماذا يقال في مثل هذه الأحوال ؟

سوى أن يشد الأب من حيل العمر ، وزند اليد ، ووهن الكبر .. فيغدو في القريب وليس في بعيد السفر .. ينقب هنا ، وينقب هناك ، ويسأل هنا ، ويتساءل هناك ومن لا خبرة ولا علم له .. ولا عمل ، وفي البيت أولاد ثلاثة وبنت في المهد ، وحمارة لا يملأ بطنها إلا علف الحصاد وإلا فعشب الجبال ونبات الوديان .. يسد ، ويرد جوع حاملة الثقل ، وناقلة

الماء ، وبريد المشاوير . . أما إن كانت مصائب الدهر ومحطات الأيام . . تقرع فقرات الظهر . . فإن الله لا يمنع ولا يقطع ، و «كل شدق وله رزق» .

وإن كانت البارحة أطاحت بأوتاد الأرض على هموم أم مسعود ، وزادت فوق وزنها جبلاً وزادت الجبل خوفًا وتوهمًا ووجعًا . . فمرض « أبو مسعود » ، هو فاتحة الهموم ، وخوف الغياب .

ولم تلتمع نجمة الصبح فى عين أم مسعود ، حتى استنجدت بأخيها فى المكان البعيد ، وشكت له حال الأب والزوج ، ورأت فيما يرى المبتلون . . أن يشد أخوها على جمله الركاب ، ويجئ ليحمل صهره ، عسى أن يكون فى يد الحكيم شفاء ، وعسى أن يجعل الله فى بعض الأمور رشدا .

أناخ الجمل فى ساحة الدار ، وانتبه الصغار من النوم . . تساءلوا عن الأب الملتحف «ببطانية» الفراش ومتى يعود؟

قالت الأم ، يذهب إلى الحكيم ، ويعود معافى إن شاء الله .

نهض الجمل ، وقبض أبو مسعود بيدين من حمى وسعال على مكان الركب ، وجاء الجمل ينود بمريض أسمر بالغ فى السن وفى النحل والمرض .

قال أبو مسعود ، يا أم مسعود .. أظنها رقدة الموت ، طلعة لا عودة خلفها ، فالعمر تقدم ، والعلة أصابت الضعف ، فما الذى أرجوه سوى أنك تستعينين برب العباد ، وتسعين وراء رزق العيال .. امنحى أرضنا قوة عزمك ، وصدق نيتك ، وهمة حياتك .. منها تأكلون ، ومنها تكتسون ، وتحيطون أنفسكم بأمن عن كلام الخلق ، وألسنة الأشرار ، وها أنا بعد علة أخذت منى قوة العمر ، وصلابة العمل .. أقول أوصيك ، ثم أوصيك .

على عتبة الباب ذرفت أم مسعود دمعتين ، ومسحت بطرف الخمار ما ذرفته العينان ، ونالت مسامع الزوج والأخ من لسانها ، الاحتكام إلى الله ، والتفاؤل بالخير ، ونبذ التوقع بالشر .. ولكن ما جدوى دمع الثكالى ، ورجاءات من يصفعن باليدين فلا يجدن إلا صداهما ؟

قال الأخ فى الطريق : للحكيم حتى يرضى ، فإن طلب المال اقترضنا ، وإن طلب السفر توكلنا ، وإن طلب ما لا يطلب بحثنا وبحثنا ، نقول له أب عجوز كما ترى ، ووالد لأطفال فى البيت يلعبون وفى المهد يستجدون .. فافعل ماتجد أن الشفاء فيه ،

حدث النفس عن الموت ، ورأى ما لا تراه إلا أخته من تعب الحياة بعد موت الأب ، وحماية الزوج .. صال وجال فى ثنايا الأمور ، وترك الخوض ، والتدبير على رب العباد .

قال الحكيم ، منذ متى وأنت تشتكى ؟

رفع أبو مسعود أصابع كفه اليمين . . هزها مرة ، وزاد إصبعين ، وإصبع . . ثم ألحقها بعدد من السعلات وأنة طويلة .

وقال الحكيم ، تأخرت يا ابن العم .

ردد مسعود ، اقترب الموت ، وقلّت الأباصير ، ودنت القدم من الحفرة .

فى البيت أطفال وزوجة ، وسقف من الخشب والطين مائل ، وحمارة تنهق مع الأذان ، وأحلام فى الصدر تموج بيوم يطفر فيه رزق الأولاد ، فيقطعون أيام العناء ، وفقر الأيام .

جاء الأخ ، وأناخ الجمل . . فرغى الجمل ، وقدم وأخر فى الجسم الممدود ، فاقتربت أم مسعود ، ولملمت «البطانية» على جلد وعظم ، وعلى حافة اللسان . . دعوات بعدد نجوم الصيف .

على الفراش المهمل فوق الأرض وقرب الملّة . . قال ، اسقونى . . رفع السبابة وأرفقها بحلقة أفجعت الأطفال . . انطفأ التنفس العليل .

قال الليل : قل لى يا يتيم القرى ، من أين تأتى اللقمة والكساء ، إذا شح ثمن الدواء منذ سنين مضين فى عدتها ثمانية ؟

قلنا نحن الأطفال ، لماذا يموت الناس ؟

١٩٨٦/٧/٢٨ – الدمام

السنبلة السادسة

التوقد والمصير

أمّا أنه يقرأ أو يكتب ، فلا .

وأما أنه يتعلق بالعلم والمتعلمين ممن يكبرونه أو يصغرونه فى العمر . . فنعم .

وأما أنه قد حدَّث نفسه بالدخول إلى فصول «محو الأمية» فى القرية . . فهذا قد يحدث أحيانًا ، ولكن كيف يكون هذا ، وهو يرى أن العلم لا ينفع إلا فى الصغر ، وأن عقل الشايب لا مكان فيه لتقبل العلوم الجديدة ؟

ومع أن أندادًا غير قليلين . . نبذوا الكلام القديم وأمثال الذين يرون أن قطار التعليم مرق ولن يعود . . حاولوا ضمَّه إليهم . . إلا أنه لم يجد فى داخله الحماس .

وماذا أفاد التعليم فى أمور الحياة . . هل علّمنا كيف نحرث الأرض أو نسقيها ، أو كيف تنزع شوكة تطؤها القدم ، أو حتى كيف نعاف التدخين ؟

(المدارس تعلِّم القراءة ، وتُعلِّم الكتابة ، وحفظ القرآن والحساب . . لاأريد أن أكون فقيهًا ، وليس لى أموالاً أو تجارة لأتعلم الحساب) .

هذا جوابه ، وهذه ردوده التى يغير من تراكيبها ويحافظ على مضمونها . وقتما يقرعونه بالسؤال عن العلم والتعليم .

أراضيه التى ورثها عن أبيه .. كانت قليلة ، وكانت تنتج ثمرًا بعد الزرع والعناية ، يكفيه أغلب شهور السنة .. أما الباقى فيأتى من عند الله ، ولزوجته «عزة» الحب وإدارة البيت والشتائم ، وبها تلصق أسباب الهموم الكلام .. وقتما تضيق الحال .. إلى أن يغيّره مدبر الأحوال .

وحيث أنه يأكل فى اليوم والليلة وجبة واحدة مقواة بالسمن أو الدسم .. فإن السجاير التى يصل استهلاكها فى اليوم إلى ستين سيجارة ، وقد تزيد .. لا تستطيع أن تنال من الجسم الأسمر النحيل ، إلا التقبل والمزيد .

للرجال فى ثيابهم ثلاثة جيوب .. على الجنبين ، وفوق موضع القلب واحد بارز صغير للدراهم أو الحاجيات الصغيرة التى يحتاجونها فى ذهابهم وإيابهم .

وعند الشايب «سعيد» جيب تأخذ اليد فيه دورتها ، يسع ثلاث علب من السجائر . وولاعة بلون الفضة تعمل بالبنزين والفتيل .. وإنك لتدور فى كل القرية على مثلها فلا تجد ، ولو فقدت من الجيب ، لعرفها الصغير والكبير . وكان لثوبه بهذا الجيب الصدرى الداخلى ميزة تعرفه عن بقية الثياب التى يلبسونها الرجال .

وقد يضرب بالشايب « سعيد » المثل فى تدخينه للسجائر وشرب الشاى الثقيل ، الذى يزود بالسكر حتى ينافس العسل فى مذاقه . . فترى أهل القرية يقولون على من يدخن كثيرًا : « أنت مثل سعيد ، أكلك وشربك ، كله دخان » .

وذهب بعضهم إلى أن الشاى الذى يشربه « سعيد » يمكنك أن تغرز فى وسط الفنجان ملعقة ، فلا تميل من قوة تركيز الشاى فيه وزيادة السكر .

وعلى أى حال ، فإن هذه الأقوال ، وغيرها . . قد تكون ولجت من أبواب الدعابة والمبالغة ، لكنها لا تبتعد كثيرًا فى حقيقتها عما يحدث .

* * *

إن الشايب «سعيد» هو أول من كان يضرب على صدره ، وقتما تنوب النائبة ، ويقول أهل القرية : « يا فلان كذا ، وعندك يا فلان كذا » ويكاد يكون فاتحة المساهمات فى كل الأمور التى تحتاج إلى مساهمات . . سواء بالدراهم أو بغير الدراهم ، ومع أن هذه الأريحية لا تغيب طويلاً عن رجال القرية . . إلا أن المبادرة أيضًا لا تغيب عن الشايب « سعيد » ولا تغيب عن المتندرين التعليقات . ولقد صادف مرة . . أن دعى الجماعة إلى مشروع بالمشاركة ، وكانوا جميعًا فى مجلس واحد . . فنهض

الشايب «سعيد» وحلّ حزام خنجره الطويل الذى لا يحلّه إلا وقت النوم .. فوضعه وسط المجلس ، وقال ، « هذا خنجرى حتى أحضر الدراهم » . والشايب «سعيد» هو الذى يُسعَد سعادة الابتهاج ، وقتما يحتاجه أحد .. فيلبى حاجته ولو بدون طلب .

أما المال والبنون وزينات الدنيا .. فإنها مقترة عليه ، وأما حب الناس وإغاثة الملهوف وعسرة الحال .. فإنها تكاد تتوازن فى أحوال كثيرة ، وإذا ما تقطعت السبل وشحت الأسباب .. فإن لكل حادث حديث ، وما جعل الله من عسرين فى ضيق واحد .

يقول الشايب « سعيد » إنه قد تمر به شهور ثلاثة لايشرب فيها الماء ، ولا يعرف أين هى الطرق التى توصل إلى المستشفيات والحكماء ، ولقد احتواه مرض أقعده على الفراش ذات سنة .. فعلم أن السبب يعود إلى تركه للسجاير لمدة لم يتعود عليها ، فعاد إليها ونهض كالحصان .

إذا ما عَرَفَ عنك أنك متعلم .. فإنه يقيسك بأسئلته المعروفة عند أغلب المتعلمين فى القرية :

«إذا كنت متعلمًا .. فقل لى ، ما هو الأول الذى ليس له ثان ، والثانى الذى ليس له ثالث ، والثالث الذى ليس له رابع ؟» ويذهب بك إلى العشرين ، وإذا ما أجبته بجواب لا يعجبه هو

فإنه سيقطع مواصلة الأسئلة معك ويتهمك بالبلادة . . فإن سألك من يكونا الاثنين الذين لا ثالث لهما ، وقلت إنهما الرجل والمرأة . . قال : أنت لم تتعلم . . إنهما الليل والنهار ، وهكذا . .

وكثيرًا ماتحدث المشادات بينه وبين أولاد المدارس (كما يسميهم)، ولقد استطاع مع الزمن ، تحصيل معارف قليلة وتقليدية مع من يجالس من كبار السن الذين تعلموا فيما يشبه «الكتاتيب» سابقًا .

والشايب «سعيد» يحب الأسواق ، ويتتبع أخبار الأسعار ، وأخبار القرى والقبائل وأنواع السجائر التى لا يمكنها جميعًا أن تضاهى النوع القوى الذى يدخنه . ولكنه يكره أن يتعدى أحد فى الكلام ، ويكره أن يُغتاب أحد ، أو يقلل من شأن الرجال (فالرجال لايجوز النميمة بهم أو عليهم) .

* * *

هذه الأيام ، وقد تغير وجه الأرض ، وترك الناس مزارعهم ، وأصبحت السيارات تصل كل البيوت ، والتليفزيونات تُسهرهم إلى ما بعد أنصاف الليالى ، وكل شىء يدار بالكهرباء فى أغلب القرى البعيدة . . فإن الشايب «سعيد» يجلس فى ركن داره العتيقة ، وعلى الجدار خنجره الثمين ،

وأمامه على طاولة من الخشب مغطاة بقماش مزهر تليفزيون ينقل الأخبار والصور الملونة وتجارة الحروب ، واختراعات النصارى ، وكل ما يعجز العقل عن استيعابه ، وقد ذهب الاثنان أربعة ، والعشرة ثلاث ، وأصبحت مصادر الرزق جميعها إن لم تقم على الدراهم . . فقد دنا الصبر ونهض الكلام الكثير ، ومن لم يجد فلا يمد يده إلى أرض كان يرزق منها . . يبيعها ليزرع المبتاع مكان الزرع أشجارًا لاتثمر ، من الأسمنت .

وحيث أن الشايب «سعيد» ليس الوحيد الذى مد يده إلى أراضيه الزراعية القليلة . . فباعها ، أو باع بعضها . . إلا أن أهل القرية ، قد انحرفوا انحرافًا شاملًا ، نحو التباهى بألوان وأوضاع البيوت المسلحة بالحديد والأسمنت ، والتغاير فى أنواع السيارات ، أصبح الآباء يفاخرون بأبنائهم المتعلمين ، والذين يعملون فى المكاتب والمدارس والمرافق المتعلقة بالحكومة ، وراحوا يطردون ذكريات الشباب التى لايمكن لإنسان أن يقفز عليها ، وأصبحت تلك الأيام التى قامت على التعب والزراعة والشح ، تتعرض للسهو ، ولو أن ممحاة القلم تقدر على محوها ، لفعلوا .

وقد حدّث الشايب «سعيد» زوجته «عزة» ذات ليلة مملة فقال إنه لو علم ما سوف يحدث فى ذيل أيام العمر ، لتزوج

بأكثر منها : واحدة . . وثانية ، إلى أن يكتب له الرزق ويأتى الولد ، فاشتد الجذب فى الكلام ، وبزر لسانه القانى من بين فراغ الأسنان الساقطة . . يتحرك كمروحة ، وقالت الزوجة إنها تحملته ، وصبرت معه على أيام الدهر ، وهؤلاء هم الرجال ، لايعرفون صبر النساء ، وأنه لم يفكر فى مثل هذا الفعل ، إلا عندما رأى أهل القرية يستعرضون بأولادهم وأموالهم ، ولم يعد للشايب إلا أن ينتزع طاقيته التى تمنح القريب منه رائحة الجسد الآدمى ، ويلقى بها بعصبية مفرطة إلى جانبه ، ثم يضع ساقه النحيلة السمراء على الأخرى ، فى جلسة من يود فرد كتاب كبير على حجره ، وراح يهزها ، ويصفع بكفه على ركبته وهو يردد مرة ومرتين بكلام محدد على هذا الشأن :

« علىّ الطلاق من هذه الركبة » لو أن واحدة ترضى بشيبتى لأتزوج .

استدارت الزوجة ، وصفقت فى كفيها بقوة ، وهى تؤكد بصوت يسمع من خارج الدار ، أنه لم يعد بقادر على التحكم فى كلامه ، وأن خرافة المشيب لم يسلم منها فى آخر العمر .

وكانت الزوجة وأيضًا الزوج يتوقعان أن أحدًا من الجيران ، سيسمع الشجار ، ويطرق الباب . . ليفصل بينهما بكلمة طويلة . . يستعرض فيها تاريخ الزمان والمكان ، وكيف كانا ،

وكيف أصبحا ، وأنه من العيب أن يحدث مثل أقاويلهما . . ثم تنتهى المعركة . . بأن تذهب الزوجة فى بطء إلى الركن المقابل . . فتشعل «الغاز» وتصنع الشاى الثقيل .

غير أن شيئًا من هذا لم يحدث . . فالناس لم يعد أحد منهم يسمع الآخر ، وأصوات التليفزيونات ، وضجيج الأطفال ، وأصوات صادرة بين اللحظات . . تأتى من مرور السيارات . . كلها قد عزلت الجيران عن بعضهم ، واحتلت هدوء الليل الذى كان لا يشوهه سوى صفارات الصراصير ، ونعيق الضفادع عند مجارى مياه الوديان .

وبقيت نار الكلام تخمد قليلاً . . قليلاً ، إلى أن قرر الشايب الصمت ، مد أصابع يده اليمنى إلى علبة السجائر . . فانتزع سيجارة ، وراح يدخنها فى بطء شديد . . آملاً أن تتحرك النخوة المباغتة فى نفس «عزة» لتصنع له الشاى الثقيل جدًا .

وكانت النخوة قد أبطأت طويلاً هذه المرة . . وها هى «عزة» تضع ذقنها على بطن كفها مرتكزة على ركبتها . . باسطة نظرها إلى شاشة التليفزيون ، التى تعرض نشرة الأخبار المصورة ، والتى لاتكاد تعرف عن أحداثها . . سوى أن الحروب لاتزال قائمة ، واندفع الشايب «سعيد» بعد أن كان هو الآخر يزمم حاجبى عينيه الصغيرتين ، ويملأهما بالصور التى

تصاحب قراءة النشرة . . اندفع مغتاظًا على التليفزيون ودفع بإصبع التشغيل إلى الداخل فانطفأ التليفزيون ، وظلت «عزة» قليلاً تسمر نظرها كأنما لا تزال الصورة قائمة .

مشى الشايب خطوتين عصبيتين إلى الباب ، وتمنى لو أن الوقت نهارا ، ورأى أن يفتح الباب ويطل على ظلمة الساحة . . توقف قليلاً خلف الباب المغلق ، وكانت يداه متشابكتين فوق عجيزته . . كعادته عندما يكون قد شغله شاغل ، وفى هذه الأثناء سمع صوتًا لمفاصل ركبتى «عزة» مما يعنى أنها قد نهضت .

وقفت على قدميها الصغيرتين ، وشدت ثوبها الطويل ذا الزهور الكبيرة الداكنة إلى الأسفل ، حتى استوى يغطى مافوق القدمين ، ويحيط الجسم الممتلئ برغم ظهور تفاصيل الجسم من وسط الصدر وأسفل الظهر ، ثم عمدت إلى ركن الغرفة حيثما يقع مطبخها النظيف والصغير . . فوضعت إبريق الشاى على «الغاز» بعد أن أشعلته بتثاقل .

ولم يعد للشايب من عذر فى التماس المسببات . . فقد جاء إلى مكان جلوسه وقعد ، مد يده إلى علبة السجاير واقتطف سيجارة . . ظلت بين أصابعه فترة طويلة وأشعلها ، أما «عزة» فراحت تحضر عدة الشاى ، وتدندن بلحن حزين لقصيدة تكرر

مقاطعها مرتين . . مرتين ، وعرف الشايب أن الزوجة ترغب فى إعادة الأمور إلى أنهارها .

ولما جاء الصبح الأول . . نهض من فراشه مبكرًا كعادته ، ونهضت «عزة» التى توجهت إلى صنع الشاى الثقيل ، بينما كان الراديو يصدح بصوت أحد المقرئين من سورة « المرسلات » .

دخن الشايب كثيرًا ، وقام إلى ملابسه فارتدى ثوب الخروج ، فوق ثوب البيت ، وهى عادة ألف عليها منذ زمن طويل بأن يلبس ثوبين على بعضهما ، وأخذ يزود جيب الصدر الداخلى بثلاث علب من السجاير ، ثم قال بصوت خفيض إنه سيخرج .

كان الأطفال عندما يلحظونه . . ينادونه بـ «العم سعيد» وكان يحبهم ويحنو عليهم ، أما هم فكان حبهم له مرتبطًا باللبانة المحلاة التى كان يوزعها عليهم ، فمن سنين قليلة يشترى اللبانة ، ويوزعها على الأطفال وقتما يقابلهم فى محبة شديدة طامعًا فى إيجاد تواصل وثيق معهم .

والحقيقة أن هذه المحبة تكاد تتدفق بحرارة مفرطة ، من زوجته «عزة» التى كانت تحب الأطفال وتدعوهم معها إلى البيت لتقدم البيض المسلوق ، أو الحلوى ، أو اللوز ، وتمسح على رءوسهم ، وتحذرهم من التلهى فى الساحات لكيلا يصيبهم البرد فى الشتاء ، أو ضربة الشمس فى الصيف .

كان الذى يشعل الحسرة فى جوانح الشايب «سعيد» أن الكثير من رجال القرية ، قطعوا علاقاتهم تقريبًا به ، وأصبح البعض لا يرد عليه السلام إلا بـ «طوط» من بوق السيارة . . فعندما تجمع الصدفة الشايب ، بأحد أبناء جيله من الكهول فى طريق السيارة الذى يشق القرية ، ويكون هذا الأخير إلى جانب ابنه الذى يقود سيارته . . فإنه يأمر ابنه بالضغط على بوق السيارة . . كأنما هى التحية من وراء الزجاج .

ولشد ما يتحرق قلب الشايب ، على هذه الطريقة فى المصافحة . . لكنه دائمًا ، يرفع يده اليمنى محييًا مبتسمًا .

ويذهب البعض فى التندر به ، واستعراض طريقته فى اختبار المتعلمين من «أولاد المدارس» ، ولم يسلم من اعتداءات البعض على أراضيه القليلة ، فقد نشبت دعوى امتدت لأكثر من سنة ، حول طرف إحدى أراضيه القريبة من عمار البيوت الجديدة لأهل القرية . . وكادت تذهب من بين يديه ، لولا أن شيخين شهدا للشايب «سعيد» فى المحكمة أن حدود هذه الأرض ، تشمل القسم المدَّعى فيه . وكانت النهاية أن يبيعت هذه القطعة بثمن ليس قليل ، وإلا فمن أين يمكن للشايب أن يعيش كما يعيش غيره بالدراهم ؟

* * *

بالطبع ، فهو لايملك سيارة . . بل من الصعوبة أن يتصور حاله جالسًا خلف مقودها ، أما احتياجاته التى لايمكن إحضارها أو قضاؤها إلا بالسيارة فى هذه الأيام . . فإن شباب القرية فى مشاويرهم ، يقدمون له المساعدة فى حدود أوقاتهم وظروفهم . . بل إن غالبية الأحوال تستطيع أن تسيطر فيها المروّة والخجل لفعل ذلك .

إن فى إمكان الشايب «سعيد» أن يبيع جزءًا من أراضيه القليلة ، ويبنى بيتًا بالأسمنت والحديد ، مثل باقى أهل القرية ممن يملكون الدراهم . لكنه يراهن دائمًا على أن القوم . لابد وأن يعودوا يومًا إلى الزراعة ، وفلاحة الأرض ، ويؤكد على أن الأرض باقية بينما الدراهم فانية ، ويرى أن هذا الأمر لن يطول ترقبه ، وربما يحدث بين عشية وضحاها ، لكن يقول إن الناس لا يعلمون ؛ لأنهم نسوا أنفسهم مع الدراهم ، ولا يحبون تذكر أيام التعب والأرض الزراعية .

جاءت الأيام ، فنسجت حوادثها ، وغزلت الشعر بالبياض ، فكانت الأصابع تتعب حتى تصطاد الشعرة الشايبة فى الرأس أو اللحية ، ومع طبيعة حدوث هذا الغزو الذى يأتى على القلب قبل الشعر . . فإن الشايب «سعيد» كان يرجع علامات السن الفاضحة هذه إلى واقعية فعلها ، لكنها لا تعنى بالضرورة أن الإنسان قريب من الهلاك .

صحيح أن النشاط قل ، وهاجس الزواج فتر فتورًا خامدًا ، لكن القلب لايزال يشتعل بحب الحياة ، والتقرب إلى الناس ، واقتناص ودّ الأطفال ، غير أن هذه الأمور تأتى من خلف أسوار المصير ، الذى أوجد الجلوس الطويل أمام صندوق بلاستيكى ثقيل ، اسمه التليفزيون ، واسترجاعه أيام الصبا ، ورائحة الطين ، وطعم السنين الراحلة التى لم يبق منها سوى ما التصق بالذاكرة اليانعة بكل التفاصيل ، إلى أن يجىء الموت ، ليس عليه وحده ، بل على أهل جيله ، ولو غرقوا فى غياب الدراهم .

١٩٨٦/٨/١ - الدمام

السنبلة السابعة

رسالة فوق البوح

مدينة الدمام فى ٦ مارس ١٩٨٦ م

صديقى جدًا . .

إليك أكتب هذه الرسالة ، وقد اختلطت فى الذهن اعتبارات عدة ، لم أسلم من تجاوزها وأنا أتحفز ممسكًا بالقلم ، أهمها حالتك فى الغربة والتى لا تحتاج إلى من يضيف على أكوامها كومًا . . لكننى ، وبحب ، أحببت أن أكتب إليك وأعطى بقدر قوتى ما استطعته منها .

وبعد . .

هموم النفس بالغة فى الداخل ، وهموم الداخل . . تكاد تغلب على كل نظرة فى الحياة ، ولكن من قال إن الهم أعظم من الإنسان !

اليوم ، صحوت - كبعض عادتى - مبكرًا جدًا ، وذهبت بنفس صباحية إلى المستشفى ، غسلت دمى ، وجلست مع دمى ساعات أربع . . قرأت فيها أغلب الأمور ، الحية والميتة ، وجئت أنت بخاطرى ، وأناس جميلون ، وكنتم كالصباح الممطر فى جدب هذه الصحارى ، ووجدتنى أغرق فى معان

لا حاجة بى لذكرها ، فى الحياة والموت ، وكنت أرغب بشدة فى أن أصرخ ، وكنت أرغب لو أنه كان لـ «لهب السيف نيرودا» . . لكننى عدلت ، وما أكثر ما يعدل المرء عن أشياء ملحة يرغب فى تنفيذها . .

كتمت فى حلقى ، وهاجت بدمى تداعيات مشتعلة ، فلعنت (الشيطان) ، وقلت : ياصاح . . مالك وللخيال ، من هذا الباب الأصفر المفتوح . . أتيت ، ومنه تعود ، وذكرت على حين غفلة من السرحان ، قول «مالك حداد» ، و «لماذا يصاب العرب بالقمل فى رءوسهم»؟

كدت أضحك بمرارة ، وأخذت أقيم معادلات بعضها موضوعى ، وبعضها يكاد يعجب بهذه السخرية الشعرية ، ورأيت فيما عادلته ، أن القمل ليس بعنصرى ولا قبلى ، وربما أنه يضطهد بعضه بعضا ، وربما أن ليس له أذناب فى الداخل ، وقلت - كما قال مالك - فى ذات مناسبة كتابية ، «لا . . بل هى المصيبة تعرف كيف تختار مكانها . . » .

ترى هل هذا صحيح ؟ إنى أسألك .

صديقى :

منذ مائة عام وأنا أحبك ، لكن الذى يبدو «هنا» أننى قد خلفتك وراء قطيع من أحاديثى عن نفسى .

معذرة ياصديقى ، ألا تعتقد أن الرسائل إلى الأصدقاء الحميمين ، هى بكاء ورقص وأغان ، وتراجيديات لايمكن أن تقال إلا لهم ؟

إذا ، فاعذرنى ، واسمع نزف قلمى :

قرأت مرة أن العاشق لكى يثبت عمق عشقه لحبيبته . . لابد أن يقدم نفسه قربانًا لها ، فيذهب إلى جزار المدينة ، أو القرية ، ويدعوه بـ «ساطوره» المميت ، كى يشبعه فى رقبته أمام حبيبته ، وقد يقضى وقتًا عريضًا فى الرجاء ، وتوضيح أنه ليس بمجنون ، وإنما هو عاشق . . على أى حال ، هذه ليست «نكتة» لكنها حقيقة وردت تحقيقاتها فى مواطن كثيرة .

أمّا مناسبتها ، فقد تذكرت من قدموا أنفسهم بالآلاف ، فى بلدان كثيرة ، ونثروا دماءهم رخيصة على تراب الأرض ، على أى حال . .

إن (ديننا الحنيف) يفتى بأن قاتل نفسه فى النار .

سمعت يا صديقى ، أن فلسطيننا ستعود ، لا تعجب ، فبيتين من الشعر العمودى ، تعيد كل المنزّحين والمهجرين والمغتربين إلى أوطانهم ، ولا تثق فى السلاح والرصاص ، والفتك النووى . . فكلها أمور لا تتغلب على قوة الأعداء ، بل بالشعر المقفى ، والخطب وكلمات الحفلات ، ولا تستعجل فإن « غدًا لناظره قريب » :

بعد ، لا أزال أدخن ، وبشراهة ، وقد أكدت فى مناسبة هزلية :

« أنت تدخن ، إذًا أنت موجود» . قل لى ، هل لا تزال تحب التمر والقهوة ، وماذا تفعل بحبك هذا فى بلاد « النصارى » :

أقترح أن تتبع طريقة أجدادك فى مناجاة الحبيب . . واسهر على ضوء القمر ، استعذ بالله من كل وسواس ، وألهم قلبك النجوى ، ولا بأس أن تغنى بعدها بعضًا من شعر ابن أبى ربيعة .

« حبينا تجديد العهد بكم ، وطمئنونا عنكم » .

ودمتم سالمين ، والسلام .

من مجموعة

« موت على الماء »

إهـــــداء

للغرباء

الذين تنتحر خطواتهم على

سواحل الصمت

الفارس قديما .. دخل المدينة

حين عاد صاحب الأوتاد .. كان يحمل بين يديه جذوعًا .. ينثرها على طول الطريق العريض .. يتشبث بأقصى الملاحم ، ويطارد عناوين الحروب . ثم يخرج مجدوع الأنف .. لا يرى علامة من أجلها رحل بالأوتاد !

* * *

كان يحمل بين يديه جذوعًا .. ينثرها .. يبللها عرض الطريق - يمر مر الكرام - ويغمس ذاكرته بقسوة .. يضغط عليها وسط راحتيه .

يسير يتخبط بإعياء .. يلمس نهودًا .. يلمسها تتماوج داخل قميص أصفر تفوح منه رائحة الجفاف .. يعثر على قطرة من العطش طافية .. يخلع عليها ملابس .. تقذف به القطرة إلى شفائف القفار .

* * *

تلوح من بعيد عناوين الحروب .. تنقض مغبرة .. ذوبًا حارقًا يسرى داخل الأعمار .. الفارس يقفز .. يلثم سحب الأحزان .. تسبح بلون الشرايين .. تسبح .. تتمدد على تضاريس جسم محترق .. تتعلق رائحته برموش القمر .

يمسك الفارس بعنان فرسه . . يقبض عليه بشدة . . يعصره بين أصابعه المشتعلة .

* * *

يعرف أن وقت الذبول يقترب . . يدنو من حطبة تائهة ويفترش رذاذ الصحراء ، يدفن يديه . . يدفن يديه . . يدفن يديه ووجهه . . يبلل سهامه . . يغسلها من ماء القلب الحميم . . السماء تربو دمامل متحاشدة كالحصباء فى الهجير .

الفارس أذناه تسحقان صوتًا ممطوطًا . . تسحقه أجران الجذور المعتقة فى خباياه ممتدًا طويلاً . . الصوت يقترب . . لا يقترب . . ينسكب فى الأبعاد العميقة . . ينبسط كمخالب أرنب برى . يقفز الفارس . . ينتعل صهوة جواده . . ويطارد الأصداء . . يتصيدها فتتشتت فى حناجر الكثبان . . تحملها الرياح الهوجاء . . تعلو تارة فوق الآمال السرية على المناكب . . تهبط حذر الكعوب الموصدة المدفونة . . تارة !

* * *

يدخل الفارس المدينة متقلدًا صارمه الخشبى . . طال به الصيام . . يكاد يأكل لحم عضده . . يميل منحدرا يسلخ أوهام الجوع ليلقيها وراء ستارات الشبق . . ويتبع خيوطًا كالدم . . إنها تحفر الأثر . . لعله يهتدى . . إنها الطريق التى لا يجهلها

غيره . . يلزم الطريق . . يقضى يوم زمانه يتجول بين براقع المدينة . . يشحذ المارة خبزًا . . يستسقيهم . . لا يفهمونه . . لا يجيبونه . .

يقف مرتفعًا . . يكشف عن بطنه . . يكشف عن . . علامة الطوى تحترق على الغربة الشبقية الشمطاء .

يتقدم أحد المارة ويلكمه بيد حديدية وتسيل شبعا . . يضحك الجميع يمطرونه بعبارات التشجيع !

يصرخ الفارس ويحزم جوعه الكاسر . . يعصمه بأنات يعلوها تسرب ينبوع من الحزن المعتق فى الداخل . . يشير إلى فمه . . يرفع سبابته عاليًا . . يرفعها فوق رأسه . . يغرزها فى شفتيه الملتهبتين ظمأ . . يتقدم كريم . . يحمل كأسًا صغيرًا بداخله ماء ناضج . . ويصطدم بأصابع سهام إلى عينى (الفارس القديم) الزائغتين جوعًا .

* * *

ينزل الفارس إلى جواده . . يرتكز عليه نحو الطريق المغبر . . المغبر .

يفتش عن وشل . . لايجده . . يجده منتزعًا . . يمرر بيديه على أعطاف القميص المفضض . . ينثر هشيمًا . . يتطاير أمام أجنحة الرياح المتهدلة . . الجفاف . . الجفاف . .

والعطش قطرات حامية تهدده . . أنات العمر المسروق . . تهدده . . لا تهدده . . لا

يمضى (الفارس قديمًا) بين الأعطاف المتهدجة . . يبحث عن أمل سرى مسحوق . . يجد له رائحة الشواء تنفذ إلى مداخل البحث .

يقفز ويصفق ويدور حول جواده الذى . . الذى يبدأ يداعب صهيله . . ينقب زوايا السكون . . تتجاذبه رءوس الكثبان فى بطء شديد .

يرقص الفارس على مواطئ قدميه . . يفقد صارمه الخشبى . . تزدرده بلاعم الصحراء . . تودعه بطنها الحلزونى الطويل . . تخفيه عن الأحداق الملتهبة بحثا . . يعود الفارس . . يتمرغ كالثعلب فى «الدميسة» . . ويعود ينقب عن سلاح هامد فى حلقات العدم وحين . . حين . . حين قال : لو أنه حاد لما غاب فى رغاوة الزبد الحصراوى الكثيف !

السماء .. والحناجر محترقة

اتشحت أوراق اللوز بخضرة مذهبة .. رفرفت كأجنحة الطير ، وفى خفة وبطء كانت ترسل حفيفًا مثرثرًا وسط هذا الصمت وكان يسيل على الصخور .. شجر الطلح .. الطريق المنساب الخالى .. صمت دقيق وشفاف ، الهواء يهب باردًا وخفيفًا .. رائحة النسيم تظلل كل شىء ..

الأشياء نائمة .. هادئة ، فى حين بدأ النور يتسلل فى كسل وخجل .

العم عاطى يطل بوجه متغضرف ، وأنف كالضفدع المسلوخ ..

من النافذة الخشبية كأنه صورة شيطان فى إطار عتيق .

أطل بنظرة متراخية وغائمة .. شملت بيوت القرية .. وهى تبدو كحبات تين متناثرة على خوان أصفر ، بين البيوت الصخرية .. : تقافزت عواميد متفرعة من الأشجار الهزيلة .

الأنظار جميعًا ترقب السماء .. والسماء تظهر مجدورة ، ثم تكنسها الرياح .

والأرض ترقب ..

والأرض تلهث والزرع

لكن الرياح تصنفر هذا الوجه المبقع الرغوى فيبدو حليقًا . . شاحبًا .

* * *

كان العم عاطى يطل بوجهه . . ويرى الخلجان فاغرة جافة ومغبرة .

كانت الحشائش كشعر ماعز . . إبرًا لا حياة فيها . . جافة هشة .

وكانت تتثنى ثم تسقط متكسرة . . رياح السحاب تحمل عواءً وتتسرب جافة . . حارقة .

* * *

العم عاطى . .

يسقى زرعه من البئر المجاورة . .

ثوره «حبيش» ينتزع الماء من البئر . . يشف ماء . . البئر ترشفه ببطء . . يتدرج ليصبح وشلا .

العم يجرجر ثوره «حبيش» ذا السنام المائل كأذن القرد . . مع انبثاق النهار الجديد .

تنقط على لثام السكون المرطب بالنسيم . . أظلافه القبقابية . .

خفوتًا طريًا . . يتفرع صوت العم عاطى . . يصطفق بالحجارة المتساندة على حافتى الطريق .

. . . يامقسم الأرزاق . . .

الصباح رباح . .

يا عيال الحلال .

* * *

الصباح رمادى .. غائم .. وقاتم و .. قاتم هذا الصباح .. ممتقع !

السماء مغلفة بالكحل .. تزحف مثقلة .. تمنى بماء أسود .

(الثور حبيش .. يحمل على ظهره حياة هذا الزرع .. ويحمل « غربًا » كبيرًا .. كبيرًا ومملوءًا بماء البئر ويحمل « دلاديل » مهذبة .. ينزعه من البئر .. ويحمل حبالاً من جلود إخوته .. بطول البئر .. يحمل أحزمة وأكتافًا من الخشب .. وحلقًا حديدية .. عدة « المجرة » لنزع الماء) .

* * *

« حبيش » . . .

يحمل مؤونة .. تعب العم عاطى .. وعنايته ، « حبيش » يحمل « غربًا » كبيرًا ومثقلاً بالماء «يعلهى» به كل يوم .

تغدو البئر قاعًا .. تنفث رائحة الجفاف .

الزرع لم يعد يمد أكفًا خضراء .. يتسارق القبل .. يتمايل

فى غضون .. لم يعد .

تيتم الزرع ..

رائحة الجفاف تنفث .

والبئر « قاع صفصف » .

* * *

هذا الصباح ممتقع ..

السماء مكتحلة .. والعم عاطى ..

لا .. إنها مكنسة منظفة وقوية .. الرياح ..

يا مقسم الأرزاق ..

الصباح رباح ..

يا عيال الحلال ..

وهذا اليتيم يمد حناجر جافة يابسة .. ويشغر إلى السماء .. يبسط عروقًا .. ويفتش عن ندى الزرع ..

تتهدل أذرعته الرطبة الخضراء .. تتفصد من شرايينها الحياة ..

تيبسها الرياح ، تقف شاحبة .. وتمد حناجر جافة ومحترقة ..

تشغر إلى الأعلى .. الأذرع تشيخ خضرتها وتصفر .

العم عاطى .. السماء .. الزرع ،

«حبيش» .. مؤونة العيال .. الأذرع تقف شاحبة .. جافة ويابسة .. تبث حزنًا مسحوقًا وحارقًا .

يا مقسم الأرزاق ..

الأرزاق ..

.. يا مقسم .

الأوعية .. الأنظار ، السماء ،

... والرياح مكنسة قوية منظفة .

* * *

وهذا الصباح ممتقع

الصباح رباح .. يا عيال الحلال ، والسماء .. ما كل هابطة رحمة ..

أمطرت مرة حجارة .. ومرةً أمطرت ذهبًا ، لكنها تزحف وتحمل .

الصباح رباح .. الرباح .. الصباح ، والصباح ممتقع .. أجهم الوجه .. غضب ،

السماء .. تقيء .. وتنهمر .. وتقيء ماء قوية وكثيفة .

أمطرت مرة ..

ومرة أمطرت ..

ما كل هابطة رحمة .. والسماء ..
تقىء حصباء ..
وتقىء ماء .

* * *

تمايلت رءوس جافة ..
ترجرجت .. تمايلت وتهافتت ..
مهجورة .. عفنة .. الأوراق الصفراء ..
وتذوب فى الماء الأسود ..
كان يمضغ لسانه ..
كان يلوكه فى امتعاض وقسوة .. و
كان قلبه يمتلئ بالسخام ، العم عاطى .

شوارب .. شوارب القطة !!

دخلت القطة الجائعة تحمل فى رقبتها رسالة صغيرة ، وقد أخذت تتذبذب فى صدرها .. بين يديها ..

كانت نافذة البيت شبه مفتوحة .. الهواء البارد يغازل درفتيها ويقبل زجاجها الماسى .. تهرب إلى الحائط .. تهرب فى تكسّر وتعود لتمنح الهواء قبلات خفيفة .. فى سرقة عن المزلاج الحديدى الذى يرتج أسفل فستانها .. وزوبعة شعرها حين يشنقها دون رأفة .

* * *

كان الأولاد يلعبون مع أبيهم .. حين دخلت القطة بهدوء ..

سأل أحمد أباه ..

- لماذا خلق الله للقطة شوارب يا أبى ؟!

نظر الأب إلى ولده بتجهم وقال :

- ألم أنهك عن الأسئلة السخيفة يا ساذج ؟!

لم يتكلم أحمد لكنه «نط» بخفة إلى القطة لما رأى ورقة حمراء صغيرة تتعلق من ذيلها برقبة القطة .. حين رآه الأولاد تطايروا نحوها .. أغلقوا زجاج النافذة فقط .. رموا القطة

بجوارب أبيهم الملقاة على طرف اللحاف الممتد إلى عنق الغرفة ذات النافذة الوحيدة التى تطل على الشمال . . إليه كان الأب قد تمدد واستنام على خصر اللحاف ، وكانت القطة قد قاومت معاكسة الأولاد فى تلذذ هارب . . عاكستهم . . لم تخدش أحدًا .

القطة تمطط جسمها . . تبدو كالحمل الصغير . . تقفز ثم « تنط » على ركبة الأب . . تموء وتلعق ذيلها . . تطالع وجوه الأولاد وتقرأ لهفتهم ثم تقفز . .

أحمد قال :

- سأنتف شواربها السهامية وألصقها على شفتى العليا .

قال صالح :

- سأقلم مخالبها وأطحنها . . أذرها على ساندويتش الصباح ثم آكله أمام الأولاد فى المدرسة بزهو وفخر !

كان على قد أحضر مشطًا صغيرًا . . مسحه فى عمامته بعناية . . واقترب من فروة القطة ليمشطا .

* * *

القطة سمعت الهواء يقبل زجاج النافذة . . علمت أن خدها الأملس يداعب شفتى الهواء . . يسارقها القبل . . نطت القطة . . وضعت يدها على كف على الصغيرة . . شحذ مخالبها . . تركت للدم مجرًى صغيرًا اختلط بدموع على . . ثم

نطت إلى حافة النافذة الشمالية الوحيدة .. عطفت رقبتها إلى الأولاد .. ماءت فى وجوههم وهربت إلى الخارج ..

فى كف على تلافت الأولاد .. تبادلوا ضحكة بيضاء ، كان الأب قد انتبه .. التفت إليهم قائلاً :

- لو رأيت القطة بعد اليوم تدخل البيت لقتلتها !

نظر الأولاد إلى قرار أبيهم .. ظلوا صامتين ، وتسرب سؤال أحمد إلى أذن الأب كوخز الإبرة :

- لماذا خلق الله للقطة شوارب يا أبى ؟!

غزال .. يلتحف أوراق الماء

رقص الخيل رقصًا طويلاً رتيبًا . .

نبت الغبار بين سنابكه . . تطاير بخارًا مبثوثًا عفنًا . . تحلوز . . تطاول . . غمر عنقه المستطيل الأهدب .

* * *

كان صاحبه يرقبه بأذنيه وأنفه . . وكان يتقافز مع إيقاعات الحوافر الصلدة . . قلبه ، الحوافر تقرع زمن الهبوب . . تمزق رحم الركود الصامت .

* * *

الرعاة يعزفون النفير وقد تباطحوا كالسحالى على الصخور . . كانوا يعزفون النفير . . و . .

كانت تشرئب أعناقهم . . تتدنى إلى ركبهم المتعبة . . عيونهم تتراقص . . وتقفز من محاجرها . . تموج . . تموج وتقفز . . تخطف الخيل صاحبه . . وكانت ترفس وتتراقص .

صاحب الخيل

يلعب بسوطه . . يناقله بين أصابعه . . يفركه . . ثم يضرب به وقع أقدامه الجافة المتشققة .

كانت أعين الرعاة تقفز . . تنثر شرارًا ، وكانت . .

تموج .. تموج وتقفز .. تخطف صاحب الخيل .. صاحب الخيل يركن إلى رائحة وقع أقدامه .. يلثمها بحد سوطه .

يناقله بين أصابعه .. يفركه ثم يضرب به ، وكانت جافة كالحطب .. متشققة .. تحدث اصطفاقات متراكبة وتنفث التراب : الأقدام .

* * *

الخيل ترقص بزهو وعنجهية .. تعانق الفضاء أهدابه الحريرية ، تتطاول غضة كثيفة .. تحلق فى خيلاء .. ترتمى على زهرة جبينه .. تهبط على عينين جاحظتين ظامئتين .

الأهداب الحريرية

تتطاول ذهبا .. سنابل قمحية كذوب القمر .. وتغطى عينين ظامئتين .

كانت تثير الرقص .. يسرى نشوة فى أعضائه .. يهز ذيله ويداعب الهبوب .

* * *

ترفرف .. تشغر .. تسرق الفضاء بقبلات شفافة .. خفيفة وخاطفة .. وكالريشة فى مهب الريح يداه .

وكانت تقبل الفضاء ..

والسحاب جناح أبيض منتوف الريش . . يكاد يسقط .

* * *

الرعاة يلملمون أحزانهم . . يحملونها ويحزمونها على رءوس خيولهم المهطعة .

الخيول تقودهم . . يتبعونها فى تكسر إلى الطريق المتعرج ، كانت تهبط بهم مهطعة حيث نقيق الضفادع .

* * *

الرعاة

يلملمون أحزانهم . . يلوكونها مواويل بطيئة منسابة . . تتقاذفها . . تطرب لها الأعشاب والزنابق . . تتبادلها أصداء الجبال المتعانقة . . طيور الجبال المحلقة دومًا : تمتص الأصداء . . تحمل الأصداء . . تطوف بالأصداء . . و . .

تنثرها كرذاذ الماء . . تنقط على صدر غزال كان قد ارتدى الوداعة . . التحف بأوراق الماء الرطبة الندية .

* * *

مهطعة الخيول تمرر أنوفها . . تدنو من الغزال وتلتقط الأوراق المطروحة اللينة . . بنهم تزدردها ، كانت تمرر أنوفها . . و . .

الخوف يسيطر على قلب الغزال صمتًا مرتعشًا . . يقفز . .

تقفز وداعته . .

تقفز ألفته . .

وكانت تتطاير ألحفته الورقية الرطبة كالريش .

***

على رءوس الخيل . . تلملم الأحزان . . الرعاة ينتحون بها نحو الطريق البدائى المتعرج . . حيث نقيق الضفادع .

كان هناك طبل يطارد مسامعهم . . كانوا يتذاكرون « رقصة الخيل » . . يغسلون أحزانهم بغبار المتاهات المتشبث بأقدامهم المنهوكة . . يأسًا .

صدى محترقٌ . . يشب على رءوس الجبال المتعانقة . .

محرقة . .

محرقة . .

الأحزان . .

رائحة الجوع .. والخبز غبار

قرعت الساعة كالطبل . .

قال صوت الطفل : إنه رصاص ، وحين تموسقت الأخبار قال : إنها من حق العساكر . . ضحك صاحب الامتحان . . كانت ضحكته تنتشر فى ركاكة . . كرائحة صندوق قمامتنا .

الأرصفة . . التائهون . . مساكن فى العراء . . ثمن السيجارة . . تمنيت بريقة . . الأرصفة . . سواحل الطرق تكتسى بالنوم . . ورائحة البحر فراش وقناديل . . تطير فى الأحلام . . تحلق أجنحة خضراء مكسرة .

قال الطفل : انتهى الفيلم . . وصمت .

* * *

زعيق . . زعيق والطفل بنظراته يشحذ أفواه المدخنين . . يرقص بملء ساقيه النحيلتين . . فمه يلوك عبثًا . . وعيناه تشحذان أفواه المدخنين .

الطفل يغمس أظافره الصغيرة اللينة فى التراب . . يبحث عن ندى ! لكنه يلامس حرارة الحزن تسرى فى عظام كفيه . . يداه يمتشط بهما خديه . . يتنهد . . يتنهد وينام .

* * *

قطتنا جائعة .. بيتنا لا يعرف الفئران ..

تذكرت أننى أجيد السباحة فى الليل .. سبحت عندما لبس الماء ثوب الاحتداد .. انغمست فى الظلام كى لا ترانى العيون ..

خلعت تنهداتى العميقة البعيدة من جذور ماضى الغابر .. رميت بها عبر انتفاضات أتعابى المعمّرة .. وأغرقت صوتى فى البحر ..

* * *

السواحل تكتسى بالنوم .. ورائحة البحر فراش وقناديل .. قرأت أن أبا ذر قال : «عجبت من الجائع كيف لا يخرج على الناس بسيفه» قطتنا جائعة ، بيتنا لايعرف الخبز .. والفئران تخاف ..

وقالوا : قالها .. هو فى زمن الهجرة !

أثواب عريضة وطويلة .. الجسم قصير ..

أنفاس تتلاطم بالأمواج فتنصرع ، كرئة حمل مسلوخ ، طيور البحر بالزبد .. ويدى تتصيد الطحالب الساحلية .. خضرتها حين تلاعب الهواء ، كنت أتلمس شبكتى العتيقة وقد اتسعت فجواتها .. عدت أجرجرها .. خيبات تقطر بماء مالح كالدم .

* * *

كان القمر دوائر زجاجية يكسر غيمات السماء .. تنبثق ضياءً ينغمس فى بوتقة اللحظة المهدورة ، وكان الليل ينفض هدوم الظلام ..

خلخال جارتنا يقرع مسامعى معلنًا طلوع الفجر .. حين تغسل شدقيها إلى المرفقين وتتوضأ .

... إن حبى للصبح غلب نغمات قلبى المسفوحة على عتبات الانتظار .

هنا سقط . . وماتت عقيرتى !

- ١ -

قال بصوت متهدج وقد ألقى عن رأسه حملاً ثقيلاً :

سوف ينتهى العالم . . أكسر يدى على الباب وتحملنى أكف فرحتهم !

قالها بغضب منفوخ ثم بصق خلفه ونام بكامل ثيابه الأخرى .

- ٢ -

قالت الشمس وهى تنفذ من خلال العواصف والغبار المتماوج فى الفضاء المرتخى :

سوف أضىء . .

وكان ضوؤها ينبثق من وراء الغيوم الداكنة ، كان على النخلة الطويلة ، التى تلعب برموشها الرياح السوداء . . ، عصفور جميل العينين . . يسمع ما يقال . .

صفق بجناحيه الأبيضين ثم بذيله نحو الأسفل وسقط منه شىء .

- ١+١ -

نهض . . تمايل . . وكان فمه يفرز سائلا رماديًا تتوزع على جناحى شدقيه . . سال حتى أغرق كم ثوبه . . والتصق بالرقبة المحناة بكلمات . . لفظها فى انسلال خافت . . وضع الحمل على رأسه .

كانت رياح سوداء تعصف بالسعف البعيد . . حفيفًا أخضر . . سنارات تقافزت كالسهام . .

جذب عينيه الحفيف . . رفع رأسه . . يداه على حاجبيه والحمل يتهدم كالستارة الممزقة . . نسى وكان يظنه خفيفًا . .

وعندما تدنى ليلتقطه اشتبك بقدميه . . تعثر هو ثم وقع إلى الجذع المنغمس فى الأعماق . . الرياح المغبرة السوداء تصطدم بالجذع المغطى بالطين . .

والطين أثواب تلتف حول الجذور .

- ٢+٢ -

كان العصفور قد صفق طويلاً . . هز ذيله ، سقط منه شىء نحو الأسفل . .

وقع على الجملة المحناة فى الرقبة السمراء .

- ٣ -

و . . كان صاحب الحمل قد جثا إلى الجذع . . الحمل

يشتبك بقدميه ويتلولب . . و . . كان قد جثا وأنام شفتيه .

الشمس تصارع الرياح السوداء . . تنفذ من خلال الغبار المتماوج ، وتضىء .

تتحدى الغيوم الداكنة وتضىء . . فيما انعطفت جملة محناة حول الرقبة السمراء العتيدة وانسكبت تقبل أعماق الأرض . .

ألمًا معصورًا .

الدمعة .. و الحظ الهارب

كان قد امتطى جواد الصبح .. مخلفا وراءه غبار الليل ، فى حين كان يسلخ عنه أردية النوم .. السعلات تنطلق من بوق حنجرته مخنوقة متحشرجة وجافة .. فرك عينيه بيدين من فحم .. وتذكر أنه بات فى نوم مزعزع ، وعشاء متخم بشجار طويل بين الجار وزوجته .

* * *

قبّل كأسًا من الحليب .. أحرق سيجارة الصبح اللذيذة .. التقط نفثاتها دفعات مترابطة .. رطبة .

دفن ذقنه الأجدب بين قبضتيه وأركزه على ركبتيه فى قرفصة بردية .. كان يبدو كالقط المتنمّر ، وكانت بعوضة عنيدة توخز أذنه القرمزية الباردة .. داعب أذنه .. سال ألم حاقد وقصير .. كان يسبح فى دخان سيجارته ..

أسافر إلى أشجار اللوز الجنونية .. « غطست » قدماه فى الطين ، الطيور تغسل الذكرى ..

(هذا غناؤها يتماوج .. يهبط رطبا) .. وتمتمت عيناه فى رفرفة الرموش ، وظهرت غارقة .. لينة متثنية .

* * *

فى الخارج بوق سيارة يسدد إزعاجًا يتعثر فى المسامع ، بصمت شفتاه على مستنقع أبيض ودافئ . . رسم شاربًا دقيقًا . . الحليب . .

لم يكن يمد قدميه . . ولا شعره المتقافز . . لكنه فرش أسنانه . . غسل فمه وملأه برائحة الصبح الملفوفة بالندى .

* * *

استرسل نور أبيض . . عانق غرفة تغرق فى رائحة النوم . . تسلل من فتحة الباب الوحيدة . . وسمع نباحًا بعيدًا ومتقطعًا . . بدأت موسيقى اليقظة توقّع عزفًا مترددًا مع رقصات النابهين . . وكانت قطة تزرع الحوش القصير . . تلوح بذيلها وكأنها تبحث عن حبيب . . كانت تدور . . ثم تقف أمامه . . تمد لسانها وتموء . . وكانت تموء .

* * *

صعد إلى السطح . . لحس حيطانًا أسمنتية داكنة وأحس غثيانًا . .

قرأ دقات قلبه ثم هبط .

كان الباب يشكو طرقات رتيبة خفيفة . . ولم يجد نظارته . .

(قادم من سفر قصير أهلاً بالصديق) .

وقال : أهلاً صديقى ،

قال رفيقه :

مرحبًا « ديبى » ، تكلمت عيونهما طويلاً . . كان يحمل حقيبة صغيرة هى أشبه بالمحفظة . . وكان يحمل كتبًا . . ساقاه نحيلتان . . ويداه تحملان كتبًا ، حقيبة صغيرة هى أشبه بالمحفظة . . وكانت القطة تداعب بذيلها ساقيه . . وكانت تموء وتمسح بفروتها .

* * *

فتح الثلاجة . . وشرب ماء باردًا أحدث داخل بطنه صوتا كأزيز الأوز ، وقال لنفسه إنه نسى . . وقال إنه ينسى . . وقال أيضًا : إن عليه أن يخرج من البيت . . لبس ثيابًا نظيفة واستحم فى المرآة طويلاً . . كانت رائحة الاشمئزاز تغلف رغباته المكبوتة . .

عنكبت رياح زرقاء غامقة وثقيلة داخل جوانحه ، ترك خلفه الباب ، الرفيق ، المرآة . . التقى برجل يحمل أرنبًا . . سأله إن كان يبيعه ، وقال الرجل :

إن هذا الأرنب النظيف الذى يبدو ساكنًا وأليفًا يشرب العصير ويدخن . . لم يجبه . . اكتفى بنظرة نشرها على أذنى الأرنب المكويتين . . كشف عن أسنانه المسوسة ومضى .

* * *

غرز بين شدقيه سيجارة ونتفها قبل أن تنضج . . كان يتطلع إلى حذائه الممسوح وقد تلطخ بالطين . . وصادف أشياء محببة وخالها لدنة وساحرة . . كان داخله يغنى . . ونبضه يغنى . . وحظه يركض آفلا . . وكانت الدمعة موجًا يتلاعب بشراعى عينيه . . وداخله يغنى . .

إنك فى قاع المدينة

إنك لم تعثر على حظك

اقطف دمعة من قلبك

اقطفها ولفها فى منديلك

اقطفها وألقها تحت الأقدام

إنك فى قاع المدينة !

نفسه والخيبات تزمر هائجة غاضبة . . تنمو . . تنمو وتتعاظم . .

كانت صفارة فى فم طفل تنز بالبراءة . . وتوارى داخل صمته :

هؤلاء السوقة . . جماجمهم والمال . . السوق . .

النهار متى . . لن . . كيف ينهزم . . لا .

وتمايلت رغباته فى أن يكون طفلاً . . وتمايلت فى أن يكون طائرًا . . سحابة . . هواء . . تمايلت . . وتمايلت .

* * *

قال : إنها الشمس تضحك من تكسر خطوى .. أسدل غترته على جبينه الصغير .

اشترى خبزًا وجريدة تحمل رائحة الأمس .. أحس عطشًا .. (فى الثلاجة ماء بارد وتفاح) ، ولما عاد إلى البيت ألفى ذبابًا كثيرًا ومتفرقًا على الأبواب .. كان يبدو كالرذاذ الأسود ..

نظر إلى يديه وقال إنهما صغيرتان وبريئتان وفيهما الحياة .. صفّر متغنيًا .. صفر وهز شوقه أنه صادف أشياء محببة وخالها لدنة وساحرة .

إنك فى قاع المدينة
إنك لم تعثر على حظك
اقطف دمعة من قلبك
اقطفها ولفها فى منديلك
اقطفها وألقها تحت الأقدام
إنك فى قاع المدينة !

* * *

أخرج من جيبه سيجارة .. أشعلها .. ظل ينظر إليها فى براءة وتجرد .. قال وهو يتابع نمو الرماد المتهافت دون أن يمضغها :

إن هذا الرماد المتهافت هو الأمس .. ويومى هذه الجمرة الدائرية الحارة ، قال وقد سقطت رمادة هشة طويلة ، ثم إن هذا الجسم المكفن الأبيض الذى ينام بين أصابعى .. إن هو إلا الغد ..

العمر ، وامتجها واحدة .. كان الدخان يتسابق فى تطاير مستمر .. يتسرب إلى السقف فى شمول وبطء .. وهذا الدخان الصدفى المتماوج .. ليتنى أقدر على حفظه .. إنه الدقائق .. الساعات .. ثوانى عمرى ثم قال إنه نفثات حزنى .. فلتمض سحابات الأيام هذا الدوام المستديم .

* * *

أحس صوته يتقطع .. حارًا مختنقًا ثم قتل سيجارته .. وتناطلت من جوفه طلقات هوائية .. كانت باكية ..

كانت أشبه بالضحك . قال فى نفسه وهو يبتسم فى هزء هارب وخفيف ، لو أن أحدًا يرقبنى ! انقطعت الكهرباء .. طال انتظاره .. لكنه نام .. لم يكن يدرى .. ونام .

* * *

صحا خائفا . . .

اقترب من طاولة الرسم .. سطر بريشته خطوطًا مائعة .. وأنام الريشة .. مسح يديه ونهض .

الماء دافئًا . . حمم قدميه . . نشفها . . حك رأسه فى حين تذكر أنه صادف أشياء محببة إلى قلبه . . وخالها لدنة وساحرة . .

إنك فى قاع المدينة
إنك لم تعثر على حظك
اقطف دمعة من قلبك
اقطفها ولفها فى منديلك
اقطفها وألقها تحت الأقدام
إنك فى قاع المدينة !
المدينة . .
المدينة !

على الباب طويلاً .. تنام خضراء

النهار الجديد ينبض دمه الأبيض ..

النهار يوزع رموشًا فضية .. الشمس تتدرج فى باطن البيت الطينى ..

الأهداب الخضراء ترتفع .. ترقب القرية الساكنة .. يكسبها طيبة .. طابعًا أليفًا .

* * *

خضراء لا تصحو مبكرًا .. لا تذهب إلى المدرسة .. لا مدرسة .. خضراء تجيد صنع القهوة .. لكنها لا تجد « هيلاً » تعطر به قهوتها ، زارهم خالها .. يعرف أن خضراء تجيد صنع القهوة .. تتقنها .. تعرف خضراء أن خالها يمتطى مشوارًا طويلاً .. يجب أن يشرب بعده قهوة السير البعيد .

خضراء لا تجد عطرًا لقهوتها .. لا تجد قهوة !

* * *

تدخل عمتها الوحيدة ..

تسلم بطرف عينها اليسرى .. تسلم خضراء .. يتنهد الخال ..

يسعل متصنعًا .. يرفع يده .. لا تتعدى ذقنه الأجدب ،

خضراء : كيف أنت يا عمتى ؟

تنظر العمة إلى أرنبة أنفها . . تنظر ببرود متطاول :

قهوتك اليوم تزور أنفى يا . . خضراء !

يمسح الخال أرنبة أنفه هو الآخر . . يلمس ذقنه الأجدب . . يفرك يديه . . يفركها بقوة . . يهم بالقيام . . تمسك به خضراء . . تحاول أن يشرب قهوة تقطن مفتاح والدها المسافر . . تحاول ، يصفعها . . ترتطم بالأرض الطينية . . ترتطم بقدمى عمتها الوحيدة . . تلامس أصابعها السهامية . . و . .

خضراء جديلتان من نهر أسمر . .

عينان ناعستان . .

لهفة . . حرقة وانتظار ممزق .

* * *

الخال ينصرف . . الخال يقفل الباب . . يصطفق فى عينى خضراء . . الباب يصرخ فى وجهها . . الصراخ . . الباب . . الصراخ . . سحابة حزن مهزومة تتقهقر أمام الجبين الملتهب .

خضراء تدفن وجهها فى الساحل الثلجى . . تخاطب ثمرتين تنفجران نضجا . . تستهجنها . .

وخضراء تنتظر قدوم قهوة السفر التى تقطن مفتاح والدها .

* * *

يأتى متسول .. يحث خطاه نحو البيت المضيف .. يحمل صرة مضغوطة تسكنها رائحة يتسرب من جوانبها (عطر القهوة) يطرق الباب المرتج قهرًا .. يطرقه متناهيًا فى لهث الرتابة .. عيناه تغسلان ثمرتين تنفرجان تدليًا ناضجًا .. خضراء تشتم عطرًا

تشتهر به قهوتها .. تتصدع شفتاها : هذا الغموض والنشوة .. يترنح عبر أعصاب اللحظة .

* * *

تدنو طاغية الأحلام .. تفتح الباب فى انفراج حذر .. والليل يغمر الصدر والعصيان ..

القهوة تموج فى رمال السفر البعيد على مفتاح والدها المسافر .. وقهر الصبر يضغط بأسنانه على شفاه الانتظار الطويل .. حيث تنام خضراء ملتحفة شق الباب والمزلاج لها مخدة .

القطة .. عينا صالح

عينا صالح نجمتان يسيل منهما وهج قلبه . . عيناه . . تسيل منهما وهجًا جرة حزن طويلة .. تتساقط لها أوراق الأشجار . . ودموع العصافير ، صالح . . صالح . .

يهوى اللعب بالمنديل . .

يهوى اللعب مع قطط القرية . . كم هى شرسة ! ليست كلها ، لكنه لم يمسح على ظهر واحدة ، صالح . .

يحب ألا يؤذى القطط . . لا يرميها بالحجارة كبقية الأولاد الأشقياء . .

القطط ليست كلها شرسة ، لكنه . . صالح : عيناه حزنٌ مغسولٌ بماء قلبه . . ذوبًا . . ذوبًا . . وهجًا ، تتساقط لهما أوراق الأشجار . . ودموع العصافير !

* * *

قطط القرية تخاف دوما . . و . .

لا تدرى تخاف صالح ، كخوفها أولاد القرية الأشقياء ، صالح . . يلعب بالمناديل . . القطط ، كم قدم لها الفئران ملفوفة بمناديله المعطرة . . لكنها تخاف .

. . . سيقسو عليها !

عيناه تمنعانه . .

لا يرميها بالحجارة كالأولاد الأشقياء .

* * *

حين نزل المدينة

داعب قطة أليفة . . أودعها ذوب عينيه . . حزنهما البعيد . . البعيد

سمع أن قطط المدينة ليست كقطط القرية . . إنها لا تحب الفئران !

كان يكوى مناديله . . ويقدمها معطرة بدون فئران . . القطة تملك فروة ناعمة . . و . . صالح لا يهمه لونها . . فهى ناعمة . . يلعب معها . . يودعها برج عينيه : نجمتان وحزن غائر . .

يودعها برفق وحذر مفرط !

القطة تجيد اللعب كثيرًا . .

تبسط مخالبها المنقوشة . . وصالح يضع مناديله المعطرة على المخالب ليغطيها . .

يغطى المخالب الأولى . . يغطى المخالب الثانية . . والمخالب تخترق كل المناديل . .

المناديل تنفد من جيب صالح . . يستعير مناديل . . لكنها غير معطرة كمناديله !

صالح . . يلمس الفروة . . لا . .

يلمس ليفًا . . شوكًا بارزًا كثيرًا يدمى أصابعه . . يمتص ذوب عينيه . . يطفئ النجمتين . . كان يغطى عينيه بيديه الداميتين ويتوعد بالحجارة !

انكسارات .. فى القلب الأخضر

لم تقدر على المكوث داخل انقباعك الحالك .. لكنك تمددت فأحسست ألما يمج فى ركبتك .. نهضت متثاقلاً .. متألمًا ومضيت إلى فراشك .. وكانت تنبعث منه رائحة الجفاف ويملأ فراغًا راكدا .. تعرفه أنت .. وحدتك المطلوبة فى تداعيات الظلام المنهمك وبرغم الإضاءة المكثفة التى تبهر غرفتك النائية .. إنك تبدو دائمًا وكأنك فى بطن حوت .

ها أنت ذا تمط بشفتيك وتفكر : لو أن صراخى عناقيد .. لاشتريت مكبرًا وملأت الهواء بالصراخ .. وفكرت : الصمت فى غير زمنه مقت .. والمقت أن ترى روحك مهدورة كزنبقة فى شتاء ، بصقت جانبًا ومضيت .. ألقيت بسحنتك الترابية فى وجه البحر وتنفست طويلاً .. طاردت بلمحاتك الزجاجية أسرابًا من طيور البحر .. كانت تضحك من الأمواج وتصفعها بأجنحتها البيضاء الضعيفة ، كانت تغسل جسدك داخل هذه الرطوبة اللاصقة .. وتنفست طويلاً كى تملأ رئتيك من الفضاء الرحب .. وتحس أنك صوت يملأ العالم ، لكنه يهز نبضك المتراخى فى بدنك النحيل الشاحب .

أنفاسك تضيق .. ويضغط بعضه على بعضها .. فتصير

كثقب الإبرة . . وتأخذك رغبة جامحة فى استنزاف هذا الضيق وإفراغه على هذا البساط المتماوج العريض ، لكنك وبرغم وحدتك وغربتك على الساحل كطير منتوف الريش . . إن كل هذا الهواء . . وكل المساحات المنبسطة البعيدة . . البعيدة لا تكفى لأن تنعش رئيتك بهبة واحدة . . لتعطيك أمل العودة ، والعودة لو علمت كم هو طويل وهمها . . مبتور طريقها . . متعثر خطوها ، لكنك تفرد يديك . . تنفض جيوبك وتلقى بفراغاتها فى البحر . . تلمست جيب صدرك الذى تعزه . . ولم يهن عليك أن ترمى بلسان صوتك حين تخرس كلماتك فى جسد اللغة . . غير أنك نثرت عناوين كتبت بألوان من الحبر حمراء وصفراء حين تصورت البحر ثعبانًا بداخله ونقائض يطوف بها العالم . . ويلتقى بثعابين كثيرة يبادلها عجائبها وتبادله وحشة وبراءات .

ها أنت تقف فى مكانك خاويًا . . مائيًا ومحملاً بالقذارات التى لامستها فى أسواق الفحم البذيئة . . وأنت تعرف أنك مرغم على أن تقضم رغيفك معفرًا بهذا السواد البذىء . . ها أنت ذا بعينيك تمسح شمس المغيب وهى تنتحر ناثرة دماءها التى لا تنضب على زرقة الماء . .

وتصرخ : لو أن ليلاً بصحراء انتحر شبعًا على الرمل . .

وأنت تقف خامل اليدين .. مباعد القدمين .. تسمع هدير الموج يلاطم حبيبات الزبد .. وهى تتفرق كالعيون .. وتذكرت العيون القاسية .. لم يفتك أن تذكرها فى المخابئ لكنك الآن تدس يدك فى جيبك تخاف أن بها عيونًا .. ويأتى زحف البحر ثعبانًا كالغضب الثائر .. فتقفز عائدًا حيث اختناق الأقدام وتلاحم السفاهات فى الأسواق الداكنة .. الداكنة ..

تنغمر كالقمحة فى الطحين .. يمتلئ وجهك بغبار التائهين .. المنفيون فى الأسواق يفترشون غربتهم .. لو كان الحزن مواويل من الحقد والصمت .. يصفقون مع المصفقين .. يتقمصون أفراحًا جوفاء .. تطعنهم بالضجر والسأم .. يذوقون المرارة .. يشربون عطشا .. ويتمنون قطرة ساخنة يمتطون عليها مشوارهم إلى حيث يجمعون قشًا لعشهم الذى يقيهم حر الجفاف .. يقتسمون قوتهم بينهم بكف واحدة .. ووزن واحد ..

وكنت أنت وجهًا واحدًا ضائعًا .. وكان وجهك قلبًا أخضر يرف فى كل خطوة .. ويخفق عند كل وجه من هذه الأوراق المزدحمة المتهاطلة .

كنت أمسح على براءتك فى راحتى .. أنفخ حولها فتغدو ثائرة نقية طاهرة تعزف لحنًا يجمع الأشتات .. كنحلة نقشت

روحها دفاعًا عن نقطة عسل تحمله فى رأس دبوس . .

أعرفك منكسر النفس . . مهزوم الوجدان . . تحمل سجائر أو قداحة تحرق العالم . . أعرفك . . هادئًا . . وسيمًا . . تتعثر فى الممرات المتعرجة الطويلة . . تبحث عن . . ووجهك بلون الزيت . . وأنت الماء تنقب عن ماء القلب .

يا وهج الماء . .

يا لون الماء . .

يا براءة الماء !

موت على الماء

النجمة تنام فى قميص من بريق ووهج . . تقطر ضوءًا يعوم فى فضاء رقيق . . لم يكن الشايب قد توضأ للصبح . . صنبور الحنفية ينقط . . يفرغ إبريق الوضوء المعدنى المتعرج من أثر الصدمات . . فالأولاد يتخذونه كرة حين غفلة الشايب . . يلعبون به . . يدحرجونه بين أقدامهم الحافية فى تراب الحوش .

غنت عصافير اللوز . . صاحت ديكة الجيران تسابق تذاكير الشايب ، وخيوط الفجر . . لحية الشايب . . شعيرات الكف تقطر بالوضوء . . وبرد الصباح يتنفس طقيقًا فى ركبتيه وغضاريف ظهره . . والزاوية المنحنية . . يتدثر بجبته الصوفية « المحمرة » ثم يبسط سجادته الخوصية . . يهتدى برسم مئذنتها . .

حين يكبِّر يرى الرسم مقلوبًا فيعود يعدل وضعها ويكبِّر . . يسجد وتلتصق بالجبين المعلَّم . . ويسجد وتلتصق ثم يبسطها ويسجد وتلتصق ثم يبسطها ويسجد . . ويسلم على ملائكة اليمين واليسار . . يطوى سجادته ويعلقها على وتر الحائط الطينى .

كانت تسقط . . ثم يفردها . . يطويها ويعلقها .

دجاجتنا تشقشق ملء الدار . . تصفق بجناحيها . . ثم تنتف ريشها وتبيض على كيس اللوز المركون إلى جوار بيتنا العتيق . . حين اقترب أخى ليحمى بيضتها السوداء الكبيرة من قط وحشي . . نظرت فى وجهه . . ففقأت عينه وهربت من القط الذى يلتهم كل ما تبيضه . .

إذا سألنا أخى الأعور قال (ذباب . . ذباب ذبنى وذبيته) .

على ساحات قريتنا النائمة فى ظل براءتها الفقيرة . . تسح الحسرات من عيون المجاهدين . . يختبئون تحت أمن الاسم . . يوكلون اللقمة على أمن الاسم . . . فى زفاف ابن عمى المجدور الوجه . . دق طبل الفرح . . زغردت النساء الحافيات . . اتشحن بالخمار . . كتمن الأنفاس ، ومضين إلى حيث سجن العروس الأبدى . . لا تخرج منه إلا حيث انكسار مثواها .

وفى زفافه . . تجمع الأولاد . . رقص الرجال بالعصى . . كان شيخ القرية يحظر عليهم حمل النار . . فالرقص بها يخيف أمن الاسم . . ذاك الذى يوكلون عليه اللقمة .

عند انعطاف الرقصة الدائرية . . وقف الشايب يحمل سجادته الخوصية ويرقص بها . . يهدد بها الفضاء . . ويلاطم بقفزاته سحابات الغبار المنبعثة من تحت أقدام الراقصين . .

والصوت واحد . . خلف الشاعر ينجرّ . . يتوزع أصداء . . تتقاذفها الحناجر : « دقدق الراعد . . وهل الناوى . . وهبوا للما محرّفه » .

انطفأ رسم الزفاف بعد ثلاث . . عادت الأقدام المتعبة . . تحت الخطو . . تسرح وتروح . .

وجلود البقر تحمل أعباء العيال : رزقا . . حياة . . وتعبا .

لما تمر أيام الجفاف يقبع المجاهدون فى دفء ما اكتروه . . يقطّر عليهم . . يقطّر . . (ويكون فقر من ماء ولا فقر من ظمأ).

تتحاشد الأوعية الجائعة حول رماد الغمام . . ينقشون أقدامهم من أشواك الطلح القاسية .

الشايب يخلل لحيته . . يراها نسيجًا أبيض من لباس الموت يستدعى أولاده . . يقرأ عليهم سورة . . و . . يرسم لهم مملكته التى ورثها عن أمه حين نهب الآخرون تحت مضاجعهم ماءها . . يقيس حدود « أقسامهم » بسجادته الخوصية .

الأولاد يتابعون رسمها الدموى . . تمتلئ وجوههم زرقة . . تفيض العيون أسى . . ورقًا أصفر يتناثر من أفواههم أسى . . ودماء الرسم تغوص فى الرمال . . لا تنبت الزرع . . يعرفونها . . لكن الماء يغطى الجذور . . والدماء تنزف فى كل يوم اثنين وعشرين مرة .

لم تخرس وصية الشايب . . غير أن الأولاد لم تتبين فى أيديهم أرغفة « السّيّال » . . البعض على صدورهم تسيل زركشة الماء الذى غطى أمنيتهم . . آخرون . . آخرون . . آخرون يذوبون شوقًا . . يحملون على رءوسهم زهورًا « يطوفون على الجرن الشاحبة » .

لم تخرس وصية الشايب . . ظلت معلقة بسجادته . . تنطق العدل تتنبأ بأساطير ضوء يكشف الغيمة الداكنة . .

فى شتاء الأيام تهب الرياح بساحة الحوش تلعب بالإبريق المعدنى المتعرج . . وتقذف به فى الأحلام العقيمة . . ينتظر تباشير الفجر القادمة من مسافات البعد . . ويفتح فاه للسحابة القادمة من عقبات تهامة . . لتمطر ماء الوضوء وتمسح عن أعشاب البراءة سحنة الغربة الداكنة .

وكان الأولاد يحملون زهورًا . . يطوفون بها على الجرن الفقيرة . . يفترشون أحزان غربتهم ويموتون انتظارًا لأفراح وهمية ميتة .

مليحة : الغنم .. وموت الحماطة

الشمس تبعثر ضفائر من ذهب .. هواءً ضوئيًا يصبغ الأشجار والحجارة .. يتفرع فى الحقول .

يغطى السفوح الباردة : سهامًا قزحية متعاكسة ، البيوت الصخرية تستند إلى الجبل الرمادى .. و (محضرة) تتدرج إلى أسفل الوادى الأخضر .. متفرقة .. متواطئة ، شجرة (الحماط) ترفع قبعة خضراء .. تستدير كالمظلة .. تتمايل على جسم عتيق : أصفر ومتين .. تحتل دائرة بقعية : ظل حين تقف العين فى الكبد .

وفى المنحدر الجنوبى تقف شامخة ترقب كل البيوت .. تحرسها من عواصف الجن المخيّمة الثائرة .

* * *

شجرة الحماط .. مرتان تثمر فى كل عام :

(سياب) الأولى للأولاد ينظمونه قلائد .. ينظمونها فى خيوط رفيعة طويلة ..

يتطاولون فى تعليقها على الفروع البعيدة .

أما فى المرة ما بعد الأولى :

يكون الثمر حلو الثمر .. صالحًا ، حين تلوح بالنضوج ثمرة .. تلتهمها عين عابرة مشتاقة :

أعزب ..

رجل ..

شيخ ، ولا امرأة ،

بنات القرية يمررن قرب شجرة الحماط العتيقة .. يقذفنها بعبارات اللؤم ..

يمررن ،

البنات جميعهن لا يعرفن طعم ثمرها .. أمهاتهن والجدات .

* * *

كانت مليحة ترعى غنمها فى السفوح الخضراء .. تسقيها ، وفى القيلولة تفرد صرتها بالقرب من « الجلّه » ..

الماء حيث يجرى عبقًا بالحبق ، ترقب الحماطة العالية البعيدة وتأكل غذاءها :

خبز أسمر ..

حليب من ثغاء

خبز .. حليب وغناء .

كانت ترقص لمقدم الرياح الموسمية .. تصفق .. تتراقص جديلتاها و .. تراقص الماء .

الماء يجرى : عيونًا سوداء تغنى وتلتهم أفواه الشياه .. والشياه تجرى إلى الماء .. تنغمس فى بياضه الزجاجى أيضًا ، تصمت .

وكانت تتجرجر كالسلسلة المنثورة .. تضطجع فى خوف وحذر .. تجتر فى فىء الحماطة ومليحة :

غنت .. صفقت كثيرًا ثم تعبت .. جاءها النعاس ونامت .

* * *

الماء يحدق فى وجه مليحة .. يغازل ضفيرتها ويغنى .. كانت تنغمس فى أحضان النعاس .. وكانت تنام بعمق مليحة .

الماء عيون تغنى .. تغنى وتحدق و .. مليحة :

تتمدد فى حلم طويل .. رهيب ومفجع .

(شجرة الحماط ترتمى متراخية .. مسلوخة .. تتقاطر دماؤها وتغرق جسمها الكبير الأصفر .

رجال القرية يحيطونها .. خاتما متآكلاً واسع الحلقة .

سعيد يدفن الدم المتدفق بالتراب .

على يحمل إبريقًا .. يغسل الجذور والفروع بالماء .. كان الشيخ الكبير فى القرية قد خلع عمامته وغطى بها جزءًا كبيرًا من الجذوع الجنوبية .. والدم يغمر العمامة .. الأيدى ، والوجوه تكتسى دمًا وتغرق .

الأولاد تفرقوا كالذباب ينبشون بين الأوراق الضامرة . .

وكانت النساء كالغربان على الحافة البعيدة . . يلتحفن الخمار وينتفضن) .

* * *

صوت الماء يرتفع . .

رائحة القوافى تغازل ضفيرتى مليحة وينتشر العبق يغطى أصداء مدوية .

مليحة فتحت عينها . . حدقت فى وجه السماء . . لافحت أجنحة الهواء . . التفتت ولم تجد عتمها .

وضعت خطواتها النابهة على يسار الماء الجارى .

جرى : ذعرًا خوفًا . . صمتًا حالكًا مغلفًا بالوجل . . كانت قدماها تقودانها نحو البيت . . .

. . . .

نحو البيت . .

نحو البيت . . ، وتبحث عن الخمار الممزق . . لتضم انتفاضتها إلى نساء القرية الجالسات على الحافة البعيدة .

الغنم تضطجع جميعها فى خوف وحذر ممتزجين . . كانت تخاف و . . .

تخاف . . ولا تدرى مم . . وكانت تحذر الخوف الذى

تخافه . . تجتر فى فىء الحماطة ، الحملان الصغيرة تزمر :
ثغاءً بريئًا . . يتصاعد . . ينطلق خفيفًا . عذبًا كصوفها الحريرى القصير .

وبآذانها : الشياه تشير إلى حملانها بصمت . . والحملان تزمر . . تزمر . . تقفز بوداعة (تتناطح) فى مرح برىء . .

الشياه كانت تلوك الصمت . . تجتر فى خوف اللاخوف . . وتجتر فى حذر .

* * *

مليحة تدخل البيت . . تنادى أمها مرتعشة . . الأم تمسك بيد ابنتها تهدهدها .

مليحة تبحث عن الخمار الممزق . . الأم تسأل عن قلعة مليحة :

الغنم . . الخوف ، والغنم خوفا تجتر . .

حملانها الصغيرة تزمر وترقص وتمرح ببراءة بلهاء .

مليحة منثورة الشعر . . تطل من نافذة الموسم التى تشرف على المنحدر الجنوبى .

الحماطة : تقف شامخة ترقب كل البيوت . . تحرسها من عواصف الجن المخيفة الثائرة . . وقد تحولت أوراقها إلى :

عيون صفراء . . قاسية قوية وكبيرة .

الفهرست

صدر من هذه السلسلة

1- عيون الغرباء . . . . فتحى غانم
2- السرداب رقم ٢ . . . . يوسف الصائغ
3- حكايات للأمير . . . . يحيى الطاهر عبد الله
4- مجنون الورد. . . . . محمد شكرى
5- نجمة . . . . كاتب ياسين
6- نهر المجرة . . . . عبد الوهاب البياتى
7- السد . . . . محمود المسعدى
8- بناية ماتيلد . . . . حسن داوود
9- سرير لعزلة السنبلة . . . . محمد الأشعرى
10- حجر الضحك . . . . هدى بركات
11- سأهبك غزالة . . . . مالك حداد
12- الخماسين . . . . غالب هلسا
13- حزن فى ضوء القمر . . . . محمد الماغوط
14- مختارات . . . . وديع سعادة
15- سباق المسافات الطويلة . . . . عبد الرحمن منيف
16- دعوا الشقاء سالماً (مختارات) . . . . عباس بيضون
17- أف ! (مختارات) . . . . زكريا تامر

من أعدادنا القادمة :

- هكذا يغنى طائر الأرز   مختارات من شعر : هدى ميقاتى
  اختيار وتقديم : إسماعيل عقاب
- رحلة الغرناطى . . . . ربيع جابر
- مصرع ألماس . . . . ياسين رفاعية
- تسع مسرحيات . . . . أحمد إبراهيم الفقيه

آفاق عربية

إرادة إنسانية فذة لا تعرف الاستسلام ، نعثر عليها عند هذا الكاتب ، الذى قاوم مرضه باستماتة ، وحاذر من الوقوع فى شرك الإحباط . فإذا كان بدر شاكر السيّاب قد تحوّل مع المرض إلى متأمل صوفى ، فيما أضحى اللون الأبيض مساويًا للألم عند أمل دنقل فإن كاتبنا القاصّ الرائد عبد العزيز مشرى قد جعل إبداعه معادلاً للوجود .





الشركة الدولية للطباعة

الثمن : جنيهان